محمد راتب صديق

تجربتى
فى الفن والحياة

الجزء الأول



محمد راتب صديق

تجربتى فى الفن والحياة

الجزء الأول



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٩

١٩١٩ محمولا على الكتف .. الخادم تمرق بى عبر شـوارع القاهرة وأزقتها .. تشاهد تلك الجموع الغاضبة تتقدم فى مسيرتها .. رايات وأعلام خضراء .. ترفعهـا الأيدى .. هتافات تدوى تقابلها رصاصات تطلق البعض يقع صريعا والبعض يتفرق .. الى حين .. ليتجمع ثانية .. والهتافات تستمر والرصاص يدوى ..

لم أكن أعى شيئا مما يحدث وأنـا فى الثانية من عمرى .. ولكن تلك المشاهد كانت تتطلب تفسيرا ..

عقلى الصغير لا يستطيع .. !

انها الثورة .. ثورة مصر ضد الاحتلال الانجليزى ولكن هيهات أن أفهم شيئا من هـذه الكلمات التى قالها والدى تفسـيرا .. فى ذاك الحين ..

بقيت تلك الأصوات الهاتفة فى عنفوان .. تخرج من الحنـاجر المتعبة فى بحة وحشرجة .. وطلقات الرصـاص تدوى لاسكاتها ..

ترك هذا كله .. ترك علامات حفرت وترسبت فى نفسى .. وفى العمق .. أثارا لا تمحى ... !

فى سن الرابعة دخلت الكتاب لحفظ القرآن ولأتعلم الحساب ..
وكانت تجربة قاسية على فى تلك السن فقد كانت هناك توصية
مسموعة من الشيخة ذكية التى اعتادت الحضور الى المنزل كل يوم
وفى ساعة معينة لتقرأ شيئا من القرآن الكريم ولها أجر على ذلك .
وكانت الشيخة ذكية هذه قريبة لشيخ الكتاب الضرير . وكان
لتوصيتها هذه أثر كبير حتى ان شيخ الكتاب الضرير هذا الذى
كان يعطى الأجر مضاعفا للعناية بى لم يكن له شغل يشغله سوى
الاهتمام بى وتحفيظى القرآن فى أسرع وقت ممكن . فكان يسأل
عنى عندما أحضر الى الكتاب ويبدأ فى سماع ما حفظته فى اليوم
السابق من الآيات وهو يصحح لى الخطأ تلو الخطأ وكان هذا
مقبولا لولا أنه كان يمسك بيدى اليمنى مفتوحة فى يده اليسرى حيث
كنت أسير على يساره وهو يمشى وأنا بجانبه أقرأ له ما حفظته
فى فناء المدرسة وكان كل خطأ أقع فيه يشفعه عند تصحيحه لى
بضربى « بالزخمة » على يدى التى يمسكها بقوة فى يده « والزخمة »
هذه عبارة عن سير من الجلد طوله حوالى القدم مثبت فى مقبض من
خشب ... وكان هذا الضرب يؤلمنى جدا ولكنى كنت أكتم ألمى
ولا أصرخ أبدا ، وبذلك لم يكن يعرف الشيخ الضرير مقدار ألمى حتى
حدث فى يوم من الأيام ان زاد الضرب أكثر مما ينبغى لغلام فى الرابعة
أو الخامسة من عمره فشعرت بقسوة الضرب وبألم شديد لم أستطع
تحمله فسحبت يدى من يده بكل قوة وجريت نحو باب المدرسة
مسرعا وأنا أنظر خلفى الى « سيدنا » كما كنا نسميه . هل سيلحق
بى ؟ لقد وقف ذاهلا ينادى على .. يا ولد .. يا ولد .. لم يتحرك
من مكانه فقد كان ضريرا ، وكنت أكتم ألمى دائما ولكن كما وجدت
نفسى أجرى خارج المدرسة وجدت دموعى تنهمر وذهبت الى البيت
صارخا باكيا وكانت يدى قد تورمت تماما من الضرب .. وأمضيت
خمس سنوات فى مدرسة محمد على الابتدائية بالسيدة زينب فقد

رسبت فى الابتدائية فى الحساب . وأنى لا أذكر فى سنى دراستى فى المدرسة الابتدائية بالنسبة لدروس الرسم سوى مدرس شاب يرسم بيده اليسرى كان يعطينا دروس الرسم وبدأ يطور الدروس التقليدية الى دروس من الخيال فكان .. على سبيل المثال .. يعجبه كثيرا (بائع الأوز) الذى كان يسير فى الشوارع يسوق أمامه قطيعا من الأوز وفى يده عصا طويلة للتحكم فى سيره وكان هذا الموضوع مثيرا فعلا للتلاميذ فى هذه السن .

ولكن حدث لى حادث مع هذا المدرس اذ أنه لم يعجبه رسمى (للأوزة) كما ينبغى وكان فى يده مسطرة فضربنى بسنها فنزلت على ركن عينى فأسالت منها الدم وعولجت فورا وعلمت أن الناظر وبخه ولكننى كرهت دروس الرسم بسبب هذا المدرس .

فى السنة الأولى الدراسية فى المدرسة الخديوية الثانوية كان أستاذنا فى دروس الرسم ذا مزاج خاص ورؤيا خاصة للفن وتعليم الفن وكنا فى ذاك الوقت تتعلم الرسم بطريقة لا يمكن أن نصل بها الى أية قيمة فنية على الاطلاق .

وقد رسبت فى مادة الرسم فى الدور الأول ولم أتمكن من الحصول على ٤ درجات من ٢٠ درجة كى أحصل على النجاح .. ولكننى وفقت فى الملحق أو كان هذا شفقة لطالب نجح فى كل العلوم ما عدا مادة « تافهة » مثل مادة الرسم .. وقد نقلت الى الثانية الثانوية بعد أن حصلت على ٦ درجات فى هذه المادة .

وفى هذا العام ١٩٣١ ــ ١٩٣٢ على ما أذكر .

وفى أول حصة للرسم دخل علينا شاب فى الثلاثين من عمره عاد لتوه من بعثة فى لندن يلبس بذلة سوداء سماحة فى وجهه وبسمة رقيقة على شفتيه وبدأ الدرس بشرح على السبورة لبعض التوجيهات

فى رسم المنظور واندمج فى الشرح بدرجة جعلت الطلبة جميعا يندمجون معه فعلا فى كل كلمة يقولها وكل خط يخطه على السبورة .. لقد شدنا هذا الرجل بحماسة للمادة ومنذ هذه اللحظة أحببت حصة الرسم ولم تمر بضعة شهور الا واجد نفسى وقد اختارنى الأستاذ عضوا فى جمعية الرسم أى أننى أصبحت من المتازين فى مادة الرسم وأصبحت درجاتى فى هذه المادة ترتفع الى ١٥ ـ ١٨ من ٢٠ درجة .

لقد كان تأثير الأستاذ على قويا لعدة أسباب .. كان يحب المادة وكان جادا كل الجد فى دروسه وكان يحب الطلبة .

وفى جمعية الرسم بعد الظهر بعد الانتهاء من الدروس كان يجتمع بنا الساعات الطوال ونحن وهو مستغرقون فى أعمال ذات طابع أكثر طموحا من دروس الرسم الرسمية .

وانتقلت الى السنة الثالثة الثانوية لنيل شهادة الكفاءة وداومت العمل برغبة قوية فى الرسم سواء فى الحصص الرسمية أو فى جمعية الرسم بعد انتهاء الحصص .

انى لأذكر اسم هذا الأستاذ بالحب والوفاء وهو الأستاذ محمد سعيد الغرابلى ... رحمه الله .

لقد تعلمت منه الكثير الجديد .

***

قررت الانتقال مع أختى للسكن فى بيتنا حيث ولدت ونشأت فى عزبة المنيب بالجيزة .. ولهذا فقد حولت أوراقى الى المدرسة السعيدية بالجيزة لقربها من محل اقامتى .

وصادفنى فى السنة الرابعة الثانوية بالمدرسة السعيدية أستاذ

لمـادة الرسم لم يعرف سوى الطريقة الروتينية المعتـادة فى تدريس الرسم وشعرت بالفرق الشاسـع بين الأستاذ الغرابلى وهذا الأستاذ ولم أستطع كتم شعورى فصارحته بذلك .. بل انى قلت له بالحرف الواحد « انه يجدر به أن يتعلم قبل أن يعلم » وصدم الأستاذ . كنت قاسيا وقد شاب كلامى .. شىء من الغرور .. وشعرت بذلك فتلطفت معه وقلت له انى تعودت على طريقة معينة من أستاذ معين فى المدرسة الخديوية وهو أستاذ عاد حديثا من بعثة لدراسـة الفن فى انجلترا وأنـا شخصيا معجب بطريقته فى التدريس بل انى استفدت كثيرا منه .

كانت حجرة الرسم فى ذلك الحين تلاصقها حجرة صغيرة هى مكتب أساتذة الرسم فذهب هـذا الأستاذ الى هذا المكتب وعـاد بعد برهة ومعه شاب طويل القامة باسم الوجه وجاء الاثنان الى حيث كنت أجلس وأنـا منهمك فى عملى .

وبدأ يسألنى هذا الشاب عن الأستاذ الآخر الذى كان يدرس لى الرسم فى المدرسـة الخديوية وعندما عرف اسمه .. قال لى فعلا انه أستاذ ممتـاز وأن لى كل الحق فى الاعجـاب به بل انه زميل له فى الدراسة فى مدرسة المعلمين وأنه هو الآخر عـاد لتوه من بعثة لتعلم الرسم فى انجلترا وبدأ يحدثنى ويسألنى عن الأستاذ الغرابلى وكيف كانت طريقته وطلب منى أن أحضر كراسـة الرسم الخاصـة بى من المدرسة الخديوية حيث أن الأستاذ الغرابلى كان قد احتفظ بها .

لقد استرحت لهذا الأستاذ .. كان حديثه مريحـا وابتسامتـه مرحبة وفى ملامحه تشجيع واطمئنان ولقد وجدت فى مدحه لأسـتاذى السابق ما جعلنى اطمئن اليه وبدأ يشجعنى على الانضمام الى جماعة الرسم وضرب لى موعدا بعد الحصـة وفى « الفسحة » بعد الغذاء لأقابله فى المكتب لأتعرف على الزمـلاء من أعضـاء الجمعية ويرينى بعض أعمالهم . وفعلا تقابلنا وبدأنا زيارة قاعة الرسم وعلى جدرانها

علقت بعض الأعمال لأعضـاء الجمعية ومررت سريعا وهو يحـاول لفت نظرى الى بعضها والى القيمـة المحققة فيها ولكنى مررت بغير تعليق منى حتى لفت نظرى بعض الأعمال بالقلم الرصـاص وجدت فيها شـيئا جذبنى اليها : احسـاس طيب ومقدرة على اظهار هـذا الاحساس • وسألت الأستاذ لمن هـذه الأعمال فابتسم وقـال انها لرئيس الجمعية كامل التلمسانى ، فاظهرت اعجـابى بها وقررت ان انضم لجمعية الرسم وبدأت العمل فى جمعيـة الرسم فى المدرسـة السعيدية وأنـا فى السنة الرابعة الثانوية وتحت اشراف الأسـتاذ يوسف العفيفى وكنت سعيدا بالتقائى بهذا الأستاذ •

كان انسانا قبل كل شىء ولهـذا كان أسـتاذا مربيا من الطراز الأول •• لقد كانت هناك صداقة وحب متبادل بينه وبين الطلبة • انه أعزب ومقيم فى « الداخلية » مع طلبة القسم الداخلى ، يدخن كثيرا ولا يبخل علينا بسجائره البحارى ••• كنا نسهر الليالى الطوال والكل يعمل فى جد ـ ان الأستاذ لا ينتقد ولكنـه يشجع « ويحمس » وقد يناقش فى بعض التفصيلات •

كان بعض أعضاء الجمعية لم تنعقد بينهم الألفة والصـداقة •• وكان أحدهم يتصرف بعنجهية وتحفظ شديدين فى حديثه ومعاملاته مع الزملاء وقد راقبته عن كثب ورغبت فى ازالة الحواجز بين هـذا الزميل وباقى الزملاء ـ فقد كان زميلا ذا موهبة طيبة ••• كان الزميل سعد الخـادم •

كان كامل التلمسانى يعمل فى جزء من ستارة المسرح من أسفل وقد صعدت أنـا على سلم أرسم وألون الستارة من أعلى •• وكان الزميل •• سعد الخادم •• يقف بجوار كامل التلمسانى فى تأنق واضح ويعمل فى صمت وتحفظ فى الرسم ، وراقبت الموقف ثم طلبت من كامل التلمسانى « جردل » البوية فرفعه الى وأنـا على السلم • وفجـأة

انفلت من يدى ليلبس رأس سعد الخادم تماما وتسيل الألوان على رأسه ووجهه وملابســه • وصمت الزمــلاء جميعا مراقبين الموقف وما يمكن أن يحدث نتيجة لهذه الحادثة • وفى وسط الصمت التام من الزملاء والأستاذ •• رفع سعد الخادم « الجردل » من رأســه وظهر وجهه وقد صبغ الألوان ، وسمعناه يضحك فى غير غضب بل فى مرح • ونزلت من على السلم لأعتذر له ، ولكنه قال انها حادثة لطيفة غير مقصــودة • ومنذ هذه اللحظة أصبحت الألفة تجمع الجميع ، بل هى صداقة استمرت عشرات السنين فيما بعد •• كامل التلمسانى •• فتحى البكرى •• ســعد الخــادم •• كمال المــلاخ •• عبد العزيز سليمان •• كمال نور ولحق بنا جيل لاحق •• فؤاد كامل •• أبو خليل لطفى •• وغيرهم ••

كانت فترة رائعة أمضيناها مع أستاذ رائع انسان صــديق وأخ أكبر نعرض عليه مشاكلنا الخاصة لنحلها ســويا يعرف عنا كل شيء•• لذا كانت قيادته سلسة وسهلة ومقبولة دائما •

بعد الحصــول على شــهادة البكالوريا ١٩٣٦ تقدمت بأوراقى « لمدرسة الحربية » لأكون ضابطا بالجيش ، وكان أســتاذنا يوسف العفيفى يشجعنى على هذا الاختيار الذى لم يكن فى الواقع ســوى اختيار أهلى وليس اختيارى •

ويذكر لى زملاء لنا تخرجوا قبلنا والتحقوا بالجيش مهندســين أمثال رمزى عمر وغيره أن الجيش سيعطينى بعض الفرص لمارســة هوايتى فى الرسم ولكن كلامهم فى هذا الصدد لم يكونوا هم أنفسهم مقتنعين به تماما ، ومن ثم فلم يكن مقنعا بالنسبة لى ، فقد كانوا يفكرون فى المستقبل وأن الفن فى ذاته ليس من فروع الدراســة التى تؤمن مستقبلا ماديا على المستوى اللائق •

وكنت مترددا طوال الوقت فى مصيرى •

هــل الجندية هى مستقبلى أم هنــاك كليــة أخرى قد تكون أوفق ••• ان مدرسة الفنون الجميلة لم تكن قبلة لى بالمرة لانتى لم أسمع كلمة طيبة واحدة عن هذه المدرسة من أستاذنا فى ذلك الوقت •

***

فى يوم من الأيام ــ وقد تزوج أستاذنا يوسف العفيفى ــ كنت أزوره فى منزله حين رزق بمولودته الأولى « بوران » قال لى ان زميلى سعد الخادم الذى أصبح صديقا حميما لى بعد « جردل البوية » ــ قد تمكن عن طريق بعض أقربائه أن يحظى ببعثة للتخصص فى تدريس اللغة الفرنسية بفرنسا ، ولكنه تمكن بمساعدة أستاذنا أن يحول البعثة الى لندن للتخصص فى تعلم فن الرسم ، ليصبح مدرسا للرسم • بل انه يعمل اجراءات السفر من استخراج الجواز وحجز مكان على السفينة الفرنسية « ماريت باشا » التى ستبحر من مينــاء الاسكندرية الى باريس ولندن •

وفجأة تغير الموقف كلية بالنسبة لتفكيرى • وفى بضعة أســابيع تمكنت من تدبير مبلغ من بيع بعض أملاكى وأتممت جميع الاجراءات للالتحــاق بنفس المدرســة التى حجزت فيهــا ادارة البعثات مكانا لزميلى سعد الخادم •• وبالفعل وضعت نفسى تحت اشراف البعثات وحجزوا لى فى نفس المدرســة « مدرســة تشلسى للفنون الجميلة » بلندن • وسافرت على نفس الباخرة مع سعد ، بل اننا سكنا ســويا فى السكن القريب من المدرســة بناء على توصية المدرسة •• وبدأنــا الدراسة فى تشلسى •• وكانت الحياة فى لندن جديدة كل الجدة على حياتنا فى القاهرة : ركبت الباخرة « ماريت باشا » من الاسكندرية كان معى زميلى سعد الخادم ••• كانت السفينة فرنسية كما ذكرت والطعام فيها جيد للغاية •• ولم يمض علينا من يوم نعمنا فيه بهذا الطعام الجيد ، حتى زهدناه طوال يومين كاملين ونحن لا نخرج من

« القمرة » • فقد ارتفعت الأمواج وأصابنا دوار البحر وكان معنا اثنان من المصريين •• أحدهما زار انجلترا من قبل لدراسة الزراعة وهو عائد اليها الآن • وهو من النوع الذى يعرف كيف يستمتع بحياته الدنيا بجميع أشكالها ، والآخر ذاهب لدراسة الطب •• وهو جاد متحفظ لم يعرف من الدنيا غير مدرسته وبلدته الريفية فهو ريفى أصيل •• وكنا نحن الأربعة المصريين صحبة عجيبة •• لكل شخصيته المتميزة •• ولكنا أمضينا الرحلة فى صحبة ممتعة ومسلية •• فقد كانت وجهتنا جميعا مارسيليا ــ باريس •• لندن غير أن الزراعى كان سيرحل من لندن الى ريدنج فيما بعد •

وفى مارسيليا وجدنا محلات « الشربات » ، يقوم بالبيع آنسات جميلات • كان هذا جديدا علينا فى ذلك الوقت عام ١٩٣٦ •• غير أننا لاحظنا أن زميلنا الريفى دارس الطب يطيل النظر الى البائعات بطريقة لفتت أنظارنا ، بل انه « تسمر » تماما أمام المحل ، وأخذ يطلب المزيد ثم المزيد •• حتى انتزعناه بالقوة من أمام البائعة وهى تضحك مستمتعة •

لم يكن بيننا من يتكلم الفرنسية غير (سعد الخادم) •• فان ما حصلناه منها فى المدارس الثانوية لم يكن يتعدى تصريف الأفعال وتكوين بعض الجمل والقراءة بالعافية لبعض الكتب المدرسية ، ولم يكن لنا خبرة بالكلام والتعامل به كلية •

ركبنا القطار من مارسيليا الى باريس وكانت رحلة طويلة ولكنها ممتعة •• فكان كل ما نراه جديدا علينا : المناظر الطبيعية •• الناس •• الكلام •• والتعامل •• ونحن نرقب كل هذا فيما يشبه الصمت والتأمل •• وكان زميلنا سعد يتولى عنا الكلام والشرح اذا لزم الأمر •• واذا ما أحرجنا فكنا ننطق ببضع كلمات فى نطق غير سليم •• فكانوا يستعيدوننا هذه الكلمات القليلة لكى يفهموا ما قلناه ••

وكان يعترينى الحرج فأستنجد بسعد الخادم فى الأحوال الصعبة .

ومن باريس الى ديب Dieppe الى نيوهافن New Haven عبر المانش ومنها الى لندن .

نزلنا جميعا فى فندق صغير أذكر أنه كان فندق فيكتوريا .. وخرجنا فى المساء لنتفرج على لندن بقيادة زكى دارس الزراعة الذى كانت له خبرة سابقة بلندن .. وذهبنا الى حانة (Pub) وتناولنا بضع كئوس من الويسكى . وأعتقد أنى فى هذه الليلة قد فقدت توازنى لفترة محدودة ، لكثرة ما تناولت من خمر حتى أننى وجدتها متعة أن أصعد أو أحاول أن أصعد السلم الكهربائى فى عكس اتجاهه أى عندما يكون فى حالة نزول ، واستمرت المحاولة لبضع دقائق تمكنت فعلا من الصعود فى عكس الاتجاه ، وفى نهاية السلم لاحظت أن بعضا من الانجليز وقفوا لبرهة قصيرة يشاهدون المحاولة ثم انصرفوا .. خجلت من نفسى .. وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة لافراطى فى تناول الخمر مهما كانت المناسبة .

فى الصباح تناولنا افطارنا فى الفندق وذهبنا الى قلم البعثات المصرية حيث كنت قد وضعت نفسى تحت اشراف البعثات ولو أننى كنت أتعلم على نفقتى الخاصة وقابلنا المشرف على البعثات الذى وجهنا الى مدرسة تشلسى للفنون الجميلة أنا وزميلى سعد .. وفعلا ذهبنا الى المدرسة وأخبرنا أننا مقبولون فعلا بالمدرسة وأن زميلى سعد قد دفعت له البعثات المصاريف ، أما أنا فطلبوا منى المصاريف ولم تكن باهظة بالمرة فدفعت « للترم » الأول فى السنة .. وقد أرسلتنا ادارة المدرسة كطلبنا لأقرب بنسيون «Boarding House» وكان فعلا فى شارع قريب جدا «Oaklq St.»

وذهبنا لتونا اليه وقرعنا الباب فاستقبلتنا سيده تعدت الستين من عمرها ورحبت بنا وقالت ان ادارة المدرسة قد ابلغتها باننا قادمون

اليها • وكان ترحيبها بنا مشوبا بدهشة وأعتقد أن الدهشـة كانت لاننا أنـا وسعد كنا من ذوى الجلد الأبيض ، وكانت السيدة تنتظر اثنين من المصريين •• والمصريـون عموما من ذوى اللون المشـوب بالسمرة •• افريقيون •

نزلنا نحن الاثنين فى حجرة واحدة ذات سريرين وكنا نتشارك فى ثمن التدفئة فأنا أضع شلنا فى المدفـأة فتعمل لمدة معينة ثم يضـع زميلى للمرة الأخرى • كانت صاحبة المنزل «Miss Cock» عانسـا فقدت خطيبها فى حادث ولم تتزوج من بعده وكان فنانا تشكيليا ، وكان هـذا من أسـباب عنايتهـا بنا حيث أننـا كنا ندرس الفن التشـكيلى •

ذهبنا الى المدرسة •

وقابلنا مدير المدرسة «Mr. Wiliam Som» وعرضت عليه بعض أعمالى فى المدرسة الثانوية وكانت لا تتعدى بعض الدراسات بالقلم الرصاص فشجعنى وقال انك تملك « يدا قوية ماهرة » •

وأعطانى بعض النصـائح بخصوص الدراسـة وهى تتلخص فى تنوع الدروس •

١ ــ طبيعة حية •

٢ ــ اتنيـك •

٣ ــ رسم من الذاكرة •

٤ ــ منظـور •

٥ ــ عمـارة •

٦ ــ تشريح •

٧ ــ نحـت •

ووعيت ما قـال ثم سلمنى لأسـتاذ بعد أن أعطانى جـدولا بالدروس •

وصادف فى أول يوم لى فى المدرسة أن كان الدرس كما يسمونه رسم من « الانتيك » •

وكان هـذا عبارة عن الدراسـة بالقلم الرصـاص من تمثـال رومانى أو اغريقى فى أحسن الأحوال •

دخلت القاعة •• قاعة رحبة •• تدفئة بالكهرباء •• أرض باركيه موزع بها مقـاعد مثبت بها حوامل للوحات مما نسميه « حمـار » • والقاعة نظيفة للغاية والأرضية دائمـا تلمع •• هـذا وقد اشتريت كراسة ولوحة خشبية وأقلاما وكل ما يلزم من نفس المدرسة •• وبدأت العمل فى حماس زائد وكان الموديل عبـارة عن رأس حصان افريقى من الجبس •• وبدأت الرسم ما يقرب من الساعة وأنـا أحاول أن أنقل بدقة ما فى التمثال من تفاصيل على الورق وأحـاول المحاكاة الدقيقة بكل ما أوتيت من مهارة •

ثم جاء الأستاذ وكان شابا رقيقا باسم الوجه ، حيانى واستأذن فى الجلوس مكانى لتصليح الرسم وبدأ التصليح بالنظر الى التمثال مرة ثم رسم خطـا بل خطوطا كثيرة غير ما رسمت ، ومن هذه الخطوط الكثيرة والعديدة كان لابد أن يكون هناك خط واحد صحيح يمثل ويحاكى خط التمثال ••• وعلى كل حال لقد أعجبت بالأستاذ وبدأ بينى وبينه نوع من التقرب فكان يهتم بى كثيرا •• وقد التقيت به بعد بضع سنوات فى مصر وكان ضابطا فى الجيش الانجليزى فى الحرب الأخيرة «Robert Medly» وكان هـذا اسمه وكان فنانا انجليزيا لامعا فى ذلك الوقت • كانت طريقته هـذه مثار تفكيرى •• لمـاذا يحاول محاكاة الطبيعة بالعديد من الخطوط ؟ فهو يجرب دائما حتى يجد الخط الملائم لهذه المحاكاة •• لمـاذا لا يجرب بعقله وبفطنتـه

ويضع خطا واحد معبرا عما يريده . كان هـذا السؤال يتردد فى ذهنى من حين الى آخر ولم أجد الجواب الصحيح الا بعد فترة طويلة ، فلم تكن لى خبرةفى ذلك الوقت تكفى للاجابة على السؤال .. لم أكن أتعدى التاسـعة عشرة من عمرى وكنت مازلت فى بداية الدرس على هذا المستوى .

فى اليوم الثانى كانت هناك مفاجأة .. لى آنـا على الأقل .. كان الدرس درس تشريح .. الأستاذ رجل كهل اسـمه «G. Day» وقد وقف فى جانب الاستراد ووقفت بجانبه فوق الاستراد الذى يعلو قليلا عن أرض الحجرة فتاة لم تتعد الثامنة عشرة من عمرها ملتفـة بروب أزرق وبجانبها مدفـأة .

وبدأ الأستاذ يشرح الدرس وكان عن عضلات الذراع والكتف وكانت الكلمات تخرج من فمه مضغومة وقد « أكل » ثلاثة أرباعهـا ولم أفهم شيئا مما قال وفجأة أمر الفتاة بأن تخلع « الروب » وببساطة خلعت الفتاة الروب ووقفت عاريةتماما أمامنا .

كانت تجربتى الأولى فى رؤية فتاة عارية تماما وبهذا الجمـال الرائع وفى عز النهار أمام الجمع ، أمام خمسين عينا لشباب لم يتخط العشرين .

أقول الحق ان عينى تسمرتا تماما أمام هـذا الجسد البض الرائع .. لم يذهب فكرى مع كلمات الأستاذ عن عضـلات الذراع أو الكتف وتكويناتهما .. لقد ذهب فكرى وحسى كله مع عينى وهى تقوم « بمسح » هـذا الجسد كله .. الاسـتدارة الرائعـة للنهود المتحفزة ، والليونة الوديعة فى استدارة الأكتاف ، وتلك الأفخـاد أعمدة من المرمر الحساس جدا والتى تحمل أردافا مسـتديرة تكاد تهتز تحت النظر .. ولا أقول اللمس .. وتلك الأقـدام الرقيقـة البضة الناعمة وقد حملت ذلك الجسم القارع فى رقة ، ثم تلك الهالة

من الشعر الذهبى التى انسدلت على أكتافها •• انها كانت رائعة فى كل شىء •• هكذا رأيتها بعين الشاب ذى التسعة عشر ربيعا الذى فوجىء بهذا الجسد يقف عاريا فى لحظة لم يكن يتوقعها تماما •

انها كانت المرة الأولى •

ولقد تغيرت الرؤية تماما بعد ذلك لقد اعتدت على ذلك ولم يصبح جسم المرأة العارى يثير فى غرائز ما وأنا ارسم بل كان يثير فى كل ما هو علوى •

***

كانت دروس الطبيعة الحية من الموديل تستهوينى أكثر من غيرها •• لم أكن أشعر نحو محاكاة التماثيل القديمة أو حتى محاولة فهمها عن طريق رسمها بأى ميل ، وكنت أعتقد أنها لا تحتاج الا لمهارات ودقة فى الرؤية بالعين وقياس النسب ثم دقة فى النقل •

ربما كانت مفيدة لبعض الدارسين ولكن أنا شخصيا لم أشعر نحوها بأى ميل •

الموديل الحى الانسان الأنثى بالذات كانت تستهوينى دائما •• ولم يكن بالمدرسة حسب الجداول المعطاة لنا سوى يوم واحد ٤ ساعات مع الموديل الحى •• ولكن كانت هناك دروس مسائية حرة اشتركت بها على الفور وكانت الموديل تقف للرسم خمس دقائق فقط ، ثم تغير الوقفة أو الجلسة وكنت أرسم سريعا خطا واحدا بالقلم على كراس رسم ذى ورق رفيع شفاف •• كانت كروكيات سريعة ولكنى بلا وعى كبير بتعليمات الأستاذ «Medly» كنت أرسم الموديل بخط واحد محدد مصمم رائق صاف وكانت هذه الكروكيات السريعة تسعدنى وتشعرنى بأنى اكسب شيئا أكثر جدية من الدروس الرسمية الصباحية • لم يكن هناك أساتذة فى المساء ولكن كان هناك مساعدون اذا طلبت مساعدتهم جاؤوك •• وأنت فى حل من طلبهم •

***

كنت فى المدرسة السعيدية مشتركا فى فريق المدرسة المكون من أربعة للتجديف وكان يشرف على الفريق أستاذ اللغة الانجليزية وكان رجلا ممتازا « مستر بيفن » وكنا تتدرب فى نادى التجديف للجامعة المصرية الراسى على شاطىء النيل بالقرب من كوبرى الجلاء أو (كوبرى بديعة) كما كان يسمى فى ذلك الوقت سنة ١٩٣٥ وكان لنا مدرب ايطالى ممتاز يدعى « سرتنينو » وكان يتنبأ لى بمستقبل طيب فى رياضة التجديف وكان الفريق يتدرب بجدية طوال عامين وفعلا اتقنت هذه الرياضة الى حد لا بأس به .

وكان المدرب الايطالى يقول ان ضرباتى بالمجداف قوية ، ولكنها تبدو فى غاية السلاسة والسهولة .

وفى تشلسى عرفت أن لها فريقا للتجديف .

ان مدرسة تشلسى للفنون الجميلة كانت قسما من جامعة تضم الهندسة والطب وخلافه .. وكان الفريق يضم أعضاء من جميع الطلاب فى الفروع المختلفة والتحقت فورا بالفريق وبدأت المران وكان المران فى هامر سميث Hammer Semith على نهر التيمس يوم

الأحد من كل أسبوع وهو اليوم المتاح لى . وكان التدريب يتم فى قارب ثابت غير متحرك فى حوض مقفل .. وكنا نذهب فى الصباح الباكر وفى برد قاس ولا تمر علينا سوى بضع دقائق حتى يتصبب العرق ونخلع « السويتر » .

ونبدأ فى المران الجاد .. وكان مدرب الفريق ــ وهو أحد الطلبة القدامى ــ يراقبنى وأنا اتمرن وأضرب المجداف فى الماء بشدة فما أدرى الا والمجداف قد كسر قطعتين .. وكانت هذه الحادثة سببا فى اختيارى للتجديف للفريق الأول ولأدخل أول سباق وآخر سباق فى حياتى .. انى لاذكر بالخير رفيقا مصريا كان يدرس الطب معنا فى تشلسى وكان عصوا فى الفريق وهو الذى قدمنى للفريق .. كان اسمه فوزى على ما أذكر .

انى أذكر هذه الفترة الآن وأنا أشعر بحنين لهذه الرياضة .

لقد كان ذهابى مبكرا للتدريب كل يوم أحد مما جعل صاحبة المنزل تزيد من الاهتمام بتغذيتى قبل التدريب وبعد التدريب .. بل انها كانت تنتظرنى أنا وزميلى سعد عند العودة من الدروس المسائية لتعطينا الحلوى مع الشاى بحجة أن أعمالنا الفنية قد اعجبتها .

بل انها بدأت تميزنى قليلا عن زميلى .. فقد اعطتنى حجرة المرحوم الفنان خطيبها بما فيها من أدوات للرسم للعمل بها بلا أجر .

ومما زاد الطين بلة .. انها كانت تميزنى عن زميلى سعد فى الطعام وعندما كنت أعود من السينما مثلا فى ساعة متأخرة كانت تصنع لى فنجانا من الكاكاو باللبن مع قطعة من الكيك ... ولم يحظ زميلى سعد بالمعاملة بالمثل أبدا حتى لو طلبها هو بنفسه فكانت ترفضها وبلا اعذار .. لم أعرف السبب فى هذا التمييز ولم أسع الى معرفته .

كان يقيم فى حجرة بجوارنا اثنـان من الشـبان الانجليز كانت أسرهم تعيش فى الهند وكانوا يتكلمون الانجليزيـة بلكنة خفيفـة هنديـة .

وكانت تعمل فى البيت فتاة تعدت الثلاثين من عمرها ولم تكن جميلة كانت تعمل Chamber Maid خادمة .. وفى يوم من الأيام سمعنا أنـا وزميلى سعد صياحا من هـذه الخادمة وكنا فى غرفتنا .. وقد خرجت هذه الخادمة شبه عارية من غرفة الشابين الانجليزيين وكانت وراءها صاحبـة المنزل « مس كوك » وفى يدها (سـكين العيش) تهددها بها .. ولم تجد الخادمة أمامها سـوى غرفتنا فدفعت الباب بيدها ورجتنا باكيـة ان نحميها من صاحبـة المنزل .. فهى شريرة قاسية .. حسب قولها ، فقفلنـا الباب وبدأ زميلى سـعيد يكدس الكراسى وقطـع الأثاث خلف الباب خوفا من دخول صاحبـة المنزل بالرغم من اعتراضى على كل هـذا الحرص وقلت له انه يكفى أن تتصدى لها وستكف فورا عن ثورتها .. حيث أننى أعتقد أنها سـيدة طيبة ولكنها لا تحب « الهلس » ، ولكنه استمر فى تكديس الأثاث خلف الباب وانتهى الحادث بطرد الخادمة والانجليزيين من المنزل ..

كان هذا الحادث سببا آخر فى أن يفكر (سعد) فى ترك المنزل الى مكان آخر وفى ليلة زارنا فيها زميلنا الزراعى المصرى ومعه فتـاة شقراء ناعمة ولو أنها لم تكن جميلة ودعانا لمرافقته للتزحلق على الجليد فى صالة من صالات « الاسكاتنج » فى لندن وذكر أنها متعة جميلة .. فوافقت أنـا فورا لأننى كنت قد تعلمت الاسكاتنج على (قبقاب العجـل) فى مصر ، وكنت أذهب مرة فى الأسـبوع الى صـالة « الباتيناج » فى شارع سليمان باشا .

وفعلا ذهبنا مع (زكى) واستأجرنا قبقابا ذا سـلاح فى أسفله بدلا من العجل .. وقد امكننى السيطرة فعلا على اتزانى فوق الثلج

بل اننى « استأجرت » فتاة لتعلمنى التزحلق وذلك زيادة فى المتعة .

وفى نهاية السهرة دعانا (زكى) الى الذهاب الى حيث يسكن ، وقد اتضح ان الفتاة التى فى صحبته هى ابنة أصحاب المنزل .

وذهبنا الى حيث يسكن زميلنا الزراعى زكى
83 Worwick Road.. Earlé Caisrt

وفعلا كان سكنا طيبا وحجراته فسيحة وله مطلق الحرية فى اصطحاب أصدقائه وصديقاته الى حجرته بعكس منزل (مس كوك) فقد كانت لا تسمح باستقبال الأصدقاء والصديقات فى غرف النزلاء .. فهنالك « اللونج » (حجرة الجلوس) .

عند ذلك اختمرت فى ذهن سعد فكرة ترك منزل (مس كوك) والسكن مع (زكى) ومع الفتاة الشقراء التى كانت فى صحبة (زكى) لم يقل شيئا .. فى ذاك الوقت ، وصبر حتى اليوم التالى وفاتحنى فى الموضوع .. فاعترضت بان المكان الجديد يبعد عن المدرسة وسنضطر الى ركوب الأتوبيس الذى سيكلفنى بنسا فى الذهاب وآخر فى الأياب ، وذكرت له حججا أخرى منها أن « مس كوك » طيبة وتولينا عناية و ... و ...

ولكنه كان مصرا .. فان العناية كانت لى أنا وليست له وأنه لم يكن لنا حرية فى السهر وفى اصطحاب الأصدقاء والصديقات ... الخ ... الخ ...

وفاجأنى سعد بانه لم يعد يطيق الاستمرار فى المعيشة فى هذا المكان .. وأنه سيدبر الأمر للرحيل بطريقة ما بحيث ترضى عنها « مس كوك » .

وفى ليلة ذهبنا سويا الى النادى المصرى وكان فى ذاك الوقت فى

« بيكر ستريت » Baker St. وهناك وجدنا « الأستاذ حامد سعيد » .

والأستاذ حامد سعيد كان زميلا أصغر سنا من الأساتذة الغرابلى والعفيفى وقد تخرج من مدرسة المعلمين العليا واختار آن يكون مدرسا للرسم ... وقد منح بعثة لدراسة الرسم وهو مدرس بالمدارس الثانوية ... وكانت بعثة صيفية لمدة ٣ شهور ... تمكن بعدها من الحصول على بعثة أخرى مدتها ٣ سنوات وفى الفترة بين البعثتين عاد الى القاهرة ... وكنت قد عزمت على السفر فى هذه الآونة .

وهنا جاءنى الأستاذ يوسف العفيفى وقال لى ان صديقا له وهو مدرس رسم موهوب وجاد سيسافر الى لندن فى بحر الأسابيع القادمة حيث انه حصل على امتداد لبعثته الصيفية لمدة ٣ سنوات وأنه صديق وأخ وينبغى أن تتعرف عليه أنت وسعد فستلتقون به فى لندن وسيكون لكم سندا .

وفعلا ذهبت مع الأستاذ العفيفى الى بيت حامد سعيد ... فى سوق السلاح فوجدته رجلا ضئيل الجسم أسمر اللون ذا شعر غزير مجعد وشكله أقرب الى الهنود فى ذلك الوقت .

وقد رحب بنا وأرانا بعض أعماله وتمنى لنا التوفيق ... وقال اننا سنلتقى فى لندن ان شاء الله .

وهكذا التقينا مع حامد سعيد فى النادى المصرى بلندن وسألنا عن دراستنا بالمدرسة وأوصانا بزيارة المتاحف ... وتواعدنا على اللقاء مرة أخرى .

وذهبنا الى البيت ، وبدأنى سعد الحديث قائلا ان حامد سعيد

أكبر منا سنا وأكثر خبرة فقد كان مدرسا للرسم فى المدارس الثانوية قبل التحاقه بالبعثة .

فوافقت على كلامه ... ولكننى شعرت بأن هنـاك شيئا ما بعد هذا الكلام .. ولكن سعد لم يقل شـيئا فى هـذه الليلة وراح فى سبات عميق .. وفى الصباح فاجأنى قائلا ان الخطـة قد اكتملت فى رأسه فقلت له : خطة ؟ أية خطة ؟ انى لا أفهم شيئا يا سـعيد ... قال سنترك المنزل غدا ونسكن مع زميلنا الزراعى فى Earl's Court ولكن كيف سيمكننا اقناع (مس كوك) ... قال اسـمع يا راتب « ان حامد سعيد جاء الى لندن منذ بضعة أيام فقد كلفته الوزارة وقلم البعثات بالاشراف على دراستنا وأن السفير (حافظ عفيفى) فى ذلك الوقت هو الذى أمر بهذا وأننا سنترك المنزل هنا لنقيم مع المشرف (حامد سعيد) فى Earl's Court وأن السفير نفسـه هو الذى سيطلب (مس كوك) ويكلمها فى التليفون بهذا الأمر » وكنت أعرف ان خيال سعد واسع وحافل ولكنى لم أكن أتصور أنه يمكن أن يصل الى هذا الحد .. بل انه فعلا نفذ الخطة بحذافيرها بعد أن افهمنى دورى فى الخطة .

لقد تأخر هو خـارج المنزل عن موعـد الغـداء ودق جـرس التليفون .. فذهبت « مس كوك » وعادت تقول ان السفير المصرى حافظ عفيفى باشا يطلبنى أنـا فى التليفون .. وذهبت الى التليفون ووجدت سعد على الخط وقال .. قل لمس كوك ان السفير أمرنـا بالاقامة مع المشرف على دراستنا والانتقـال من باكر الى حيث يقيم ليكون قريبا منا وليباشر الاشراف عن قرب .

وانتهت المكالمـة مع سـعد .. وسألتنى مس كوك عما يريده السفير منك فقلت لها ما قاله لى سعد مدعيا انه السفير المصرى .

فبكت « مس كوك » حقيقة بكت •• وقالت أنها تأسف أشد الأسف لفراقنا وأنها تأمل أن ترانا من وقت الى آخر .

وفعلا انتقلنا فى اليوم التالى الى 83 Worwick Road بعد آن كان سعد قد حجز لنا فى المنزل .

***

فى مرة من المرات التى زرنا فيها النادى المصرى •• التقينا بحامد سعيد مرة أخرى وجرنا الحديث عن محل اقامته وأنه بعيد فعلا عن مكان دراسته •• حيث أنه كان قد اختار أستاذا فرنسيا له أكاديمية لتعليم الفن فى لندن ووافقت وزارة المعارف على هذه الدراسة •• وكانت الأكاديمية تقع بعيدا عن الحى الذى يسكنه حامد سعيد وعندما عرف حامد سعيد أننا نسكن فى وورويك رود Worwick Road. قال ان الأكاديمية التى يدرس بها تقع فى نفس الشارع ولا تبعد سوى بضع عشرات الأمتار من مقر سكننا وتساءل اذا كان من الممكن ايجاد حجرة له فى نفس المنزل •• ولم يمض أسبوع الا وقد جاء حامد سعيد واتخذ له غرفة فى نفس المنزل معنا .

كانت العلاقة بيننا وبين حامد سعيد لازالت علاقة ثلاثة من المصريين يدرسون الفن •• تتقابل عند الافطار وفى وجبات الطعام ولكن العلاقة بدأت تنمو •• فكنا نذهب الى غرفته فى بعض الليالى لنتحدث عما يشغلنا فى دراساتنا وكان هو يحدثنا فى حماس عن الأستاذ الفرنسى الذى يدرس معه فى أكاديمية Ozenfant والتى تقع فى نفس شارع Ozenfant Accademy of fineart سكننا •• كما أسلفت .

***

كان معى .. بضع عشرات من الجنيهــات .. ما تبقى من ثمن ما بعته فى مصر من أملاكى وانفقت منه على ملابسى وعلى ســفرى والتذاكر والشنط والاعداد للسفر عموما ... الخ .

كنت شابا مازالت غرائزه تحركه وتلك الجنيهات القليلة الزائدة على الحاجة فى ذلك الوقت .. أو هــذا ما خيل له .. كان هــذا عاملا على الذهاب شوطا بعيدا فى حياة اللهو .. وبدأت أمل الدراسة الروتينية فى « تشلسى » خصــوصا وقد حدثت مشادة عنيفة بينى وبين أستاذ العمارة .. اذ انه تلفظ بألفاظ جارحة بالنسبة للمصريين عامة .. وكان ردى عنيفا ليس باللفظ فقط ! .

وكانت شكوى من الأستاذ الى ادارة المدرسة .

واستدعانى مدير المدرسة وشرحت له الموقف فى بضع كلمات .. « اذا كنت قد اخطأت فى الدرس فليكن اللوم والتجريح لشخصى ولكن تجريح المصريين عامة ليس مقبولا بالمرة » .

واقتنع المدير بوجهــة نظرى وانتهت المســألة بالاعتــذار من الطرفين .

هذه الحادثة الصغيرة كان لها أثر بغير شك فيما بعد فى تغيير سير دراســتى .

***

كانت حياة اللهو تستهوينى .. وكانت لقاءات مع بعض الأصدقاء المصريين والصــديقات الانجليزيات فى أمسيات حمراء تماما .. وكانت تتكرر هــذه الأمسيات بصفة رتيبة ، وكان زميلى سعد الخادم يراقبنى عن كثب . ولاحظ عدم اهتمامى بالدراســة بل تضجرى منها بسبب أو بغير سبب ولاحظ أيضا أن صحتى بدأت تتدهور .. واننى لم أعد أمارس رياضــة التجديف التى أحببتها وكنت مواظبا عليها حتى اخفق

فريق تشلسى فى السباق الكبير فقل اهتمامى ولم أعد اهتم بهـذه الرياضـة .

***

فى مساء يوم يعرف زميلى سعد أنه يوم اللقاء مع « الشـلة » دخل على فى الغرفـة وأقفل الباب بالمفتـاح .. وكان متجهم الوجه وصرخ فى وجهى أننى لن أخرج من هـذا الباب أبدا ، ولو تطلب الأمر استعمال القوة معى فانه مستعد لضربى .

ونظرت الى سعد فى ذهول .. ماذا يريد منى وكيف يجرؤ على تهديدى ، كيف يمكنه أن يضربنى وقوتى البدنية تفوق قوته اضعافا .

ماذا تريد يا سعد ؟

قال وقد خفض صوته .. يا راتب .. لقد جئت بنقودك القليلة هذه لتتعلم وتعود الى أهلك وبلدك عضـوا نافعا .. ولكنك أنت الآن تنتحر بدنيا وثقافيـا بهذه الحياة التافهة التى تحياها وهـذه المتع واللذات التافهة .

أفق لنفسك يا راتب .

ذهلت .. جلست على السرير .. هـذا سعد الهادىء الصامت يقول كلاما بحماس وقوة وفى رنة مخلصـة .. هل هـذا هو سعد الذى عرفته منذ سنين طويلة وهو زميـل الدراسـة فى المدرسـة السعيدية .. انه يبدو اليوم فى شكل جديد لم أعرفه من قبل .

لقد كان لكلماته وقع شـديد على نفسى .. لقد أثرت فى بشكل مباشر ربما لأن فكرى الدفين .. كان يسير فى هـذا الاتجاه بغير ان يجرؤ على أن يطفو على السطح .. لقد قال سعد هـذه الكلمات وكنت أرى الدموع فى عينيه .. ثم فتح الباب وخرج وترك البـاب مفتوحا .. كان موقفا عجيبا ورائعا ، لم أكن اتوقعه من سـعد الذى

كنت أعتقد انه لا يأبه الا بذاته وراحاته سعد الصامت •• كان موقفه هذا وكلماته لى ذات أثر لم يدع تفكيرى حتى هــذه اللحظة وكنت كلما اختلفت مع ســعد فيما بعد •• أتذكر موقفه النبيل هــذا •• فأخطىء نفسى •

***

وفعــلا لم أبرح الغرفة بل اننى وقعت فريســة للمرض وظللت أسابيع طويلة يعالجنى واحد من الشلة •• طبيب لم يتخرج بعد •• وكان انسانا رائعا ، وفعلا شفيت بعد بضــع آسابيع من (تيومونيا حادة) وكانت هــذه الأسابيع التى امضيتها فى الفراش انساب فيها تفكيرى فى كل ما يخص حياتى ومستقبلى ودراستى •• وكان يزورنى حامد ســعيد ويتحدث الى عن الفن والمتــاحف و Ozenfent وطريقته فى التدريس •• حتى أننى أصبحت أفكر فى هذا الأوزنفانت وأتشوق الى رؤيته • وكلما زاد شــوقى الى أوزنفانت زاد مللى من مدرسة الفنون « تشلسى » • وفى هــذه الأثناء زارنا صــديق لحامد سعيد كان يدرس الزراعة فى « ادنبرة » فى اسكتلندة هو د•عبد الرزاق صدقى وأمضى معنا بعض الوقت وكان فى اجازة •

كان « فرويد » والتحليل النفسى فى ذلك الوقت حاضرا فى فكر المثقفين وغير المثقفين •• الكل يتكلم عن فرويد والسلوك النفسى •• وقد جذبنى هــذا كثيرا وبدأت أقرأ ما يصــل الى يدى من كتب فى علم النفس والتحليل النفسى « فرويد » على وجه الخصوص •

وقد شغلت بهذا عن الدرس فى « تشلسى » •

وفى مســاء يوم سألت حامد ســعيد عما اذا كان فى الامكان الالتحاق بأكاديمية أوزنفانت لدراســة الفن ، وقد تعلقت بطريقــة تدريس هذا الأستاذ الكبير مما كان يرويه لنا حامد سعيد •

وكان عبد الرزاق صدقى حاضرا .. فكان رد حامد سعيد أن أوزنفانت أكاديمية خاصـة يلتحق بها من يتخرج من كليات ومدارس الفنون العليـا بعد ان اكتسبوا خبرات طويلة وبعد دراسـة الفن سنوات كما ان أكاديمية أوزنفانت تمنح شهادات تقدير لها قيمتها بغير شك على المستوى الثقافى والفنى الرفيع .

ولكن حكومة مصر تطلب شهادة أكاديمية معترف بها لكى أجد الوظيفة والمستقبل المـأمون بعد العودة ــ وأن « تشلسى » تعطى مثل هـذه الشهادة التى تعترف بها حـكومة مصر والتى تؤمن لى مستقبلى الوظيفى فى مصر .

وأنت يا أستاذ حامد .. لقد وافقت حكومة مصر على دراستك مدة ثلاث سنوات مع Ozenfent وأن شهادته فى آخر المدة لن تكون مؤهلا أكاديميا لترقيتك وضمان مستقبل أفضل لك .

فكانت اجابته انه حائز على شـهادة مدرسة المعلمين العليـا فى العلوم وانه اختار ــ تدريس الرسم ــ حيث قد تمت دراسته على يد أساتذة الرسـم فى مدرسـة المعلمين العليـا تحت اشراف الأسـتاذ حبيب جورجى ــ وفعلا كان منهم الغرابلى والعفيفى وحامد سـعيد وغيرهم .. وأنه أى حامد سعيد .. قد أمن مستقبله الوظيفى بشهادة المعلمين ، وأنه لا يسعى الى ترقيات أو غيرها من المـاديات ــ ولكن يسعى لأن يكون فنانا ــ وأن خبرة أستاذ كبير مثل Ozenfent هى أحسن ما يمكن الاستفادة به فى هذا المكان والزمان .

وقد شعرت أن حامد سعيد على حق بالنسبة لنفسه وأنه صعب على مستقبلى وأن الفن وحـده لا يـكفى ــ بل يلزم « الشـهادة الأكاديمية » للحصول على وظيفة محترمة .

ولقد قلت له انى زهدت الدراسة فى تشلسى وان الدراسـة

الأكاديمية الروتينية التى تهدف لعمل « صناع » مهرة للرسم لم تعد تلائمنى على الاطـلاق وانى ربما أهجر تعلم الفن وانحو نحوا آخر ، وان الفن يظل هواية لى .

وهنا تدخل عبد الرزاق صدقى فى الحديث واقترح أن أذهب معه الى أدنبرة لدراسـة علم النفس ـ حيث علم بهوايتى له ـ حيث يمكننى الحصـول على درجـة B.S.C. فى علم النفس وأعود الى مصر ضامنا للوظيفة وللمستقبل .

مضت الأيام وأنـا أفكر فيما اقترحه عبد الرزاق صدقى ـ وقد صادف هوى فى نفسى الى حد كبير ـ وفى حبى للفن وهل يمكن لى الوصول الى مستوى رفيع كفنان هاو ؟

مرت الأيـام وأنـا أكاد أكون ممتنعا عن الذهـاب للدراسـة الصباحية فى تشلسى ولكنى كنت مواظبا على الدراسـات المسائية التى كنت أحبها .. فكانت حرة بلا أستاذ وبلا تعاليم روتينية ميتة .

وكانت تنتابنى حالة قلق مستمرة .. حيرة بين الذهاب الى أدنبرة لدراسة علم النفس أو العودة الى مصر والالتحاق بأية كلية فى الجامعة، واستمر القلق يساورنى مدة طويلة وأنـا على هـذه الحال من التردد والحيرة ـ الى أن استقر رأيى فى النهاية على الآتى :

اما أن أتمكن من الالتحاق بأكاديمية أوزنفانت أو أعود الى مصر بغير أن أحقق هـدفى فى أن أكون فنانا له قيمتـه لقد تركت مصر وتركت فرصة الالتحاق بالمدرسـة الحربيـة التى كنت مؤهـلا لها جسمانيا وشكلا وهيئة ، وأيضا « وساطة كبيرة » فى ذلك الوقت .. تركت الفرصـة المضمونـة .. الى طريق آخر وفرص أخرى غـير مضمونة .. اننى كنت أعرف مقدما وقبل أن أسافر ان الفن لا يبنى مستقبلا مستقرا وفى الظروف المواتية سأكون مدرسا للرسم خاضعا لكل قوانين وظروف الموظفين .

وهل طبيعتى ونشأتى كانت تنشد الاستقرار ــ أم أن المغامرات كانت تستهوينى •• ؟ ــ وهل أنـا مثلا أرغب فى دراسة علم النفس وأتخصص لأكون أستاذا له فعلا •• ؟ أم أن علم النفس والتحليل النفسى كان يستهوينى كجزء من الثقافة ؟؟ •

ان سفرى الى لندن كان مغامرة لاشك فيها ــ ان النقود التى كنت سأعيش بها طوال اقامتى فى لندن على مدى ٣ سـنوات على الأقل ــ كانت من الضآلة بحيث كنت لا أجد فيها أى متسع لشراء أى شيء غير المسكن والمـأكل •• ان الكتب التى كنت اشتريها لم يكن يتعدى ثمن الكتاب ستة بنسات أو شلنا على أكثر تقدير ــ فكنت انتقيها من محـلات بيع الكتب المستعملة أما الجديد منها فكانت من الطبعات الرخيصـة مثل « بنجوين » ، « بيليكان » وغيرها •

انى شعرت فى هـذه اللحظة أننى كنت مغامرا فعلا عندما حضرت الى لندن ولم يكن يأتينى من مصر سـوى عشرة جنيهات شهريا فى أحسن الظروف ، وكانت تتناقص فى بعض الأشهر الى النصف •• وكنت أدخن ــ ١٠ سجاير فى كل يوم (٦ بنسات) ــ كيف أحصل عليها حينما لا يصلنى سـوى نصف المرتب ؟ •• كنت الجـأ الى غسل بعض ملابسى الخفيفة مثل المناديل والجوارب : المنديل = ١ بنس والجورب يساوى ٢ بنس ، ومقدار ما أوفره عن هـذا الطريق •• يكون نصيبى من السجاير فى هـذا اليوم •• وهكذا •• نعم انهـا كانت مغامرة ــ ولم أكن أبغى ضمانا للمستقبل عندما حضرت الى لندن لدراسة الفن ــ والفن بالذات • لم أكن آمل فى الاسـتقرار المـادى عن طريق الوظيفة عندما أتم دراستى فى الفن ــ والتى لن تتم أبدا ــ كما عرفت فيما بعد أن الوظيفة لم تكن طريقا للاستقرار المـادى ــ كما أن طلب الاستقرار المـادى عن طريق دراسـة الفن لم يدر فى خلدى لحظة واحدة •

كنت شابا مليئا بالحماس ــ عندى من الشجاعة ما يكفى لأن

أسير الى آخر الشوط الذى اخترته لنفسى مهما تكن العقبات ومهما كان النجاح والاستقرار المادى ليس بغاية لهذا الطريق الذى اخترته عندما سافرت بعيدا عن وطنى لدراسة الفن .. كل هذه الخواطر مرت فى مخيلتى وملأت على فكرى طوال أيام وليال بأكملها وأخيرا وصلت الى قرار .

سأعرض نفسى ورسومى على Ozenfent — فاذا قبلنى طالبا فى الأكاديمية سرت فى الشوط الى نهايته — واذا لم أقبل فسأرحل فورا — الى مصر لأجد طريقا آخر أكثر نعومة وأكثر فائدة واستقرارا

فى لندن أكاد أعيش على الكفاف عندما يتناقص مرتبى الذى يأتينى من مصر . وانى على استعداد للعيش على الكفاف وأن أكمل الشوط اذا كانت هناك مثالية ترفعنى معها الى المستوى الذى لا أشعر فيه بأى حرمان — بل انى لأجد فى الحرمان سعادة لأنى أحاول تحقيق هدف ومثالية رفيعة .

أما أن استمر فى الدراسة الأكاديمية المملة فى مدرسة تشلسى والتى لا تكسب الطالب الا مهارة فى الصنعة بالرغم من وجود أساتذة فنانين كبار فى هذه المدرسة — فان هذه المهارة فى الصنعة وحتى الشهادات القيمة التى تمنحها المدرسة بعد ثلاث سنوات لم تعد تشجع طموحى ومثاليتى .

زياراتى للمتاحف ومعايشتى للأعمال الرفيعة فى التصوير والنحت — كانت أسعد لحظات تمر بى فى لندن .. كانت لحظات استقبال للقيم ، وكنت ظمآنا لمثل هذه القيم التى لم أعشها من قبل .. ان حياتى تتغير تماما كأنى قد ولدت من جديد — قرآتى .. الأعمال الفنية الخالدة فى المتاحف .. الموسيقى الكلاسيكية الرائعة .. موزارت .. باخ .. بيتهوفن — التى لم أكن أعرف عنها شيئا فى مصر . كل هذا كان يدفعنى الى

طريق المغـامرة ــ انهـا لحظـات رائعـة فى حيـاتى تلك التى كنت أصادق فيها عمـلا فنيا رائعا ــ فكانت تلك الصـداقة ترفعنى الى أحاسيس رفيعة ومعان كانت جديدة على تماما .

داومت على حضور الدراسات المسائية وملأت كراسات بخطوط عن الموديل النسائى العارى ــ الذى كان يجذبنى اليه دائما .

وفى يوم من الأيام..لبست أحسن ملابسى : المعطف الجديد الذى دفعت فى ثمنه جنيهين أثنين وشلنين بالتمام وتأنقت فى وضع الكوفية حول رقبتى وحملت معى كراساتى التى خططت فيها تلك الرسـوم السريعة التى رسمتها فى الدروس المسائيـة وذهبت الى أكاديميـة أوزنفانت ــ فى نفس الشارع الذى كنا نسكن فيه وعلى بعد بضـع مئات من الأمتار .. وفى مبنى قديم مطلى بطلاء أبيض من الخارج ــ يعلو الأرض منه بضع غرف على الواجهة ذات نوافذ صغيرة ــ وقفت أتحقق من أن هذا المبنى هو المقصود ــ باب خشبى ذو لون رمادى رسمت فوقه فى عنايـة ثلاثة مستطيلات صـغيرة متجـاورة طلى أحدها باللون الأزرق والثانية بالأبيض والثالثة بالأحمر .. علم فرنسا وابتسمت عندما أدركت الدلالة .. ان Ozenfant فرنسى ...
ورفعت عينى أعلى البـاب فوجـدت يافطـة كبيرة كتب عليهـا :
Ozenfant Accadimy of Fine Arts
ووقفت برهة أقرأ اليافطة وأنـا أعطى لنفسى لحظات أتغلب فيهـا على تردد بسيط اعترانى ... ودفعت الباب ودخلت الى قاعة كبيرة بهـا منضدة عليها « صندوق آلى لبيع السجائر ــ توضـع العملة ثم تتسلم العلبة أوتوماتيكيا »...لفت نظرى هذا الصندوق الذى أرى مثله كل يوم فى المنزل الذى أقطنـه واشترى منه سـجائرى على الدوام ثم استدرت يمينا لأرى صورا فوتوغرافية ذات قيمـة ممتازة من ناحية التصـوير الفوتوغرافى وكانت لبعض أعمـال النحت المصرى القديم الموجودة فى متحف اللوفر فى باريس .. وهى عبـارة عن صفحـات

أخذت من « الموسوعة الفوتوجرافية للفن » التى يطبعها متحف اللوفر
لبعض مقتنياته **الممتازة** Encyclopidie Photographie de l'art
وهذه الصفحات فصلت بعناية وزينت بها جدران القاعة ــ وقد أخذت
بواحدة منها كانت لرأس « الكاتب القاعد القرفصاء » ــ التمثـال
المصرى القديم ــ وهو من بين أعظم ما انتجه الفنان المصرى القديم
على الاطلاق .

لقد تسمرت فعلا أمام صورة هـذا الرأس مكبرة تملأ الصفحة
ذات الحجم الكبير نسبيا ــ .. هذا هو فن مصر العظيم الذى لا نعرف
عنه شيئا ــ ولم يقل لنا أساتذتنا عنه شيئا .. ان أنظار أساتذتنا كانت
تتجه الى الاغريق وأوروبا ــ وكانت أنظارنا تتجه بالتبعية الى نفس
الاتجـاه .

ان القاعة كلها تمتلىء بفوتوغرافيات ممتازة عن الفن المصرى
ويشاركها أخرى عن الفن السوميرى ــ الذى لم نعرف عنه شـيئا
هو الآخر .. كنت اتنقل وحدى وعلى أطراف أصابعى وحيدا فى هذه
القاعة أشاهد هـذه الفوتوغرافيات ــ اذ انى لم أسـمع أية حركة
أو صوت يشعرنى بأن المكان مأهول .. وظللت هكذا ما يقرب من
النصف ساعة وأنـا مستغرق فى مشاهدة الصور ــ وفى نفس الوقت
أذنى مشدودة الى ما وراء الستار الكبير الذى كان يفصل هـذه
القاعة عن القاعة التى تليها .. عسى أن أسمع صـوتا أو حركة ..
وفجأة سمعت صـوت امرأة تقول Rest Pleas وكنت أعرف أن
هذا يقال « للنموذج » الموديل ليأخذ فترة راحة ــ ثم فتح الستار
وخرجت منه امرأة تعدت الأربعين من عمرها ذات شعر أشقر ورأتنى
أقف أمام الفوتوغرافيات ــ وقدمت نحوى فورا تسألنى عن حاجتى ..
فعرفتها بنفسى بأننى مصرى ولى صديق يدعى حامد سعيد يدرس فى
الأكاديمية واننى أرغب فى الالتحاق بالدراسـة مع الأستاذ أوزنفانت ،

وكانت قد عرفتنى بنفسها وان اسمها « شــارى » وهى ســكرتيرة الأكاديمية .. ثم نادت على حامد سعيد من الداخل فجــاء وقابلنى .. قائلا : خيرا يا راتب .

قلت لحامد سعيد هامسا :

انى جئت ببعض أعمالى لعرضها على الأستاذ أوزنفانت لأعرف رأيه فيها وعما اذا كان مستواها يؤهلنى لقبولى دارسا فى أكاديميته .

كان كلامى لحامد سعيد بالعربية طبعا ــ وقد نقله بالانجليزيــة فورا الى السكرتيرة (شارى دينس) والتى رحبت بى ودعتنى للانتظار داخــل قاعة الدرس حتى تتحدث مع الأســتاذ فى شأنى . وأزاحت الستار الفاصل بين القاعة الخارجية والقاعة الثانية .. فوجدت قاعة فسيحة يقع فى جانب منهــا « استراد » يجلس فوقــه الموديل وكان رجلا .. وبجانبه موقد كبير ذو مدخنة صاعدة الى أعلى ــ موقد بالفحم المتوهج يشع دفئا طيبا .. وللعجب وجدت فى هــذه القاعة ما ينيف عن الخمسة عشر دارسا بين رجل وامرأة ــ البعض جالس على مقاعد صغيرة Stools بجانب حامل صغير فوقه لوحته التى يعمل بها ، والبعض الآخر يقف بالقرب من الموقد يدفىء أطرافه .

هذا العدد الكبير من الدارسين فى هــذه القاعة ولم أسمع لهم أى صوت أو أية حركة طوال وجودى فى القاعة الخارجية ، ولم يكن يفصل بينى وبينهم ســوى ستار من قماش .. لقد كدت أعتقد أن القاعة خالية من الدارسين وأنــا اشــاهد اللوحات الفوتوغرافيــة المعلقة فى القاعة الخارجية ــ كان الكل يعمل فى صمت وجدية .

ثم ما فتىء الموديل ان أخذ وضعه الســابق المحــدد له فوق « الاستراد » وبدأ الطلبــة الدارســون يأخــذون مواقفهم أمــام أعمالهم .. البعض يرسم واقفا والبعض يرسم جالسا ــ كل قد اختار زاوية ومكانا يلائمه .

جلست على مقعد فى ركن بعيد وبدأت أتأمل ما حولى .. القاعة لا بأس بها فهى منسجمة نوعا ما ــ سقفها « جمالون » من زجاج معلق به ستائر من قماش أبيض خفيف للتحكم فى الضوء .. الأرضية أسمنت رمادى .. الحوائط خشنة مطلية بالجير الأبيض .. تذكرت قاعات « تشلسى » الباركيه الفاخر اللامع ، والمدافىء المنتشرة فى المكان كله ــ « تدفئة مركزية » ــ والمقاعد والحوامل الأنيقة .. والطلبة يتكلمون مع زملائهم وضحكات هنا وهناك والأستاذ يجلس مكان الطالب يصحح له الرسوم ، والحركة والكلام والصخب يزداد ويقل حسب المزاج والحالة النفسية للطلبة .

وهنا فى هذه القاعة الخشنة البسيطة بموقدها القديم الذى يزاد له الفحم كلما خبت حرارته .. لم أسمع ضحكة واحدة ، ولم أسمع كلاما أو صخبا .. واذا ما أراد دارس شيئا ما من زميله تكلم هامسا ــ ولكن لماذا هذا الصمت ــ هل هو نظام مفروض على الدارسين .. ؟ ومن الذى فرضه عليهم ــ هل هو الأستاذ أوزنفانت .. أم هى الجدية والاستغراق فى العمل .. جالت بفكرى هذه الخواطر وأنا انتظر حضور الأستاذ .

وسمعت السكرتيرة تقول Rest Pleas استرح من فضلك ــ وكانت الساعة ١٢ ظهرا تقريبا ــ وكان هناك ستار آخر فى نهاية قاعة الدرس مغلق تماما ولم أكن أعرف ما وراءه .. هل هى قاعة أخرى أم مخزن أم ... ؟

وفجأة وجدت الستار ينشق ويخرج منه رجل فى الخمسين من عمره رشيق القوام يمشى فى خطى خفيفة وينتعل حذاء « كاوتش » لا يسمع له صوت اذا ما تحرك صاحبه وفوق « بنطلون » رمادى من الصوف يرتدى هذا الرجل جاكتة بيضاء لها أكمام محكمة تماما

على معصميه « بأستك » مشدود عليها •• وعلى عينيه نظارة طبية ــ رفعها بيده معلقا اياها على جبينه لينظر بعيدا •

وكنت أراقب هذا الرجل من لحظة شقه للستار وخروجه منه ، ولم يدر فى خلدى أبدا أن هــذا الرجل هو الأستاذ أوزنفانت •• فلقد كنت أعتقد انه فى الخــارج وانه سيأتى من الباب ــ من حيث أتيت أنــا وليس من وراء هذا الستار المغلق •

ذهبت اليه السكرتيرة تحدثه بالفرنسية التى لم أسمع منها سوى كلمــة Egyptian ففهمت أنها ربما تكون تتحدث عنى •

وفعلا فقد صدق حدسى ــ وقد نظر الى الأستاذ من بعيد ــ ثم دعتنى السكرتيرة الى الاقتراب من الأستاذ وهى تحدثنى بالانجليزية حيث ان فرنسيتى فى ذلك الحين كانت تساوى صفرا تقريبا •

قدمتنى الى الأستاذ ــ وكررت اسمى عدة مرات حتى يعلق جيدا فى سمعه وبدأ الأستاذ يوجه الى أسئلة عن دراساتى فى الفن وفى أى المدارس أدرس ومن هم أساتذتى ولكن فى اقتضاب شديد ، وكان يوجه الأســئلة بالفرنسية وكانت الســـكرتيرة تترجم بالانجليزية ــ وبفراستى فهمت من الاقتضاب الشديد فى كلام الأستاذ أن السكرتيرة تطوعت بالمزيد من الأسئلة لم يسألها الأستاذ •• بل لمعلوماتها هى •• « شارى دينسى » السكرتيرة ــ فنانة تدرس مع أوزنفانت منذ فترة طويلة وكانت فى باريس قبل حضوره الى لندن وهى مجرية الجنسية وتتكلم عدة لغات وتقوم بالترجمــة من الفرنسية للطلبة الدارســين الذين لا يعرفون الفرنسية •

وعند ذلك طلب الأستاذ أن يرى أمثلة من رســومى فأعطيتــه كراستين سطرت فيهما رسوما ودراسات للعارى فى الدروس المسائية فى « تشلسى » وكانت عبــارة عن خطوط دقيقة حاســمة معبرة عن

جسم المرأة العارى فى أوضاع جالسة ومستلقية وواقفة وكانت الخطوط قد رسمت بعناية ـ عن حب ومزاج رائق ـ فقد كنت أحب هذا النوع من العمل .. الاقتصاد الكبير فى الخطوط كان يخدم ما احسسته نحو جسم المرأة ، فكانت الخطوط تنساب فى بساطة تامة فى كل الاتجاهات ، وكانت تقول شيئا دائما خلال تلك الفترة القصيرة التى عشتها مع الدرس المسائى ومع موديل معين أعجبت به وأحببته فعلا ، فكان ملهما لهذه الخطوط المعبرة .. كانت بنتا رائعة .. اذا وقفت كانت لوقفتها رشاقة فى شمم ، واذا استلقت أخذت وضعا متجاوبا تماما مع ذلك الحس الرشيق الهادىء فى كبرياء ـ الواقع ان هذه الرسوم القليلة التى كنت أرسمها فى الدروس المسائية عن هذه الموديل كانت دائما ناجحة .

بدأ الأستاذ أوزنفانت يقلب الرسوم ببطء واحدة تلو الأخرى .. وأنا اكاد أمسك بأنفاسى .. وتلك الرسوم التى كنت أعجب بها أراها والأستاذ يقلبها سيئة للغاية .. وكيف رسمتها بهذا القبح .. ان الأستاذ سيرفضنى .. فأنا مبتدىء وأمامى شوط طويل .

هذه الخواطر كانت تمر بى فى تلك اللحظات القصيرة التى يقلب فيها الأستاذ تلك الرسوم التى لاتكاد ترى من رقتها على الورق الشفاف .. وبدأ يتكلم « بالفرنسية طبعا » ولم أتبين لأول وهلة غير كلمات عن Composition واشارات استحسان .. لمستها من حركة يديه وشفتيه .. ومن ثم (وبغير أن أفهم الكثير) تحرك الأستاذ بنفسه وأخذ حاملا خشبيا فى يد وأمسك فى اليد الأخرى كرسيا Stool ووضع الحامل وبجانبه الكرسى وقال ما معناه انه يمكننى أن أبدأ العمل فورا .. وقالت لى السكرتيرة .. عندئذ .. بأن الأستاذ وجد فى رسومك بالقلم الرصاص بداية طيبة تنبىء عن موهبة وأنك مقبول منذ اليوم .. فشكرتها وخرجت الى القاعة الأولى وأشعلت سيجارة كنت أنفث دخانها براحة كبيرة .

لقد تحدد مستقبلى .. اذن .. انه الفن . علم النفس والتحليل النفسى جزء من ثقافة .. العودة الى مصر لم تعد فى الحسبان .. كل تفكيرى انصب على الجوانب العملية ــ أولا كيف أدبر مصاريف الأكاديمية ؟؟ ــ انها مصاريف باهظة بالنسبة لى شخصيا ــ خمسة عشر جنيها وخمسة عشر شلنا كل ثلاثة أشهر والسنة الدراسية تسعة أشهر ــ انه مبلغ كبير بالنسبة لمدرسة تشلسى فهى لا تتعدى بضعة عشر جنيها فى السنة .

كنت أحرص على مصاريف مدرسة تشلسى لمدة الدراسة اذ أن ما يأتينى من مصر يكفى للسكن والغذاء ليس الا .

ولكن مصاريف الدراسة فى تشلسى لمدة ثلاث سنوات كاملة ــ هى المدة المخصصة للحصول على الشهادتين الخاصتين بهذه المدرسة ــ لا تكفى لعام دراسى واحد عند Ozenfant .

على كل حال ان عندى الآن ما يكفى لدفع مصاريف « الترم » الأول والثانى الباقيين فى السنة الدراسية .

وفى اليوم التالى ذهبت الى الأكاديمية وقيدت بها ودفعت المصاريف وأصبحت أحد الدارسين فيها .

فى المساء وبعد العشاء اصطحبنى حامد سعيد الى غرفته وبدأ يحدثنى بأن الخطوة الجريئة التى خطوتها يمكن أن تكون خطوة حاسمة فى حياتى .. انها سترسم طريقى بوضوح لا لبس فيه .. لقد اخترت أن أكون فنانا وليس غير ذلك ــ انه طريق صعب ليس فيه الا المعاناة ، وان الدراسة فى أكاديمية أوزنفانت لا تؤهلنى لأى شىء آخر ينفعنى فى وظيفة حكومية الا أن أكون فنانا أو على الأقل أركب الطريق الصحيح لأكون فنانا اذا سرت الشوط كله الى النهاية .. وبدأ حامد سعيد يشرح لى المصاعب التى ستقابلنى فى حياتى ومستقبلى

المبادى .. وأن .. وأن ... الخ ولكن كلامه هـذا كان يزيد فى حماسى للسير فى الشوط حتى آخره .

قلت له اننى لم أكن أجهل كل هـذه الاعتبارات التى ذكرها لى واننى عولت على أن أتقدم من « المنزل » لنيل شهادتين معروفتين تؤهلان صاحبهما للتدريس ــ تدريس الرسـم فى مدارس التعليم العام ــ واننى سأواظب على حضـور الدروس المسائية فى تشلسى كما انى اشتركت فعلا فى « كورس » عن التشريح و « كورس » عن تاريخ الفن فى مدرسة Slade School of Art London University واننى سأجمع بين أوزنفانت وهـذه الدراسات واننى سأعمل جـادا لبناء نفسى من جديد فنا وثقافة .. واننى .. واننى .. وقد أخذتنى الحماسة .. وابتسم حامد سعيد وقال انه مبسوط لحماستى واصرارى وانه يعتقد فعلا باننى سأصل الى شىء جاد فى نهاية الشوط .

وفى صباح اليوم التالى أفطرنا سويا فى قاعة طعام النزل وذهبنا سويا سيرا على الأقدام الى أكاديمية أوزنفانت للفنون الرفيعـة .. دخلنا من الباب قبل التاسـعة صباحا وهو ميعاد بدء الدراسـة فى الأكاديمية .

وجدنا السكرتيرة شارى تملأ الموقد بالفحم ثم تشعله .. فحييناها وكانت وحدها لم يحضر « الموديل » بعد كما ان ايا من الطلبـة لم يحضر بعد .. وقـد كانت ــ وظلت هـذه عادتنا فى الذهـاب الى الأكاديمية ــ مبكرين دائما .

وبدأت أعد حامل الرسـم والمقعد وأشد الورق على اللوحـة الخشـبية وتثبيته بدبابيس الرسم .. لقد كان هو أول يـوم لى فى أكاديمية أوزنفانت ــ وكان الجو باردا واقتربت من المدفأة لأدفىء يدى .. وكانت المدفأة فى الجانب الأيمن من القاعة وتتوسـطها بين الستارتين اللتين يفصـلان القاعات الثلاث ، ولمـا اقتربت من المدفأة

شعرت بحركة خفيفة خلف الستار الداخلى .. ثم انشق الستار وظهر الأستاذ .. أوزنفانت .. وحيانا ثم اختفى وراء الستار .. فعجبت لذلك .. ان الأستاذ يأتى مبكرا قبل كل تلاميذه ليعمل من الصباح حتى الظهر .. وغالبا ما يبقى لنا بعد الظهر يعمل ويعمل فى لوحته الضخمة التى تتجاوز الخمسة عشر مترا مسطحا والتى بدأها منذ نيف وعام بعد تحضيرات عديدة سواء رسوما خطية أو تحضيرات جادة بالألوان ـ انها « الحياة » اسم اللوحة .

كان أوزنفانت فنانا وكاتبا .. ناقدا وفيلسوفا جادا ـ أرسى قواعد « البيوريزم » Purism مع زميله الفنان والمهندس المعمارى العالمى « جانويه » Jeanneuet والذى أطلق عليه أوزنفان نفسه الاسم الذى اشتهر به عالميا فيما بعد وهو « لوكوبيزيه » Lecorbeusier .

لقد أرسى أوزنفان قواعد المدرسة الفنية التشكيلية المذكورة بآرائه وممارسته الفعلية للمبادىء والأسس التى وضعها ونادى بها فى كتاباته العديدة طوال حياته فمن ما بعد « التكوينية التكعيبية » Upred Cubism ، والفكر الجديد Esprit Nauveau الى مانيفستو البيوريزم مع زميله « جانويه » ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ... ثم الى « الوثبة » L'Elan وهى مجلة فنية أصدرها بالتعاون مع نخبة ممتازة من الفنانين المعاصرين : ماتيس ، دبران ، بيكاسو ، أبولينير ، ميتسنجر ، وآخرين .

وفى كتابه « الفن » Art او Fowndation of Modern Art ١٩٣٨ ـ رحلة خلال الحياة Journey through life ١٩٣٩ والذى صدر بعد انتهائه من لوحته « الحياة » life أو Biological Life ثم مذكراته التى لم تنشر الا بعد وفاته فى عام ١٩٦٨ .

وفى ١٩٣٢ حصل على وسام :
Chevalier de La Légion d'Houneuer

وفى ١٩٤٩ حصل على وسام :
Officier de la légion d'Honneur

وفى ١٩٢٢ حصل على وسام ميدالية :
Officér de l'ordre des arts et des lettres
Médaille d'Honneur de l'Universite de Lund « Suéde»

وفى ١٩٣٦ — ١٩٣٧ كان أســتاذا — لكرسى «Chairs» عن تاريخ الفنون وعلم الجمال فى المعهد الفرنسى والليسيه الفرنسى بلنــدن •

وفى ١٩٣٨ — ١٩٣٩ — أستاذ كرسى الفنون وعلم الجمال فى جامعة واشنطون بأمريكا • وقد أسس « مدرســة أوزنفانت للفنون الرفيعة فى نيويورك وذلك من سنة ١٩٣٩ الى ١٩٥٥ » •

وفى عــام ١٩٥٥ عاد الى فرنسا وأسس «l'Ateleir Osenfant» فى كان بجنوب فرنسا •

هكذا كان أوزنفانت منذ بدأ حياته وهو يمارس الخلق الفنى رائدا من رواد الفن الحديث — بل كانوا يطلقون عليــه أنه الرأس لطابور رواد الفن الحديث — وبشر بآرائه ونظرياته كتابة وتدريسا ، وعمليا عن طريق لوحاته — فمن أكاديميته فى باريس سنة ١٩٣٢ ، وفى لندن من ١٩٣٥ — ١٩٣٨ حتى أوائل ١٩٣٩ — ثم مدرسته بنيويورك حتى ١٩٥٥ ، ثم مرسمه ومدرسته فى كان بعد ذلك — كان فنانا رائدا وأستاذا على أعلى مستوى من الثقافة والفهم للفن والحياة •

ذكاء لمــاح وفكر ثاقب واخلاص متناه لفنه وعلمه وتلاميذه •

كان النظام فى أكاديمية أوزنفانت يختلف عنه فى مدارس الفن فى « تشلسى » • الموديل سواء أكان رجلا أم امرأة يأخذ وضعا واحدا

طوال شهر بأكمله . فى مدارس الفن وفى تشلسى على وجه الخصوص كان الموديل يأخذ وضعا واحدا لمدة أربع ساعات فى الدروس الصباحية .. أما فى الدروس المسائية فكان يأخذ أوضاعا سريعة مدة كل منها خمس دقائق فقط .

شهر كامل لوضع واحد للموديل .. هذا وحده كان كافيا ليغير فكرى وسلوكى نحو فن الرسم .. هل يعقل أننى أجلس فى مقعدى أو أقف على قدمى أمام اللوحة لارسم وضعا واحدا للموديل طوال شهر كامل ؟ .. كان هذا أول تساؤل يمر بخاطرى قبل أن أجر خطا واحدا على اللوحة .

بدأت أفكر جديا فى هذه المسألة .. بل انها شغلتنى تماما حينما شرحتها لى السكرتيرة .. وبدأ الطلبة يحضرون ثم جاء الموديل وكان رجلا ثم بدأت السكرتيرة فى ارشاد الموديل بعد خلع ملابسه للوضع الذى اختارته له .. وكان وضعا صعبا .. بل مؤلما للموديل — فى نظرى على الأقل — ولكن الموديل المحترف أخذ الوضع فى سهولة ويسر .

بدأت أنا اتحرك هنا وهناك اشاهد وضع الموديل من زوايا مختلفة حتى أختار منها ما يناسبنى .. ثم حملت كرسيا وحاملا ووضعته فى المكان الذى اخترته وكان مكانا بعيدا عن بقية أماكن الطلبة .. حتى أنه كان من الصعب على أحد أن يأتى من خلفى لكى يشاهد ما أرسم فلقد كان الحائط ملاصقا لى تماما .. كنت خجولا .. وأخشى نظرة تهكم لما أرسم من كائن من كان .. لقد كان الجو مشدودا بالنسبة لليوم الأول ولتجربتى الأولى فى هذا المكان .

بدأت العمل فى تأن .. لم أخط خطا واحدا ، ولكنى كنت أتأمل الموديل وأتحسس كل خطوطه وأختار منها ما يناسبنى للبدء به .

ومرت ساعة ولم أخط شيئا على الورقة ، وصحوت من تأملى على صوت السكرتيرة «Rest Please» استرح من فضلك ..
والكلام موجه للموديل ــ فجلس الموديل وهو يحرك أطرافه ويدفئها بالقرب من الموقد .. وكنت لازلت أرقب حركته وخطوطه .. ثم أشعلت سيجارة وبدأت أدخنها .. هدوء عجيب فى المكان الطلبة يعملون فى جد ، والأستاذ يعمل فى داخل قاعته .. ولا أسمع صوتا شاذا يعلو ، والكل يتحرك فى هدوء تام .

كنت أقارن بين هذا الهدوء والقاعة ممتلئة بأكثر من ١٥ طالبا ــ وبين قاعة مدرسة تشلسى .. والصخب الذى كان يشوش على تفكيرى خصوصا وقت راحة الموديل .. دخنت السيجارة ثم رميت بنهايتها (العقب) على الأرض « الأسمنت » ودستها بقدمى لاطفئها ، وما ان انتهيت من هذه الحركة التى كنت قد تعودتها فى مدرسة تشلسى وعلىالباركيه اللامع ــ حتى انفرجالستار وخرج الأستاذ الذى لمح حركتى مع عقب السيجارة وذهب من فوره الى حيث توجد « طفايات » صغيرة من المعدن على رف جانبى وجاء بواحدة وفى سكون تام وهو يمشى على أطراف أصابعه وضع « الطفاية » على ركن جانبى من الحامل .. ونظر الى وابتسم بغير كلمة واحدة ــ أعتقد أن وجهى قد احمر قليلا من الخجل ــ ولو أننى لم أنظر فى مرآة فى تلك اللحظة ولكننى أحسست أن وجهى قد عرته سخونة طفيفة .. وكان الدرس الأول لى من الأستاذ .

انتهت فترة الراحة للموديل ــ وأخذ مكانه ووضعه الأول ــ وبدأت أتأمل الموديل وأحاول أن أبدأ الرسم .. ولكنى لم أبدأ الرسم أبدا من هذا الموديل لم أعرف لماذا .. ؟ .. ولكن ربما يكون لشعورى بأن الرجل يأخذ وضعا صعبا قاسيا وهو يتألم .. ولكن فى صبر وصمت .. وان شعورى هذا قد شغل تفكيرى كلية على

ما أعتقد ــ على كل حال لقد كان هــذا هو آخر يوم فى الشــهر لهذا الرجل الموديل •• وظلت لوحتى بيضاء حتى بداية الشهر الجديد •

كانت الموديل فتــاة •• وكان الوضــع جالسا والســاق فوق الساق •• وقد لفت نظرى وضع الساق فوق الساق والتقاء خطوط الساق العلوية مع الساق السفلى وكانت هــذه هى ما بدأت بهــا رسومى مع الأستاذ أوزنفانت •• دراسة ساق فوق ساق مجرد دراسة للخطوط ــ التقاءها وتباعدها ــ رحلتهــا وحيدة ثم مع جارتها •• وصفها للسطح الممتلىء •• هذه كانت المشاكل التى صادفتنى فى هذه الدراسة •• كانت دراسة واعية فى هذه المرة •• دراساتى من الموديل فى تشلسى كانت على ما أعتقد نصف واعية •• ولذلك كانت العمليــة هنا صعبة •• وربما كانت أقل لمعانا من تلك الدراسات النصف واعية أو التلقائية اذا شئنا •• كان هــذا ما يبدو لى فى المرحلة الأولى من الدراسة •• الكروكيات السريعــة النصف واعية كانت لها حــلاوة ، وحلاوة لم تكن لتلك الدراسات الواعية أو قل الأكثر (وعيا) • كان الخط هنا يزحف ببطء شــديد مستقيم وينحنى أو ينكسر بالضرورة التعبيرية والجمالية ــ ذلك الانسياب والســهولة فى الانطــلاق فى الدراسات السابقة بدأت تذوب تحت الوعى بقيم أخرى •

رحلة الخط تسحب العين معها فاذا كان الخط ســهلا كانت الرحلة سهلة وسريعة وتقل متعتها •• الخط بطىء قد يسرع فى بعض من رحلته وقد يبطىء فى البعض الآخر وله وقفات تستريح عنده العين ثم تبدأ الرحلة من جديد •• هــذه متعة للعين فى رحلتها وهى تراقب هذه الحركة الموسيقية المدروسة •• كان هــذا درسا رائعــا لى من الأستاذ أوزنفانت عندما كان يشرح ذلك لأحد الدارسين والكل مجتمع حوله يستمع لهذا الشرح ــ ان الأستاذ كان يشرح المشكل الخــاص بالدارس على أنه مشكل عــام ومبدأ هام فى العمل الفنى ، ولذا كان

الجميع يتركون أعمالهم ويلتفون حول الأستاذ وهو يمر على الدارسين ليستمعوا الى شرحه ـ كان الأستاذ يخرج من مرسمه الذى لا يفصله عنا سوى ستار من القماش •• فى حوالى الساعة الثانية عشر ظهرا ليبدأ المرور على الدارسين •• كان نقده يشدنا جميعا فالكل من حوله •• كان نقده يتناول الشكل من جوانبه الفنية والموسيقية والمعمارية والثقافية والحضارية •• انها محاضرة رائعة يلقيها الأستاذ من بداية مشكل صغير وجده عند أحد الدارسين ـ ثم ينتقل الى الآخرين •• قد يقول شيئا وقد يمر بلا كلام •• كان حديثه دائما بالفرنسية ، وكانت السكرتيرة تترجم الى الانجليزية •• كان يعرف الانجليزية ولكن كانت له سيطرة تامة على لغته الفرنسية ، وطلاقته فيها كانت هى السبب فى عدم استعماله للانجليزية التى كان ينطقها أحيانا بلكنة فرنسية •

جاءنى أوزنفانت •• وتأمل بداية عملى ولم يتكلم هذه المرة •• وجاءنى فى اليوم التالى وكان العمل يتقدم ببطء •• وقال ••ـ «Good» وابتسم وذهب الى آخر ـ وفى المرة التالية وضع لى نقدا بناء لم انسه ولم يترك ذاكرتى حتى الآن • الخط يسير فى رحلة موسيقيا ومعماريا بشكل مقبول وطيب •• ولكن الخط لا يصف السطح الممتلىء داخل انحناءاته كما ينبغى ـ ان الشكل الذى يحده الخط يرى وكأن الخط قد قطع بسكين ، وأن الخط لا يستشعر الامتلاء الذى يحده •

أمسك أوزنفانت بالقلم الرصاص الذى كنت استعمله وقد دببت سنه رفيعا طويلا •• أمسك بالقلم من طرفه غير المدبب وبدأ يشرح فى ركن من اللوحة كيف يمكن رسم الخط مع احتفاظه بكل خصائصه المعمارية والجمالية بحيث تضاف اليه صفة أخرى الا وهى وصفه للسطح الذى يحده ـ وبدأ « يبنى » ـ وكلمة يبنى هنا لها دلالتها

الكبيرة — فانى فعلا شعرت أنه يبنى الخط — لقد بدأ يرسم أقواسا دقيقة تنحنى بخفة وبانحناءات دقيقة نحو السطح الممتلىء .. ثم عكس اتجاه الانحناءات .. وظهر واضحا أن السطح الممتلىء بدا بوضوح ممتلئا فعلا فى الحالة الأولى وفى الحالة الثانية — أى بعد تغيير اتجاه الانحناءات ظهر امتلاء السطح المعاكس والذى لا يراد اظهاره ممتلئا .

كانت هذه العلامات البسيطة بالقلم التى خطها على ركن لوحتى توضيحا عمليا لا يحتاج الى أى كلام .. وتركنى وذهب .. لقد استوعبت الدرس .

ان شرح أوزنفانت لهذه العملية بين لى ان اكتساب مهارة ما لا يكون لمجرد اكتساب المهارة — ولكن المهارة والمعرفة ينبغى أن يكون لها هدف وغرض جمالى فى مجال الفن والا أصبحت مهارة أكاديمية خاملة .. الخط فى رحلته الايقاعية والمعمارية هو فى حالتى هذه نهاية شكل ونهاية كتلة ونهاية سطح ممتلىء فاذا عجز هذا الخط — بكل القيم الجمالية التى يحملها — فان قيمته تظل ناقصة بل وتنقص الكثير من قيمة « الفورم » الكلى .. اذا لم تتكامل معه .. وهذا التكامل سيضيف الكثير الى الخط والى « الفورم » والانفصام سيحطم الكثير من قيمة الاثنين .

ان المهارات التى كان أساتذتنا فى مدرسة الفنون بتشلسى يهتمون بها هى المهارات التى تمكننا من نقل الشكل الظاهر للعين فى الطبيعة المراد رسمها ، أى المهارات التى تسهل نقل ما يقع على شبكية عين الدارس من مظهر الشكل حرفا بحرف بلا أى « تفسير » أو أية محاولة لاكتشاف القيم الجمالية فى الطبيعة المرسومة .

يقول أوزنفانت فى هذا المجال .

ان نقل الطبيعة حرفا بحرف ليس له صلة بالفن .. انه عمل

ميكانيكى آلى مثله كمن يغترف المـاء من دلو مملوء ليضعه فى دلو آخر فارغ فيمتلىء الدلو الفـارغ بنفس المـاء الذى كان فى الدلو الأول .. ان الطبيعـة تقع على شبـكية العين فتنقل كمـا هى على اللوحة .. ينبغى للطبيعة أن تدخل صدر الفنان وقلبه وعقله وماضيه وحاضره حتى تخرج شـيئا آخر غير الطبيعة المرئيـة بتلك النظرة العابرة .. النظرة الفوتوغرافية .. حتى تخرج طبيعة مثقفة مشحونة بوجدان الفنان .. وهنا ينبغى للمهارات التى يكتسبها الدارس أن تكون مهارات تؤدى الى هـذا الغرض ــ الى تثقيف الطبيعة بوجدان الفنان ــ الى تحقيق القيم الجمالية التى يستشفها الفنان فى الطبيعة ــ واذا لم تحقق المهارات المكتسبة هـذه القيم فلا خير منهـا ، فانهـا مهارات ميتة » .

لقـد استهوانى « الخط » واستحوذ على اهتمـامى .. كانت الموديل جالسة وقد شبكت يديها فى بعضها وكانت حركة الأصـابع مع بعضها لها ايقاع موسيقى جميل ــ علاقة الخطوط .. التفافها ثم التحامها ثم افتراقها وترددها وهى تصفف تلك الأصابع المتشابكة .. شدتنى هذه الأصابع اليها .. وبدأت أتأمل هـذه الأصابع المتشابكة فترة من الزمن واستوعبت ايقاعاتها واحتضنت تلك الايقاعات فى نفسى فترة حتى نضجت فى فكرى وبدأت العمل فى اللوحة . وفى نهاية المدة كانت تلك الأصابع .. أصابع اليدين المتشابكة .. قد ملأت سطح اللوحة وزادت ايقاعاتها بايقاعات أخرى جديدة عليها ، هى ايقاعات أصابع القدمين وقد تآلفت معها فى تكوين متكامل بالخطوط الحساسة المحسوبة .. بوعى كامل لكل القيم فيها .. كانت هـذه أول لوحة ناجحة لى فى رأيى .. كما امتدحها أوزنفانت وزملائى فى الدراسـة أيضا .. وقد عجبت فى نفسى كيف كنت أرسم الموديل كاملا فى خمس دقائق ، وأرسـم بضع خطوط لأصـابع اليد والقـدم فى شـهر كامل ... ؟؟

كانت هذه خطوط أولى خطواتى نحو الدراسة الواعية واكتساب حاسة النقد الذاتى ومراجعة نفسى فى كل خطوة بل مراجعة الأستاذ حتى ان نمو هذا الحس بالنقد الذاتى قد سبب لى أزمة بل وأزمات فيما بعد .

هذه اللوحة قد أعجب بها الأستاذ المرحوم يوسف العفيفى عندما عدت الى مصر فأهديتها له — ولا أعرف أين هى الآن .

كانت دراساتى بالقلم الرصاص كما كان يدرس الجميع . سوى رجل وسيدة من الانجليز المتقدمين فى السن يرسمون بالألوان الزيتية . وسوى سيدة شقراء طويلة القوام مسز جولد فنجر Mrs. Gold Finger وكان زوجهـا معماريا له قيمته ، فكانت تعمـل بالنحت وتشـكيل الصلصال .. أما باقى الدارسين فكان القلم الرصاص هو وسيلتهم فى الدراسة .

كنت أستمع الى نقد الأستاذ للعضوين اللذين يصوران بالألوان الزيتية وأنصت الى كل كلمـة يقولها .. اذ أنى كنت أعتقد أنه لابد لى آن أتتقل الى هـذه المرحـلة وهى التصوير بالألوان الزيتية .. انها ثابتة وباقية .. فكنت أنصت حتى استوعب تعليماته فى هـذا المضمار .. كانت دراستى مع أوزنفانت تسير فى طريق سليم وكنت أشعر بثقة فى نفسى كلما أحرزت تقدما يلاحظه الأستاذ وينوه به .. وكان هناك طريق آخر لا يقل أهمية عن هـذا الطريق يسير موازيا له ومكملا له فى نفس الوقت وكان لابد للتقدم فى الطريق الأول من أن يصاحبه ويلازمه تقدم فى الطريق الآخر .

العطلة الأسبوعية كانت يومى السبت والأحد .. وذلك بخلاف الأمسيات التى لم يكن لى غير البيت أقضيها فيه — الا ما ندر — حيث أننى كنت أحسب الميزانية بالبنس الواحد .

فى غرفة حامد سـعيد فى ٨٣ Warwick Road كنـا كثيرا

ما نجتمع أنـا وزميلى سعد الخـادم وبعض الزملاء والزميـلات من الدارسين والدارسات فى أكاديمية أوزنفانت •• كنا نجتمع دائما حول كتاب من الكتب يتولى أحدنا القراءة ــ وغالبا ما يكون القـارىء حامد سعيد ــ ونحن نستمع ، وقد يدور النقاش حول نقطة ما بين الحين والآخر •• كانت تمضى ساعات فى هـذه القراءة والنقاش ــ وكان الكتاب وموضوعه يقترح فى سطوره كتابا آخر وموضـوعا آخر ، وهكذا كانت تسير هـذه الأمسيات مع حامد سعيد فى قراءات ومناقشات جادة ممتعة •• وكانت هذه الأمسيات والقراءات تفتح لى أبوابا كثيرة للفكر والتأمل •• فقد كانت تتناول مسائل على مستوى عال من الثقافة والفكر •

وكانت « الميزانية » هى المتحكمة دائما فى الكثير مما كنت أود فعله أو شراءه من الكتب وخلافه ــ ولكنى وجدت حلا ممتازا لهذه العقبة • فى لندن محـلات لبيع الكتب المستعملة وهى دائما فى حالة جيدة استغنى عنها أصحابها بعد قراءتها ــ فكنت أذهب الى هـذه المحلات وبمبلغ لا يزيد على خمسة شلنات كنت أخرج بما لا يقل عن نصف دستة من الكتب القيمـة •• كما أن الطبعـات الرخيصة مثل Pelican' Every Man's' Penguin وغـيرها والتى لا يتـعدى ثمن الكتاب منها بضع بنسات ــ كانت كفيلة بسد حاجتى الى القراءة •• أما الكتب الغالية والتى لم أكن أستطيع شراءها فكنت اما ان استعيرها من حامد سعيد أو سعد الخادم أو أجدها فى المكتبات العامة •

وكان يوم السبت مخصصا دائمـا ــ الا ما ندر ــ لزيـارة المتاحف •• المتحف الأهلى على وجه الخصوص National Musuem ويوم الأحد المتحف البريطـانى فى الصباح ثم فى المكتبة الرائعـة الخاصة بالمتحف British Musuim • وبالمتحف كافيتريا صـغيرة كنت أتناول بعض السندوتشات وفنجانا من القهوة ثم أطلب الكتـاب

الذى لم استطع شراءه أو أجده عند الأصـــدقاء ، وكان الكتـــاب يأتينى فى دقائق بل فى ثوان فى بعض الأحيان .. ومن الكتب التى قرأتها فى مكتبة المتحف البريطانى الجزء الثالث من كتاب تاريخ الفن لايلى فور Elie Foure الخاص بالنهضـــة الايطـــالية .. وكانت قراءته صعبة ولكنها ممتعة للغاية .. لقد ألهب خيالى هذا « الطبيب » الكاتب الرائع بفهمه العميق للفن والفنانين وأسلوبه الفنى المرادف والمعبر تماما عن العمل الفنى الذى يكتب عنه . ففى اعتقادى أن كتاباته ما هى الا تعادل أدبى لا يقل روعة عن العمل الفنى نفســـه المتناول ، بل هو يساويه ويطابقه فى المعنى والقيمة .. كان الكتاب يلازمنى دائمـــا فى أمسياتى .. طالمـــا هو فى متنـــاول يدى ســـواء بالشراء أم بالاستعمارة .

القراءة كان يصحبها القاموس دائما لأن انجليزيتى لم تكن على المستوى الرفيع ، بل انى لم أترك فى سطر كلمة لم أكن أعرف معناها الا بحثت عنهـــا بل ودونتها فى كراسة كانت ترافق الكتاب دائما ، وبهذه الطريقة كانت انجليزيتى تتحسن بشكل ملحوظ ، ومع ذلك فلم أترك القاموس أبدا طوال قراءتى حتى اليوم .. ان الكراســـة التى ترافقنى فى قراءتى لكتـــاب كنت أدون فيها مقتطفات مما كنت أعتقد فى أهميتـــه ســـواء ما كنت أقبله وأراه متمشـــيا مع آرائى أو ما أجده غير متمش . وكنت فى هـــذه الحالة أعود الى الكراســـة لأناقش هذا الرأى المعاكس وأضع على هامشه ما أراه أنـــا ، وقد يتغير رأيى فيما بعد عندما يزداد نضوج أفكارى ، فكنت أعود مرة ثانية لنفس الكراســـة وأدون ملاحظاتى بما وصلت اليه .. كان فى هذه الطريقة فائدة كبيرة لى فى هضم ما أقرأ .

ان فى مكتبتى الآن عشرات من هذه الكراسات التى اعتز بهـــا « غير ما فقدته منها والجزء الأكبر من مكتبتى عند الانتقال السريع

من باريس الى القاهرة ابـان الحرب العالمية الأخيرة سنة ١٩٤٠ » .

كان للأستاذ حامد سعيد فضل كبير فى هـذا المضمار .. كان قارئا يلتهم الكتب التهاما ، ولكن بهدف ثابت يضعه هو لنفسه . انه يريد بناء شخصيته الواعيـة المثقفة ــ فهو يبحث عن كل ما يحقق له ذلك .

كان حامد سعيد قدوة رائعـة لنا ــ ليس بالنصح والارشـاد ولكن بما يعمله هو نفسه .

وبذلك الجو الجدى الرائع الذى يحيط به سـواء فى العمل فى الأكاديمية أو فى مجال القراءة واختيار المواضيع والكتب أو فى زياراته للمتاحف، واختيـاره للأحسن دائمـا ــ كانت صحبته ممتعة ومناقشاته جادة ومفيـدة .. وكان لا يبخـل على برأى أو نصيحـة أو كتاب .. وكان له أصدقاء عديدون . يأتون من مصر سـواء فى بعثات طويلة أم بعثات صيفية .. فيزورونه فى البيت الذى كنا نقيم فيه معا .. بل ان الكثير منهم كانوا يقيمون معنا حتى أن البيت أصبح معظم سكانه من المصريين .. وانى لأذكر من الشخصيات الفاضـلة التى زارتنـا أو التى أقامت معنا .. الأساتذة : محمد فؤاد جـلال وأسرته .. وعبد الرزاق صدقى .. والسيدة عدالات حرمه ــ التى لم تكن حرمه فى ذلك الوقت .. والأستاذ الدكتور عبـاس عمار ــ عبد العزيز سلامة ــ سعيد بدرى ــ والرحالة محمد ثابت وغيرهم .. وكنا نستمتع دائما بما يدور من مناقشـات جادة ؛ فمنهم من كان يدرس علم النفس ومنهم من كان يدرس علم الأجنـاس ومنهم الزراعة وعلم الوراثة . فكانت الأحـاديث والمناقشـات تتعـدد وتتنوع فى الأمسيات .. وكنت فعلا أجد متعة كبيرة فى تتبع هـذه الأحاديث من هؤلاء الأفاضـل كل فى عمله .. وكل فى تخصصه .. لذلك عندما

كانت تتجه الأحــاديث والمناقشــة الى الفن كانت آراءهم طريفــة ولو أنها تكون غالبا شخصية ولكنها ، أمينة لأشخاصهم •

استمرت الدراسة جادة فى آكاديمية اوزنفانت ، وعملى فى تقدم مطرد وقراءاتى تتعدد وتنمو فى أكثر من اتجاه وفى حدود الامكانيات التى ذكرتها ، ولكننى أحسست بأن القراءة واعــادة قراءة ما قرأت كانت أفيد لى من التنقل السريع بين الكتب والمواضــيع المختلفــة ، لأن استفادتى الحقة ونمو ثقافتى كانت فى هضم وتأمل ما قرأت •• ان ما فى الكتب هو خبرة لأناس عاشــوا وقرأوا وازدادت خبراتهم ، وهم يعطوننا هــذه الخبرة مركزة مهضــومة فى أعمالهم وكتبهم •• وهذه الخبرة المهضومة ينبغى لنا أن نهضمها بالفكر والتفكير والتأمل الطويل حتى تزداد بها خبراتنا نحن •• ان المعرفة والثقافة ليست مجرد معلومات نستقيها من الكتب فى شتى النواحى لنتشدق بها فى أحاديثنا، ولكن الثقافة هى خبرات مهضومة ووعى بتلك الخبرات والقيم •• لقد تعلمت هــذا ببطء ــ وكلما تقدمت بى الأيام والشهور ــ ولا أقول السنون ــ لأن رجوعى المستمر الى كراساتى التى كنت أدون فيهــا مقتطفات من الكتب التى قرأتهــا ومراجعتها بالفــكر والمناقشــة الجوانية ــ بل واضافة مقتطفات أخرى متوافقة أو متناقضــة من مؤلفين مختلفين وكتابات مغايرة ــ كانت هــذه المراجعة وتأمل تلك الآراء وامتحانها ــ كانت فى كثير من الأحيان تستدعى اعــادة قراءة كتاب ما ، أو البحث عن كتب أخرى فى نفس المواضيع حتى تلتئم الحلقات فى فكرى وتتضح المعالم •

وبهذه الطريقة فى القراءة واعــادة القراءة والتأمل فيما أقرأ ، ومراجعة آراء متوافقة أو متناقضة كنت أشعر بأن خبراتى تنمو بشكل طبيعى وحقيقى وأن قراءاتى ليست لمجرد معلومات تحشد •

كانت القراءة والكتب تستنفد وقتا كبيرا من حياتى ، فمعظم

الأمسيات كانت للقراءة ، والقراءة كانت تستمر ساعات طويلة حتى أن نظرى قد تأثر فعلا وأنا فى سن العشرين لم أتعدها بعد ـــ واضطررت لعمل نظـارة طبية للقراءة ولم تكلفنى ســوى شلنين ونصف شلن تبرعت بها للمستشفى الذى عملت عنده كشف النظارة ـــ وهنـاك اكتشفت أن عينى اليمنى خاملة منذ الصغر ، ونصحنى الدكتور بان استغنى عن عينى اليسرى فى الاستعمال بربط عصابة ســوداء عليها واستعمال اليمنى لتقوى .. ولكن لم يكن هذا ممكنا وان وقتى فى لندن ـــ وهو لا يتعدى بضع سنين قليلة ـــ لايكفى لمران عينى اليمنى، حيث أنها وحدها لا تكفى حاليا لا للقراءة ولا للرســم .. فتركت التفكير فى هــذا الاقتراح ـــ واستعملت النظارة فى القراءة والكتابة فقط ـــ اما الرسم والرؤية العادية فكانت لا تحتاج لنظارة ما .

كان هناك طريق آخر غير طريق القراءة والكتب .. طريق يسير موازيا ومصاحبـا له ـــ له نفس الأهميــة بل ربما يفوقه تأثيرا فى ثقافتى ونمو خبراتى وشخصيتى .. هــذا الطريق هو الاتصـال المباشر بالأعمال الفنية الممتازة لكبار الفنانين من مصــورين ونحاتين ومعماريين وغيرهم .

من خــلال العرض البسيط لصــور فوتوغرافيــة فى طبعــات « الموسوعة الفوتوغرافية للفن » التى تصــدر عن متحف اللوفر فى باريس الذى كان فى القاعة الأولى « المدخل » لأكاديمية أوزنفانت والتى كانت عبارة عن الفن المصرى القديم « مجموعة اللوفر » وكذا الفن « السوميرى » من نفس المجموعة ـــ من خــلال هذا العرض وتأملى اليومى للوحاته عشقت الفنين معا ـــ وكان أوزنفانت يطلق على الفن المصرى القديم « الشمسى » والفن السوميرى « القمرى » .. وكان تقديره وتفهمــه للفن المصرى القديم على أعلى مستوى وكذا السوميرى .

كان فى المتحف البريطانى قسم كبير خاص بالفن المصرى القديم ـ وكثيرا ما كنت أذهب الى هذا القسم فى صحبة حامد سعيد وكانت صحبة هذا الرجل فى المتاحف ممتعة حقا .. فهو أولا عاشق للفن المصرى القديم بل انه متعصب له .. وثانيا ان قراءاته وثقافته ورؤياه كانت متكاملة ، وتقييمه للأعمال الفنية كان على جانب كبير من التقييم الصحيح .. ولذلك فان ما كان يبديه من الملاحظات على بعض الأعمال الفنية فى المتاحف كانت مشوقة لنا فى الاقتراب من هذه الأعمال واستشفاف ما بها من قيم .

فى المتحف البريطانى وفى القسم المصرى وفى أولى ساعات فتح المتحف كنت أجد نفسى وقد افترشت الأرض الرخامية وعليها معطفى السميك أمام أحد التماثيل المصرية القديمة ، وكانت هذه الجلسة تأخذ الوقت الكافى لتأمل العمل وتمحيصه حتى استوعب القيمة وتنتقل الى داخلى عقلا ونفسا وقلبا .. أعيشها بالكيان كله .. كانت هذه الجلسة تمتد فى بعض الأيام الى الساعات أمام أحد التماثيل الرائعة « زوجة رمسيس » Queen of Ramsis كان هذا التمثال يستحوذ على مشاعرى كلها .. انها جميلة فتانة .. صارمة فى جمالها.. شامخة فى عزة وجلال .. لها نظرة الى الماوراء ـ تتعدى كل الحدود ـ هذه قيم رائعة تنساب من خلال بناء للشكل ينطق فى كل بوصة منه بالقيم .. هذا الشعر الذى ينسدل على الكتفين فى تؤدة وقوة ويترك للأذن مجالا لتعرض نفسها فى فراغ محسوب جميل ، وتلك الأكتاف القوية الرقيقة فى استدارتها تكتمل بذراعين منسابين الى جانب الجسم فى استدارة تكاد تشف عن عضلات الذراع فى رقة وحساب دقيقين .. ثم صدر ناهد فى انسجام تام مع كل ما سبق.. انها رائعة .. عشقتها وصادقتها .. وتعلمت منها الكثير .. واشتريت من المتحف صورة فوتوغرافية لها وكانت هذه الصورة أمامى فى

البيت أراها وأتأملها صباحا ومساء •• كانت لى صديقة •• ولم أكن أزور القسم المصرى فى المتحف الا وأعودها بجلسة طويلة أمامها •• لا أقول لها شيئا ولكن بعد فترة تبدأنى هى بالكلام •• كانت تقول وتتحدث طويلا •• وفى كل مرة من زياراتى العديدة كان حديثها يعمق فكرى وحسى ووجدانى •• وحتى اليوم وقد تخطيت الستين من عمرى •• ان هذا التمثال الرائع لزوجة رمسيس الثانى لم يبرح مخيلتى، بل أن رؤية صورته تملؤنى فرحا رصينا عميقا ينبع من الداخل •• ان هذا الفرح الرصين العميق الذى تملؤنى به رؤية هذا العمل الفنى الرائع لا يضارعه فى هذا سوى أعمال فنان ايطالى عظيم هو المصور ــ بيروديللا فرانشيسكا Pierro Della Franchesca

فى صدر الصالة الرئيسية فى المتحف الأهلى National Musuem بلندن توجد ثلاثة أعمال لهذا الفنان الايطالى العظيم « ديللا فرانشيسكا » فى صدر الصالة الكبيرة وعلى يمين الباب الموصل لقاعة أخرى وعلى يساره كانت لوحتان لهذا الفنان العظيم ، وقد رسمها « بالتمبرا » ونفذ الرسم على الخشب • على يسار الناظر كانت لوحة العماد Baptism : المسيح عيسى قد وقف فى وسط اللوحة ويداه فى وضع صلاة خاشعة ، ويوحنا (المعمدان) Baptist يصب الماء فوق رأس المسيح عيسى ، وشجرة ينبثق ساقها من الأرض الى أعلى حيث تقف على جانبها الأيسر ثلاث فتيات •• ملائكة •

بيرو ديللا فرانشيسكا كان عالما رياضيا وأستاذا لعلم الرياضة Mathímatics وكان الحساب الهندسى الدقيق يحكم كل أعماله المصورة •• ان كل خط وكل مساحة وكل كتلة أو فراغ كان محسوبا ومقدرا بدقة العالم وحس الفنان فى نفس الوقت •• ان القيم التى كانت تشع من هذه اللوحة وفى جميع أعمال هذا الفنان « سنة ١٤٠٠ » كانت تقارب فى محصلتها ــ القيم التى كانت

تشع من تمثال « زوجة رمسيس الثانى » : الحس الرياضى وذلك الفرح الرصين الذى يشيع فينا شيئا فشيئا كلما آدركنا ان ذلك الحساب الرياضى المحكم يحمل فى طياته خيالا حافلا بالقيم الوجدانية.. ويزداد ذلك الفرح والسرور الدفين العميق كلما تبدت لنا تلك القيم وأسفر عنها ذلك النظام الهندسى الرائع .. هذه الفتيات الملائكة الثلاث اللاتى وقفن يباركن المسيح فى عماده ليشع عنهن أعمق الحس بالفرح فى بنائهن الشامخ ورقتهن المحسوبة .. ورأس المسيح عيسى تستسلم ولكن فى مهابة وعزة يحملها جسده وبناؤه المعمارى .. ينهض فى كل جزء من أجزائه بالقيم .. ثم على يمين الناظر لوحة أخرى : « الميلاد » Mativity والطفل عيسى راقد والملائكة تغنى على ايقاع الآلات الموسيقية ــ وكأنى وأنا أشاهد هذه اللوحة أسمع موسيقى سماوية فعلا .. والفرح يغمرنى بتأمل تلك الفتيات الملائكة وقد انفرجت شفاههن عن تراتيل سماوية . وهناك لوحة أخرى لنفس الفنان ، لقديس قطع رأس الوحش « الشر » .

لقد تعلمت الكثير من بيرو ديللا فرانشيسكا ــ حسابه الرياضى وحسه المرهف الفياض بالفرح الروحانى الرصين ، وتكويناته التى حسبت كل دقيقة فيها .. لقد علمنى هذا الرجل وغرس فى نفسى أعمق الأثر .. وانى لأدين له فى ثقافتى وفنى بالكثير والكثير جدا .

فى ظروفى فى ذلك الحين لم أكن أعرف عن الموسيقى الأوربية الكلاسيكية شيئا على الاطلاق ، بل انى لم أكن قد سمعت آبدا أسماء مثل باخ أو موزارت .. أو حتى بتهوفن .. كل ما كنت أعرفه كان عن الطرب والأغانى السائدة فى ذلك الحين .. كان لى قريب جاوز السبعين من عمره وكان هاويا للموسيقى وهو مثقف يجيد الفرنسية وله مكتبة غنية بالفرنسية والعربية .. وفى هذه السن كان يأتى الينا بين الحين والحين ليشرب فنجانا من القهوة ويحكى لنا « أنا وأخى »

عن أهل الفن والموسيقى ، وقد تتطور الحكاية الى ضرب الأمثلة فكان يعطى الأمثلة غناء بصوت به « حشرجة » السن •• ولكن كانت هذه الأمثلة من الغناء فيها صـدق واحساس عميق ، فقد كانت أغانى وتواشيح قديمة •• وتطورت هذه الزيارات لما وجد قريبنا هـذا استجابة واستحسانا لرواياته وغنائه الى أن أحضر « عوده » ـ وقد اهداه لى فيما بعد ـ وبدأ يعلمنى الضرب على العود والغناء أيضا •• ولكنى لم أوفق •• فاعتذرت له بعد شوط طويل ورجوته أن يسمعنى هو ضربه على العود مصاحبا لغنائه •

لقد أحببت التواشيح فى ذلك الوقت وأحببت الغنـاء القديم بصوت ذلك الشيخ الأجش •• كان هذا هو كل نصيبى من الثقافـة الموسيقيـة •• ولكن هنـا فى لندن بدأت اتفتح تماما للموسيـقى الكلاسيكية •

كانت لنا زميلة فى أكاديمية أوزنفانت •• « فيزى » Fuzzy هى أخت لزوجة الناقد الكبير هربرت ريد •• Herbirt Read متدينة شـديدة التمسك بدينها تلبس زيا خاصا له حزام عريض مشدود على وسطها ـ وقد جاءت من أدنبرة لتدرس مع أوزنفانت فترة من الزمن ثم تسـافر الى رومـا فى منحـة للدراسـة هنـاك • أعارتنـا Fuzzy مجموعة ضخمة من الاسطوانات الكلاسيكية وبها منوعات كثيرة لكبار الموسيقيين ، وبدأت اتنبه الى هذه الموسيقى التى شدتنى تماما اليها واستمعت على « فونوغراف » يدار باليد ـ على نماذج من السيمفونيات والكونشرتات لأعلام الموسيقى ـ وقد شـدنى تماما اليه فى ذاك الحـين « موزارت » : الهافنر والجـوبتر Hafner, Juppiter سيمفونيتان كنت أستمع اليهما دائما ، وكانت الحركات البطيئة تشـدنى بما فيها من تأمـل متفائل ، وكانت قوة موزارت فى ذلك الفرح الكبير الذى كانت تشعه موسيقاه فى نفسى •

بيرو ديللا فرانشيسكا يساوى موزارت (فى ذلك الحس بالفرح الكبير) •

كان المتحف الأهلى بلندن يضم مجموعة كبيرة من أعمال التصوير لكل مدارس التصوير الأوروبية والايطالية والفرنسية والأسبانية والهولندية والبلجيكية والانجليزية وكانت المجموعة من الكبر بالنسبة لدارس مثلى •• أكبر من أن أستوعبها فى ذلك الحين فلجأت الى اختيار الأحسن والأوفق بالنسبة لى وركزت دراساتى عليه •• بحيث أن ترددى المستمر على المتحف كان يقتصر فى معظم الأحيان على عدد من اللوحات المختارة ـ وكان يزيد شيئا كلما تعددت مرات الزيارة للمتحف •• وكان لهذا نفع أكبر لى حيث أن تكريسى الزيارة لدراسة وتأمل عمل واحد أو اثنين كان يجعل القيم تتكشف لى أكثر وأكثر ، وكانت الدراسة تبتعد عن السطحية تماما •

من المدرسة الفرنسية شدنى اليه اثنان من المصورين الكبار : أولهما بوسان Poussin ـ وذلك للحساب الهندسى والرياضى المحكم الذى يسيطر على لوحاته فى تكوينها العام وفى كل تفصيلة فيها مهما دقت •• ذلك الفنان الذى قال : « اننى لم أترك شيئا » I left Nothing بمعنى انه لم يترك شيئا بغير تحقيق وتصميم •

كان بوسان •• أستاذا آخر لى سعدت بصحبته فى المتحف الأهلى بلندن ثم بعد ذلك فى متحف اللوفر بباريس مع مجموعته الكبيرة الرائعة •

ان دراستى للوحات هذا الفنان كانت تنصب على هندســيته المحكمة التى تسيطر على كل تفصيلة وكل دقيقة فى اللوحة .. كان بوسان هو فرنسا فى ذلك الحين (القرن ١٧) وان مدارس الفن التى جاءت بعده كانت تستقى منه ومن فنه وخصــوصا حسابه الرياضى وهندسيته .

وكان المصور الثانى هو كلود لورين .. وسيأتى ذكره فيما بعد .

فى الربيع الثانى من عام ١٩٣٧ حدث أن لحقت بى ضائقة مالية حيث انه لم يصلنى من مصر أى نقود حسب العادة .. فأرسلت الخطاب تلو الخطاب لاستفسر عن الأسباب ، وكان يأتينى الرد دائما بأن النقود قد أرسلت .. واستفسر فى البنك فلا أجد شيئا .. ويمر شهر ويأتى الشهر التالى والنقود لم تصل .. وشعرت بضيق شديد .. وعزمت على تغيير سكنى لكى أوفر بضع شلنات فى الأسبوع حتى تأتينى النقود .. وكان لى زميل انجليزى فى مدرسة تشلسى قابلته بالصدفة بالقرب من سكنى وسألنى عن دراستى الجديدة مع أوزتفانت فتحدثنا قليلا وسألته اذا كان يعرف سكنا فى هذه المنطقة رخيصا نسبيا حيث اننى كنت أدفع حوالى ٣٠ شلنا فى الأسبوع ــ فقال ان والدته عندها سكن واقامة لى بأقل من هذا المبلغ فذهبت معه فى الحال الى والدته .. وقابلت والدته ورأيت الحجرة فكانت حجرة رحبة ونظيفة ومحتوياتها من فرش أحسن بكثير من سكنى فى Worwick Road ووجدت ان الأجر الأسبوعى ينقص بضع شلنات .. فقبلت .. وكانت والدة الزميل هاشة باشة مرحبة بى ..

ووعدت بأن أنقل حاجياتى الى الغرفة فى اليوم التالى • وذهبت الى البيت وبدأت أرتب حاجياتى فى الشنط •

قابلنى حامد سعيد فأخبرته بما عولت عليه لأوفر بضع شلنات فى الأسبوع وخصوصا وأن المرتب الشهرى لم يصلنى شهرين متواليين ••ففكر قليلا وسألنى أين يوجد هذا المنزل وهل به حجرة أخرى •• انه يود الانتقال من هذا المنزل أيضا لازدحامه بالسكان والمعارف •• وانه يود أن يعتزل المعارف قليلا ليتفرغ لقراءاته وعمله ••• الخ •• واصطحبته فعلا الى المنزل الجديد وقابلنا السيدة صاحبة المنزل وعرفتها بصديقى المصرى حامد سعيد وانه يرغب فى الاقامة معى اذا وجدت غرفة خالية فى المنزل •• وقد شعرت للحظة خاطفة ان الابتسامة التى قابلتنى بها قد اختفت فور رؤيتها لحامد سعيد ، وطلبت منى ان أتبعها منفردا وتركت حامد سعيد ينتظر ، ودخلنا الى الصالة وبدأت الحديث بما يفهم منه انها قبلتنى بل رحبت بى لأنى أولا زميل لابنها فى الدراسة وثانيا لأن لونى أبيض وشعرى بنى ولكن زميلى •• حامد سعيد أسمر داكن ، وشعره أكرت وهو يفرقه من المنتصف على طريقة الهنود •• انه هندى أكثر منه مصرى•• هكذا حدثتنى السيدة الانجليزية صاحبة المنزل ، وأسفت لأنها لن تستطيع قبوله فى المنزل لا لتعصب منها ضد اللون أو الجنس — ولكن لأن زبائنها من سكان المنزل — وكلهم من الانجليز والاسكتلنديين ربما يتركون المنزل اذا علموا بأننى قبلت الملونين •

وقد حاولت التصدى لهذا الكلام الغير مقبول على الاطلاق « وخصوصا وان حامد سعيد فنان مثقف وو •• الخ » ولكنها ابتسمت ولم تزد••وكانت النتيجة اننى اعتذرت أنا أيضا عن الاقامة فى منزلها وذهبت الى حامد سعيد ثائرا حيث كان ينتظر فى الردهة الخارجية ، وقبل أن انطق بحرف واحد قال لى لقد فهمت كل شىء وبدأ يهدىء من ثائرتى وقال لا داعى للثورة على الاطلاق انها كانت صريحة على الأقل ،

وقد يكون لها عذر فيما فعلت وقالت •• وأنه أى حامد سعيد — لم يتأثر اطلاقا بما حدث ، ونزلنا الى بيتنا وقد خسرت حجرة جميلة ورخيصة » •

وفى اليوم التالى بدأت أبحث عن سكن آخر فى نفس الحى وقريب من الأكاديمية وفعلا وجدت غرفة صغيرة (مسروقة) بين الدورين ويفتح بابها على السلالم مباشرة حجرة صغيرة نظيفة بها كل ما يلزم : سرير — دولاب — كرسى — منضدة صغيرة — ومدفأة و Ring سخان صغير بالغاز مثل المدفأة •• سكن فقط لا تقدم أيه وجبات للطعام والأجر كان عشر شلنات فقط أسبوعيا فقبلت فورا وانتقلت بحاجياتى فى نفس اليوم •

بدأت أرتب حياتى الجديدة •• أولا •• الميزانية •• قسمت ما بقى معى من نقود — ٢ جنيه أجرة ٤ أسابيع للغرفة — واجبة الدفع فورا ومقدما••هكذا أردت أن اطمئن على أجرة السكن ولمدة شهر كامل •• ثم الغذاء ثلاث وجبات • الافطار لبن وكورن فليكس لن يكلفنى سوى بضع بنسات •• والغداء •• لا أستطيع أن آكل فى مطعم لأن هذا سيكلفنى أكثر من شلن ونصف مع التواضع الشديد •• والعشاء •• ان الميزانية لا تكفى •• والجنيهات الباقية ستتبخر سريعا اذا لم أجد حلا للأكل غير المطاعم •• وحتى اذا وصلتنى النقود من مصر كالمعتاد فانها لن تكفى على الاطلاق وخصوصا وان مصاريف الأكاديمية كانت باهظة لا تحتملها ميزانيتى •

وهكذا كان الغذاء :

١ — جزء من رغيف من الخبز — ١ بنس •

٢ — مكرونة أقوم بسلقها مع قطعة من الزبد — ٥ بنسات •

٣ — بيضة مقلية (مستوردة) ٥ر١ بنس •

المجموع ١ + ٥ + ٥ر١ = ٥ر٧ بنس للغذاء يضاف اليها فى بعض الأحيان ١ بنس واحد صابع موز وكذا ٥ر١ حبة طماطم صغيرة .

فكان الغذاء يتكلف حوالى ١٠ بنسات .

أما العشـــاء :

فكان نصف رغيف من الخبز الأسمر Brown Pread + قطعة من الجبن الشيدر ٦ بنسات .

هكذا كان غذاء يوم كامل يكلفنى أقل من شلنين ــ وقد توازنت الميزانية بهذا النظـــام ــ المسكن ٢ جنيه شهريا ، المـــأكل ٦٠ شلنا شهريا أى جنيه ــ الجملة خمسة جنيهات لا غير .. أما السجاير فقد اختصرتها الى نصف علبة صغيرة أى خمسة سجاير فى اليوم تقسم على اليوم بالساعة .. أما الغسيل فكنت أتولى غسل كل ما أستطيع غسله بنفسى ، ســـوى القمصان التى كانت تحتاج الى الكى فكنت أرسلها الى الغسيل وأدفع الثمن .

مر الشهر الأول على هذا النظام ومر الشهر التالى وقد اشتدت الأزمة حيث انه لم تصلنى أية نقود من مصر طوال ثلاثة أشهر كاملة .

وتلقيت « نوتة » تركتها صاحبة المنزل على الطـــاولة فى المدخل تذكرنى فيها بأجرة الحجرة .. أخذت الورقة ولم أجبها بشىء فى ذات اليوم .. وفى صباح اليوم التالى قابلتها وذكرت لها الموقف بالضبط وأن النقود لم تصـــلنى من مصر بعد وأنـــا فى انتظارها من لحظـــة الأخرى واننى ســـبق أن كنت اسدد الشـــهر مقدما وليس أســـبوعا بأسبوع .. ووافقت صاحبة المنزل على الانتظار .. وقد استرحت قليلا من استجابة صاحبة المنزل واستعدادها للصبر .. ولكن قامت مشـــكلة أخرى .. ان ما معى من النقود لا يكفى لأكله واحدة فى اليوم ــ اذا فلتقسم الأكلة الواحدة على وجبتين للغذاء والعشاء ..

والواقع اننى كنت اكتفى فى العشاء بقطعة صغيرة من الجبن وقطعة كبيرة من الخبز •• ولكننى بعد فترة مرضت •• واصبت بأرق شبه دائم وضعفت صحتى وكان يعودنى زملائى سعد الخادم والأستاذ حامد سعيد من وقت لآخر ومعهم بعض الحلوى من الشيكولاتة ، وكنت أتمنى فى ضميرى ان تستبدل الشيكولاتة برغيف كبير من الخبز وقطعة كبيرة من الجبن •

كنت أصبر على آلامى وأخفى الكثير منها ، والجزء الأكبر منها من الضائقة المالية — انهم يعلمون أن نقودى التى ترسل لى شهريا متأخرة ، ولكنهم لم يعلموا تماما أن ما بيدى لا يكفى لأى شئ على الاطلاق •• حتى وصلت بى الحال أن أستبدل امتلاء معدتى بأى أكل بامتلائها بالماء حتى أشعر بأى امتلاء •• وزاد الأرق المستمر ألما على ألم •• فكنت أسير على قدمى فى شوارع لندن الساعات الطوال حتى يلم بى التعب بل الارهاق التام فيجبرنى على النوم بضع ساعات قلائل لا تتجاوز الثلاث عند الفجر •• استمرت هذه الحال فترة لا بأس بها •• شحذت فيها عزيمتى تماما •• وشعرت بأننى رغم كل هذا قوى ، وأنه كلما أرهق جسدى وضعف ارتفعت معنوياتى وظلت ترتفع على الألم •

وقد شعرت فيما بعد كم كسبت من هذه الفترة — وكم كان الألم مدرسة رائعة تربت فيها عزائمى وتحركت داخلها همسة رقيقة من روحانية ، كانت بداية لمعركة روحية داخل النفس •• بدأت تأخذ مكانها بعد ذلك بشهور طويلة •• انى لازلت أذكر هذه الفترة وأتأمل معطياتها الآن — وكم أقول لنفسى — كم كنت شجاعا قويا فى ذلك الحين وقد تحملت الكثير الذى لم أستطع تحمله بنفس الدرجة فيما بعد فى أزمة أخرى سيأتى ذكرها فى السياق بعد مرور سنوات عديدة وفى سن الخمسين •

كنا في نهاية السنة الدراسية تقريبا .. وقد أعلن أوزنفانت عن مسابقة مفتوحة للفنانين جائزتها مجانية فى أكاديميته لفترة دراسية .. فلم أتردد فى التقدم الى المسابقة ــ فقد كنت أتلمس أى مخرج يسهل لى الاستمرار فى الدراسة والتخفيف من أعبائى المــالية .. كنت لا ازال مريضــا منقطعــا عن الذهاب الى الأكاديميــة عندما فوجئت بالسكرتيرة (شارى دينسى) تعودنى فى البيت ثم تنقل لى خبرا سارا الا وهو حصــولى على الجائزة وفوزى فى المسابقة .. أى أنه أصبح أمامى فترة دراسية كاملة فى أكاديمية أوزنفانت بغير أن أدفع شيئا .. انه مبلغ كبير فعلا بالنسبة لى الذى تم توفيره بالفوز بهذه المسابقة .. فشــكرت السكرتيرة ورجوت ألا تكون هــذه المنحــة قدمت الى للمساعدة وليست للاستحقاق .. فأجابت السكرتيرة بحماس ، مؤكدة بأنى كنت أكثر المتقــدمين استحقاقا ، وان الجــائزة كانت للتفوق وليست لأى سبب آخر .. فشعرت بسرور وراحة تكتنفنى بعد هذا التأكيد الصادق من شارى دينسى ورحلت عنى شارى وهى تتمنى لى الشفاء العاجل .. وبعد رحيلها وجدتنى أقف على قدمى : دب النشاط فى جسدى .. بل قل دبت الحياة فى ثانية فقد كنت منهوكا تماما .. وما لبثت الا قليلا حتى عادنى حامد سعيد وهنأنى بالمنحــة وقد علم منى بأن السكرتيرة قد عادتنى وأبلغتنى الخبر .. وسلم وخرج .

فى مرحلة الضعف والمرض هذه كانت تأملاتى وأفكارى تسبح مع ما قرأت وما أقرأ . كنت أقرأ عن غاندى .. وقوة اللاعنف ــ وقد ملأنى الكتاب بحماس رائع لهذا الرجل العظيم ، وأعتقد ان هــذا الكتاب عن سيرة هذا الرجل ــ غاندى ــ قد ترك فى نفسى آثــارا بعيدة فى تكوين الشخصية .

لم يمر يومان الا وقد وصلنى خطابان ــ أحدهما من هيئة البريد البريطانية عن تأخير خطاب لى جائنى من مصر حيث ان الطــائرة التى

كانت تحمل البريد قد حـدث لها حادث وان الخطابات قد أصابهـا البلل والتلف من جراء سقوطها فى ماء البحر •• وبداخـل المظروف مظروف آخر ــ ممزق جزئيـا ــ وجزء من الكتابـة (مشلفطة) من تأثير المياه ، والكتابة كانت عبارة عن اسمى وعنوانى والخطاب من مصر وبداخله شيك بمبلغ ١٠ جنيه •• وتاريخ الخطـاب متأخر عن موعد وصوله بحوالى أربعة شهور ــ كانت مفاجأة لى لقد وصـلت النقود المتأخرة وكانوا صادقين فى القاهرة لمـا اخطرونى بأنهم أرسلوا النقود فى مواعيدها ــ واما الخطاب الثانى فكان من القاهرة وكانت مفاجأة أخرى لمـا وجدت بداخله شيكين اثنين بأكثر من ٢٥ جنيها •• مع الاعتذار بأن الشيك الأول كان أرسل الى عنوان خاطىء وأعيد الى القاهرة وبالرجـوع الى خطاباتى للقـاهرة راجعوا العنوان وصحح وتسلمت جميع الشيكات المتأخرة مع زيـادة فى المبلغ تعويضـا عن التأخير •• شكرا لله •• صمت طويلا •• للشكر •• لقد أصبح فى يدى مبلغ ضخم يقرب من الأربعين جنيها •• فعلا كان مبلغا ضخما بالنسبة لى فى ذلك الوقت بعد ما عانيت وقاسيت •

ارتديت ملابسى وذهبت لزيارة زميلى سعد الخادم وحامد سعيد فى « وورويك رود » •• وعلما منى بأن النقود وصلتنى فعلا وأنه أصبح فى يدى مبـلغ محترم اقترح على سـعد أن نذهب الى باريس لزيارتها ــ وكان معرض باريس الدولى لسنة ١٩٣٧ مقاما فيها فى ذلك الحين ــ فوافقت فورا لانى مشوق فعلا لزيارة باريس ومتحف اللوفر على وجه الخصوص ، خصـوصا وأن تمثال الكاتب المصرى الذى رأيته فى صور فوتوغرافية ــ ليس الا ــ مازال عالقا فى ذهنى ، وكذا رأس « جودا » السومبرى •

وفعلا بدأنا الاستعداد للسفر ــ وقد كنا نحن الاثنين فى بداية الأجازة الدراسية وقدرها ثلاثة شهور •• ولم نكن نعرف أى أحد

فى باريس نلجأ اليه اذا احتجنا الى المشورة ، ولكنى تذكرت زميلة لنا فى أكاديمية أوزنفانت ــ فنانة موهوبة .. ذكية جدا .. جميلة جدا .. متحررة جدا : بريم كارنجتون .. انجليزية من أسرة عريقة ــ كانت صديقة لحامد سعيد لفترة ما أثناء دراستها بأكاديمية أوزنفانت .. وكانت دائما على استعداد لتشبع رغباتها مهما كانت ومهما خالفت تقاليد المجتمع .

زارنا فنان سيريالى كبير ذو مكانة عالمية هو « ماكس ايرنست » جاء من باريس ليحضر افتتاح معرض له فى لندن وكان على علاقة بأوزنفانت ــ وفى الافتتاح .. ذهبنا جميعا ــ الدارسون وأزونفانت نفسه ، وكان ماكس ايرنست نفسه قد ذهب الى معرضه فى شكل يكاد يكون أكثر سيريالية من رسومه .. البنطلون « فردة » واحدة والساق الأخرى مكشوفة بها فردة حذاء وجورب ورباط للجورب ملتف على الساق .. أما القدم الأخرى فبغير حذاء ، وشعره « مفروق » فى المنتصف تماما الى شقين ــ شق صبغ باللون الأزرق والشق الآخر باللون الأبيض ــ وفى نهاية حفل افتتاح المعرض .. التقينا به فى جلسة خاصة ، والتقى ببريم كارنجتون ، وما لبثت أن تركت الدراسة بأكاديمية أوزنفانت ورحلت مع ماكس ايرنست الى باريس لتقيم معه فى عش واحد سواء أكان عشا للزوجية أم غيرها ، فهى لم تكن تأبه لهذه الأشياء على الاطلاق ــ الواقع انى أسوق هذه الحادثة لأننا عندما قررنا أنا وسعيد زيارة باريس فكرنا أن نزور « بريم كارنجتون » فهى خير عون لنا على ارشادنا للمتاحف وغيرها فى باريس .. وقد تمكنت من الحصول على عنوانها فى باريس من سكرتيرة أوزنفانت التى كانت تراسلها .

ركبنا القطار الى نيوهافن ووصلنا اليها فى المساء ثم ركبنا المركب « المعدية » لنعبر (المانش) الى دييب فى فرنسا ، وكان الجو باردا

على ظهر المركب ــ وقد تأثر سعد الخادم تأثرا شــديدا من البرد حتى
انه رقد وتغطى بكل ما لديه مما يصلح للغطــاء كما أعطيته معطفى
أيضا ولكنه ظل يرتجف من البرد ، وقد خفت عليــه كثيرا لأنه كان
نحيفا ضعيف البنية .. ولكنه أحس ببعض الدفء بعد أن طلب منى
أن أجلس فوق رجليه الاثنين حيث كان لا يشــعر بهما من شــدة
برودتهما .. على كل حال .. انتهت الرحلة الى « دييب » ووصــلنا
الى باريس بالقطار ، وكان وجود سعد معى عاملا مساعدا فى التفاهم
لأنه كان يجيد الفرنسية التى لم أكن أعرف منها ســوى ما درسناه
فى المدارس الثانوية ــ وهو فنان لا يصلح لشىء ــ سوى النجاح فى
الامتحان بالحصــول على ٩ درجات من ٣٠ درجة ولاشىء بعد ذلك .

نزلنا فى فنــدق صغير ــ أجره معقول للغاية لا يتعدى بضــع
فرنكات فى الليلة الواحدة مع الافطار ــ والفرنك الفرنسى فى ذاك
الوقت كان يعادل ٧ مليمات لاغير وكانت وجبة الافطــار الفرنسية
على عكس وجبة الافطار الانجليزية التى تتكون من بيض ولحم وزبد
ومربى وكيك فى بعض الأحيان مع الشاى طبعا ــ والشاى كان يقدم
مع كل الوجبات فى انجلترا ــ أما وجبة الافطــار الفرنسية فكانت
لا تتعدى « سلطانية صغيرة » « بول » بها قهوة باللبن ومعها « ترتين »
أى قطعة من الخبز عليها قليل من الزبد . اما الغذاء الفرنسى فهو وجبة
رئيسية دســمة بعكس الغذاء الانجليزى ــ والواقع كنت أفضــل
الطريقة الانجليزية لأن الافطار الجيد كان يساعد على تحمل البرد
وعلى العمل ــ أما فى فرنسا فما كانت تمر ساعة أو ساعتان حتى أجد
نفسى جوعانا ضعيفا أمام البرد .

استرحنا فى الفندق فترة الصــباح ثم خرجنا نسير فى شــوارع
باريس الفسيحة نشاهد بناياتها النظيفــة وهى منسقة فى هندســة
رائعة ــ كل باريس نسقت فى نظــام هندسى بديع ــ وشــوارعها

وبناياتها وحدائقها ــ وكنت أشعر بفارق كبير بينها وبين لندن بمبانيها المتماثلة ــ الشارع الواحد تصطف فيه المبانى على الجانبين كلها متماثلة ومتطابقة تماما فى عمارتها وشكلها ولونها وأبوابها ونوافذها ــ ولم نكن نعرف بيتنا الا اذا تحققنا من الرقم المرسوم على أعمدته التى اسودت من الدخان الذى يغطيها • أما باريس فرائعة ــ هكذا ظهرت لى لأول وهلة بهندسيتها التى تتخلل كل شىء ــ وتصميماتها المعمارية التى تمتاز دائما بحسن الذوق والجمال • سرنا على أقدامنا نجوب الشوارع ونشاهد (الفترينات) والتنسيق الجميل فى عرض البضائع بها •• كان التنسيق يأخذ دائما طابعا هندسيا • كانت « الفترينة » فى محال باريس عبارة عن لوحة نسقها فنان ذو ذوق رفيع ــ وكنت أشعر ان هــذا التنسيق جزء من التنسيق العام الذى يشــمل الشوارع والبنايات والحدائق •• هندســة محكومة بذوق رفيع •• هــذه هى باريس •

بعد أن تعبت أقدامنا من المشى الطويل الممتع ونحن نشاهــد الشوارع والمحلات ، وأناقة السيدات وهن يسرعن الخطى دائما فى مشيتهن ــ ذهبنا الى مطعم صغير « كافيتريا » فى حديقة صغيرة وجلسنا فى ركن م جاء « الجرسون » وكان واحدا لا غير ، وقد سأله سعد عما يمكن تقديمه لنا واختار سعد بعض المــأكولات الخفيفة وتناولناها وكانت حسنة وكافية تماما ، والحساب كان تافها لا يتعدى فرنكات قليلة • وعندما انتهينا من الحساب وقلت ان ما تناولناه من طعــام يساوى أضعافا مضاعفة اذا ما تناولنا مثله فى لندن ــ فقال ســعد « نعم وسنعود غدا وكل يوم لنتناول غذاءنا فى هذا المطعم » •

وفى اليوم التالى جئنا لنفس المطعم وجلسنا فى نفس الركن وعلى نفس الطاولة وحضر نفس « الجارسون » وحيانا بابتسامة رقيقة ــ فقد عرفنا من قبل •• ثم طلبنا نفس الأصناف ونفس الكميات التى طلبناها

بالأمس •• واستمتعنا فعلا بالغذاء الرخيص الجميل •• وطلب سعد الحساب من الجرسون •• وبكل بساطة وصـل الحسـاب الى ثلاثة أضعاف ما دفعناه بالأمس ــ ولم ينتظر الجرسـون سـؤالنا له عن السبب ، ولكنه قال بكل بساطة انه أخطأ بالأمس فى الحساب وهو يصحح اليوم خطأه ، وخرجنا ولم نعد اليه أبدا •

زرنا المعرض •• معرض باريس الدولى •• زرنا معرضـا آخر للرسم لفنان مصرى فى مكتب مصر للسياحة وكان من أعمال الفنـان على الديب ، الذى توثقت الصلة بينى وبينه بعد ذلك بسنين طويلة •• فى القاهرة •

ثم فى يوم آخر ذهبنا لزيارة « بريم كرينجتون » زوجة ماكس ابرنست التى أخذنا عنوانها من سكرتيرة أكاديمية أوزنفانت ــ ولكننا لم نجد أحدا بالعنوان المذكور ــ وعلمنا فيما بعد بأنهـا أصيبت بمرض نفسى •

زرنا بعض المتـاحف •• وركزنا على اللوفر • وكان فى ذلك الوقت معرض لبعض أعمال سيزان فى أورانجيرى Orangerie فجذب انتباهى هـذا الفنان بشدة •• للمرة الأولى بالرغم من معرفتى لبعض أعماله قبل ذلك ــ ولكن لتركيزى الشديد على الفنون القديمة كان تقديرى لهذا الفنـان ناقصا بل سطحيا •• حتى ذلك الحين •• وسيكون لسيزان تقدير آخر ووزن كبير فى حياتى الفنية فيما بعد •

لم نمكث فى باريس طويلا ــ أسبوعين ــ ثم رحلنا الى لندن •• وهناك التقينا بحامد سعيد الذى اقترح أن نمضى أجازة لبضعة أسابيع فى اسكتلندا •• وكنا نسمع عنها الكثير من د• عبد الرزاق صدقى الذي كان يدرس فى أدنبره العاصمة فى ذاك الحين •

منطقة البحيرات Lake Districtrs وهى من أجمـل المناطق

فى اسكتلندة . وأدنبرة نفسها وما يحيط بها من تلال خضراء مدينة جميلة .. وفعلا وافقنا على تمضية بضعة أسابيع فى اسكتلندة .. لم أشأ أن تكون اجازتى داخل حجرة فى بيت مقفل .. أردت أن أسكن الخلاء فى خيمة صغيرة .. وقد علمت أن بجوار أدنبرة تلالا جميلة يمكن أن « أعسكر » بها وأنصب خيمتى اذا أردت .. ولم أتردد فى تنفيذ تلك الفكرة .. اشتريت خيمة لشخص واحد « هايك » ومشمعا للأرض وبضع بطاطين ثقيلة و « تورش » بطارية كبيرة للاضاءة وترموسا كبيرا للماء وكل ما يلزم لحياة الخيمة ــ وقد كنت « جوالا » فى فرقة الكشافة بالمدرسة السعيدية وتعلمت شيئا ما عن حياة المعسكرات ــ وأخذت معى كتبى وبضع أوراق وأقلام للرسم ، وركبنا الأوتوبيس Green Coach الى أدنبرة : رحلة طويلة ولكنها ممتعة للغاية .

وصلنا أدنبرة وبدأنا البحث عن سكن لحامد سعيد وسعد الخادم، وقد فضل حامد سعيد أن يسكن كل منهما فى مسكن مخالف لسكن الآخر ويكون اللقاء فى ساعة معينة من ساعات النهار ، وقد وفق الاثنان لسكن جميل ــ أما أنا فقد علمت أنه يمكننى أن أنصب خيمتى فى تل من تلال بيرنت ايلاند Burnet Islant التى اخترناها للاقامة بها ــ وفعلا حملت خيمتى وحاجياتى على كتفى وصعدت الى التل وهناك نصبت الخيمة وشددت حبالها جيدا بالأوتاد التى دفنتها جيدا بالأرض وفرشت المشمع Ground chout وتأكدت من أن أطراف الخيمة لا ينفذ منها شىء ثم ثبت البطارية « التورش » فى سقف الخيمة بحيث يلقى ضوؤها على صفحات الكتاب الذى أقرأه فى المساء وأنا راقد .. وفرشت البطاطين ومخدة صغيرة تحت الرأس .. أتممت كل هذا وأقفلت الخيمة جيدا وكان الغروب يقترب والسحب

تملأ السماء ، وجلست خارج الخيمة أشاهد سير السحب والخضرة والتلال •

شعرت براحة كبيرة بعد أن رتبت سكنى الجديد •• ثم ما لبث المنظر •• بل المناظر التى تتغير بتغير الضوء وبانتقال السحب — أن أخذت بكل اهتمامى ، وانسابت أفكارى مع حركة السحب ، وتعلق خيالى بتلك السعة الغير محدودة من السماء ، بل انها تزداد لا محدودية كلما اندمجت معها فى تأملاتى •• ونسيت الخيمة وكل ما فى الخيمة •• نسيت كل شيء •• غير حركة السحب فى ألوانها الرمادية المتغيرة كلما اقترب المساء •• تلك الحركة المستمرة التى لا تتوقف أبدا •• ثم ذلك الفضاء اللانهائى الذى تسبح فيه تلك السحب •• هذه اللحظات القصار — وأنا وحدى فوق التل فى برنت ايلاند فى اسكتلنده •• كان لها أثر كبير فى حياتى وفى فنى أيضا بالتبعية •• كنت أقرأ طوال الليل على ضوء التورش المعلق فى سقف الخيمة حتى يدب النعاس فى أجفانى فأطفىء الطورش وأنام •

فى الصباح كنت أجوس خلال المنطقة أتعرف على ما فيها ثم أجلب الماء من صنبور كان على مقربة من مكانى — وأبحث عن أصداف التقطها وبعض الأحجار الزلطية أتأمل أشكالها وتكويناتها — وخصوصا بعد أن قرأت مقالا طويلا لهنرى مور عن الزلط وأشكاله وتأثير تلك الأشكال المنحوتة بعوامل طبيعية فى أعماله النحتية ، وانه كان يتعلم منها الكثير • والواقع أنه تكلم عن « الحصاة » الزلطة والقيمة النحتية الرائعة التى ينبغى لكل مثال أن يستوعبها وان يودعها تماثيله وأعماله النحتية والا أصبحت هشة خالية من « الدفع الداخلى » الذى يكسبها صلابة ومعمارية نحتية • هنرى مور حقق هذه القيمة فى أعماله بغير شك •• وفى اعتقادى أنه حقق أكثر من ذلك

باضافة الجانب الانسانى والوجدانى فى أعماله الصرحية العظيمة ..
فى رأيى هنرى مور أعظم نحات فى عصرنا هذا .

لقد التقيت « بحصاة زلطه » أعجبنى تكوينها . وعلى هدى مقال هنرى مور بدأت أتأمل قيمتها النحتية ثم شكلها الموحى الى الكثير من الخيـال ـ يفجر فيه أحاسيس كثيرة لم أستطع تجسـيدها فى مخيلتى ـ ولكنى بدأت أرسم من الزلط مضيفا اليها تلك الأحاسيس التى آثارتها فى خيالى ـ وكانت النتيجة رسما موحيا لتلك الأحاسيس وبه بعض من تلك القيمة التى استوعبتها من الزلطة .. هـذا الرسم مازال عندى حتى الآن ـ وهو أول تجربة للتجسيم بالتون وامتـلاء الفورم ـ هذه التجربة انهت تجربتى فى دراسة الخط ، بصرف النظر عن القيمة الفعلية التى وصلت اليها فى تشكيل فورم هـذه « الزلطة » فى « برنت ايلاند » اسكتلندة .. واصلت قراءتى فى الأوقات التى كنت لا أرسم فيها ، وفى الليل حيث لا يوجد أنيس أو جليس فوق هذا التل الموحش ، وفى ضـوء المصباح الخافت « تورش » ـ اذكر انى كنت أقرأ فى هـذا الزمـان والمكان كتابا لالدس هكسـلى Text and Pretat Aldus Huxely وهو عبـارة عن مقـالات متنوعـة فى مجـالات مختلفة وكانت قراءة هـذا الكتـاب متعة كبيرة لى فقد تعرفت على مجالات كثيرة فى الشعر والأدب وغيرهـا كانت بعيدة عن قراءتى حتى ذلك الحين ، ومنها كانت بعض الأشعار « لوالت ويتمان » Walt Whitman لم أفهمها بعقلى جيدا ولكنهـا ملكت على مشاعرى وأحاسيسى وكنت أعيد قراءتها مرات ومرات .. وبقى أثرها يتضح شيئا فشيئا متبلورا ببطء .. ينمو كلمـا نموت أنـا وكلما ازدادت مشاعرى أرهافا .

كنت أزور حامد سعيد وسعد الخادم بين الفينـة والفينـة .. نتحدث قليـلا عما نفعله .. وكنت انتهز الفرصـة لاغتسل فى منزل

أحدهما حيث ان حياة الخيمة لا تعطينى الفرصـة كاملة •• وفى بعض الأيام كنت أحن لأكلة ساخنة •• فكنت أذهب الى حامد سعيد وسعد لنتناول تلك الأكلة الساخنة فى مطعم ما •• وأنى لأذكر حادثا طريفا فى المطعم •• كان حامد سعيد أكبرنا سنا ـ فهو يكبرنى بما يقارب العشر سنوات ـ وكان يتقدم بالنيابة عنا للكلام وطلب الحساب وغيره ـ وفى هذه المرة بدأ هـذه العملية مع الجرسون الذى نظر الى سعد الخادم ببياضه الشديد وشعره الأشقر وقال له فى حدة : لماذا لا تتكلم انت وانت أدرى بلغتك (الانجليزية طبعا) من هذا الأجنبى ، وذهب عنا مسرعا • وقد بلغت بنا الدهشة من قحة هـذا الرجل أولا ثم غلبنا الضحك لأن الرجل (اتخم) فى زميلنا سعد واعتبره انجليزيا ينبغى له التقدم بالكلام بلغته الانجليزية ••• !

فى صباح يوم وكان الوقت مبكرا جدا على استيقاظى حيث كنت أسهر كثيرا فى القراءة ـ شعرت بأن الخيمة تهدم على رأسى حيث اقتلع أحد أوتادها وان هنـاك شخصـا ما يحاول اقتلاع « وتد » آخر •• فأخرجت رأسى من باب الخيمة لأرى من الفاعل وفوجئت بطفل صغير لا يتجاوز السابعة من عمره وهو يلهو باقتلاع أوتاد الخيمة ، فسألته لـماذا فعل ذلك •• وما هو غرضه •• فلم يحر جوابا وأعتقد انه روع عندما رأى رأسى تخرج من باب الخيمة ثم ذهب بعيدا وهو يمشى على مهل بغير أن يلتفت وراءه •• وفى اليوم التالى صحوت مبكرا فوجدته جالسا بالقرب من الخيمة ساكنا •• فخرجت وحييته تحيـة الصباح فردها على الفور •• وسألته عن اسمه فذكره لى وسألنى عن اسـمى وماذا أفعل أنـا هنا ـ فقلت له انى رسـام حضرت لأقضى اجازتى فى هـذه البقعة الجميلة • وبدأ يحدثنى فى اطمئنان ـ دخلت الخيمة بعد الاستئذان طبعا ـ لكى أحضر « الترموس » لاحضـار المـاء فادهشنى انه تطوع ليقوم بهذه المهمة بدلا منى ـ واستمرت

علاقتى بل قل صداقتى مع « دافيد » David طوال الأيام التى أمضيتها هناك .. يحضر فى الصباح لتبادل التحية وبعض الكلمات ويحضر لى المساء ثم يذهب بعد قليل ، ولم أعرف عنه أكثر من انه يقطن مع عائلته فى مكان غير بعيد .

انتهت الاجازة وحزمت خيمتى وأمتعتى وحملتها على ظهرى وذهبنا جميعا عائدين الى لندن ، وقد حققت أنا أكثر من فائدة فى هذه الرحلة : الخلوة والتأمل .. كتاب يدعو الى التفكير والتأمل .. مزاولة الرسم لتحقيق الفورم بالتظليل الباتى .. ثم الوفر الكبير الذى حققته من استعمالى الخيمة فلم أصرف من النقود فى هذه الرحلة الا أقل من نصف ما صرفه زملائى علما بأنى حملت عليه ثمن الخيمة والمعدات .

عدنا الى لندن بعد رحلتين ممتعتين : الأولى الى باريس .. ثم الثانية الى اسكتلندة ـ وبقيت معى نقود كثيرة متوفرة ـ وخصوصا وأن الفترة الدراسية المقبلة ستكون مجانية وقد فزت بالجائزة من أكاديمية أوزنفانت .

فى الطريق قال لى سعد انه يريد تغيير سكنه ، وأنه كان قد وجد سكنا رائعا قريبا منا نحن الثلاثة وهو عبارة عن حجرة كبيرة تزيد على ثمانية أمتار طولا وستة آمتار عرضا مفروشة فرشا جميلا بسريرين تخفيهما ستارة جميلة ويجاور السريرين حوض للغسيل فى دولاب جميل « موبيليا » .. وان الحجرة بها مدفأة كبيرة عليها ساعة أثرية قديمة داخل فانوس زجاجى .. وان الحجرة تطل على حديقة من خلال شباك كبير بعرض الحجرة Bawindaw ولها حديقة زجاجية صغيرة مليئة بأصص الزرع والزهور .

أخذ يصف لى الحجرة وهو يأسف لأن ايجارها مرتفع وان

مرتبه لا يحتمل هـذا الايجار خصوصا وان الايجار لا يشمل أية خدمات أخرى سوى الحجرة فقط ــ فسألته كم ايجـارها فقـال ٢ جنيه و ٢ شلن أسبوعيا غير ثمن غاز المدفـأة والذى سيتكلف كثيرا لكبر حجم الحجرة ــ وسألنى لمـاذا لا نعود ونسكن سويا وخصوصا وان حالتى المـالية قد تحسنت نوعا بجائزة المجانية أولا وبوصـول النقود المتأخرة من مصر وانتظام وصولها بعد ذلك • وقد كان وصف سعد للغرفة مشوقا فقلت له لنذهب لنرى الغرفة سـويا ولنعرف اذا كانت مازالت خالية ــ فقد كانت خالية كما ذكر لى قبل سفرنا الى اسكتلندة مباشرة • وفعلا ذهبنا لمشاهدة الحجرة ووجدناها مازالت خالية • وصاحبها رجل اسكتلندى فى غاية الطيبة والذكاء فى نفس الوقت • وللأول وهلة أعجبتنى الغرفة وقررت مشاركة سعد فيهـا ، وان اتساعهـا ليعطينا فرصـة مزاولة الرسـم فيها اذا شـئنا نحن الاثنين معا •

وفعلا أجرنا الحجرة على الفور ونقلنا حاجياتنا اليها ــ والواقع ان أصحاب المنزل الاسكتلنديين كانوا فخورين بالحجرة وأعطوها كل العناية من فرش وموبيليا وسجاد ونظافة تامة • سـعدنا أنـا وسـعد بالحجرة ونظافتها واتساعها وخصوصا الكرسيين (فوتيل) المريحين للغاية على جانبى المدفـأة التى كنا نتناوب وضـع الشلن فيها كلمـا انتهى مفعول الشلن الأول • وسارت الأمور هكذا وكنا نحضر طعامنا بأنفسنا وكثيرا ما كان يشاركنا حامد سعيد فى طعامنا وهو دائما شىء سهل تحضيره فى وقت قصير •

انتهت الأجازة وذهب سعد الى مدرسته وذهبت أنا وحامد سعيد الى آكاديمية أوزنفانت ــ وكان سعد يستفسر منى دائما عما اتعلمه من أوزنفانت وكان يرى أعمـالى تتقدم عنه ــ وبدأ هو يرسـم فى البيت •

كان لسعد الخادم خيال حافل كما عرفته فى المدرسة السعيدية ــ وبدأ يمارس شيئا من هذا فى رسومه بالمنزل ــ وكان دائم الشكوى من مدرسة تشلسى ــ ان التعليم فيها يتبع منهاجا أكاديميا ميتا ــ واذا كان هذا المنهاج لم يناسبنى أنا فهو من باب أولى لا يناسب خيال سعد الخصب بتصوراته الخرافية والاسطورية التى كان يبدع فيها • وفعلا تعقد سعد من المدرسة تماما وخصوصا وقد فشل فى الامتحان ، وأن تقارير المدرسة التى كانت ترسل الى البعثات كانت سيئة وكادت تهدد بقاءه فى البعثة حتى أنه ذهب الى مدير المدرسة ويليمسون وقال له ان هذه التقارير تسىء اليه وانها ربما تتسبب فى فقدانه المنحة وانه من جانبه سيعمل كل ما فى وسعه للتقدم المطلوب فى العمل ــ ولكن رد المدير كما ذكره لى سعد شخصيا كان قاسيا اذ قال له انه اذا بذل كل ما فى وسعه فلن يجدى شيئا لأن قدراته أقل من المستوى المطلوب • ان هذا الرأى لا يقلل من موهبة سعد ولا من قدراته وان دل على شىء فهو يدل على قصر نظر مدير المدرسة ويليمسون وقال له ان هذه التقارير تسىء اليه وأنها هدف واحد أن يخلقوا من الطالب شخصية تجيد الرسم بمعنى المهارة فى نقل الطبيعة حرفا بحرف أو بمعنى أصح اعطاء صورة هى أقرب ما يكون مما تصوره عدسة الكاميرا من الطبيعة بطريقة خادعة وكلما زادت مهارة الرسام فى الخداع بهذه الطريقة صفق له هذا النوع من الأساتذة • وللأسف الشديد أن بعضا من أساتذتى تشلسى هم من الفنانين المرموقين وعلى رأسهم كان هنرى مور ، جراهام سزرلاند وغيرهم••ولكن كانت غاية المدرسة فى تخريج الطلبة ليتجتازوا الامتحان أولا وذلك لاجادتهم « شبه » الطبيعة ولا أقول الطبيعة • انهم كانوا ينقلون ما يقع على الشىء المرسوم من ظل ونور ــ وهذا كل شىء وما فيه ما يمس الطبيعة فى أعماقها ولا يمس أى فهم لها على

الاطلاق • وسيأتى فى السياق رأى أكبر فنان نحات فى العالم أجمع فى حقبتنا هذه فى تدريس الفن ألا وهو هنرى مور •

لقد حزنت لسعد ـ انه فنـان موهوب لم يفهمه أسـاتذته فى تشلسى ـ وقد بدأ يتململ تماما وقد كتب الى البعثـات لتحويـل دراسته الى دراسة مع فنان مرموق وقد اختار هنرى مور بالذات ـ ولو أن هنرى مور ليس هو الفنان الذى ينبغى لسعد اختياره أسـتاذا ومرشدا فهو بعيد كل البعد عن خط سعد فى التصوير • وسعد بطبيعته بعيد عن النحتية وخط هنرى مور فى الفن ـ وقد رفض الطرفان طلب سعد • هنرى مور ليس عنده استوديو أو أكاويمية خاصـة ولا يقبل طلابا • والبعثات تود من سعد أن يحصل على الشهادة التى أرسل الى تشلسى لنيلها ـ وهذه الشهادة لن ينالها سعد ـ ولم ينلها فعلا ـ وقد تعقد سعد تماما من هـذا الموقف العجيب •• وزاد الطين بلة •• صلته بحامد سعيد ، فى تلك اللحظة ، اذ ساءت لقسوة حامد سعيد فى نقده لسعد ـ حتى اننى شعرت بان حامد سعيد يتعمد محو شخصية سعد الخادم تماما •• وقد كنت حاضرا فى أكثر من جلسـة فى نقد حامد لسعد للخادم •

وقد زاد هذا من تعقد سعد تماما • وقد شعرت بسوء الموقف وان سعد فنان موهوب ولا ينبغى لأحد مهما كان أن ينتقص من مواهبه بهذا الشكل القاسى • ذهبت الى حامد سعيد فى حجرته ولم يكن معه أحد وفتحت موضوع سعد الخادم والقسوة التى عامل بهـا سعد فى نقده اياه •• فكان رده عجيبا بالنسبة لى •• قال انه أراد أن يعود به الى الصفر ليبدأ من جديد وان ينسى ماضيه الرومانسى ليطرق طريقا أكثر عمقا وأكثر جدية سـواء فى الرسم أو فى اختيار الكتب أو منهاج الحيـاة •

فقلت له فى انفعال : بأن هذا ليس من حق أحد ، وأنه يقوم بالهدم بينما يحتـاج سعد فى هذه اللحظة الى البناء ، وكان الأجدر

به أن يكشف عن جوانب سعد الفنية الخلاقـة ويساعده اذا أراد على تنميتها على طريقة سعد وليس على طريقة حامد سعيد • وكنت منفعلا فى كلامى وقد أخذتنى حمية للدفاع عن سعد الذى عرفته عن قرب سنوات طويلة •

وتركت حامد سعيد وخرجت الى منزلنا وأنـا عازم تماما على مساعدة سعد على الخروج من حالته النفسية هذه •• ولم أنس بعد كيف أنقذنى هو من حياة اللهو التى كنت قد بدأتها فى الشـهور الأولى من حضورنا الى لندن • لقد انقطعت أنـا وسعد عن زيـارة حامد سعيد فى بيته ــ وكنت اقابله كل يوم فى الأكاديمية بالطبع ولم يدر بيننا أى حديث عن سعد الخادم فى الأيام الأولى بعد مقابلتى اياه وتلك المناقشة الحـادة التى دارت بيننا •• ومن جانبى بدأت أعالج الموقف مع سعد بالصبر والاناة والاعجاب الحقيقى بما كان يعمله فى المنزل من رسوم بديعة بها خيال رائع ــ وكنت أقول له ان الدراسة بالمدرسة لا هـدف لها الا شحذ المهـارات وليس أية صلة بالخلق الفنى •• وان حامد سعيد قصد « مسح التختة » على حد تعبيره أى أنك تنسى ما كنت تعجب به من لوحات الرسامة « دافرنو » فى مصر وغيرها وان قراءتك تأخذ سبيلا آخر أكثر جدية ــ وهـذا طبعـا تبعا لرأيه فى الجدية ، أما أنت فلك رأى آخر ولك منابع مختلفة للثقافة وتنمية خيالك الى أبعد الحدود ، وأن مقصـد الرجل كان خيرا دائما حسب ما يرتئيه وان الخيـار لك وعليك أن تمحص آراءه وتقبل منها ما يفيدك وترفض الباقى رفضا باتا ــ وفعلا بدأ سعد يستعيد شخصيته بعد أن كان قد فقدها تماما بعد ما سمعه من مدير مدرسـة تشلسى وما سمعه من حامد سـعيد • وبعد بضعة أيام زارنا حامد سـعيد وتكلمنا فى مواضيع مختلفة ، ولكنى شـعرت بأنه ينوى المساعدة لخروج سعد من أزمته ــ وفعلا حدث هذا على مسيرة الأيام ، وخرج سعد من أزمته •

***

بدأت الدراسة فى الأكاديمية .. وكانت « برنت ايلاند » لازالت ماثلة فى مخيلتى والزلط والقواقع وما قرأته من مقال هنرى مور عن الزلطة لايزال عالقا فى ذهنى . دراستى السابقة كانت للخط بكل امكانياته الجمالية والتعبيرية على الاطلاق وما يجده ويحتويه من امتلاء للكتلة على وجه الخصوص .. وكان ما رسمته فى نهاية الفترة الدراسية السابقة بالخط وحده من يدين وأصابع القدمين مازال هو أحسن ما رسمت فى تلك الفترة .. وفكرت وأنا أصغى لتعليمات أوزنفانت لمن كانوا يرسمون بالألوان الزيتية ان استفيد أنا الآخر من هذه التعليمات مباشرة وذلك بمعالجتى الرسم بالألوان الزيتية والتى كنت أعتقد بأنها مآلى فى المستقبل .. وفعلا بدأت التنفيذ فنقلت الرسم الخطى لليدين وأصابع القدمين الى الكنفاش طبقا لتعليمات أوزنفانت التى كنت اسمعها فى طريقة « شف » الرسم ونقله الى « الكنفاش » وكانت تتلخص فى عدم استعمال « ورق الكربون » الذى يترك أثرا باللون الأزرق أو الأسود والذى لايحتاج اليه الرسام ويضطر الى تغطيته بلون آخر بألوان الزيت ـ وهو ينصح بدهان الورقة الشفافة بعد نقل الرسم عليها بالقلم الرصاص بلون يناسب اللون أو الألوان الزيتية التى سيستعملها ويكون الدهان بألوان الزيت حيث أنها ستذوب فى النهاية مع الألوان الأخرى فهى من نفس مادتها بعكس ورق الكربون الذى سيظل ظاهرا الى حد ما تحت الألوان الزيتية .. لقد نفذت هذه الخطوة بدقة ونقلت الرسم بلون وردى على « الكنفاش » ثم احضرت صندوق الألوان الذى كنت قد اشتريته منذ مدرسة تشلسى ولم استعمله بعد ـ ولما لم يكن عندى أية قطع من القماش القديم لاستعماله فى مسح الفرش فقد اشتريت مترا من قماش جديد وانتحيت ركنا فى القاعة وبدأت اخلط الألوان .

ولمحنى أوزنفانت فغاب لحظة فى مرسمه وخرج متجها نحوى وفى

يده مقص وبغير كلمـــة واحدة أخذ متر القماش الجديد وبدأ فى تقطيعه بعناية مقصـــودة ورتبها أمامى على الحامل ونطق بضع كلمات بالانجليزيـــة هـــذه المرة The Artist must have a systim « ينبغى للفنان أن يكون له نظام فى عمله » •• وكان هـــذا درسا لى فى البداية من محاولتى فى التصوير الزيتى •• وبدأت خلط الألوان ثم وضع الألوان بحساب ، وبتذكر كل تعليمات أوزنفانت التى حفظتهـــا مما كان يدلى بها لزملاء آخرين ـــ وأولها ان الفرشاة وسيلة لنقل اللون من الباليته الى « الكنفاش » ووضعه فى موضعه ليس الا ـــ وان أية محاولة لكحت اللون أو سحبه فى اتجاهات عدة بالفرشاة سيتسبب فى فقدان اللون طلاوته ، كما أن عمليـــة بناء الفورم باللون ستفقد الكثير •• حفظت هذا عنه وحاولت تطبيقه ـــ وانتهيت من « تلوين » وكلمة تلوين مقصودة هنا •• فالعملية كما فهمت فيما بعد كانت مجرد تلوين الرسم الناجح الذى رسمته بنجاح تام بالقلم الرصاص •

وجاء موعد التنفيذ •• وقف أوزنفانت وقد التف حوله جميع الزملاء ليسمعوا كلامه ـــ وكانت وقفته الطويلة هذه المرة أمام لوحتى الملونة ـــ ونطق ببضع كلمات بالفرنسية وقامت السكرتيرة بترجمتهـــا حرفيا الى الانجليزية وهى :

« هذا الولد يرسم بالقلم الرصاص كالملاك

ولكنه يرسم بالألوان كالخنزير الصغير » •

Le garcon dessine comme un ange et pint comme un. petit cochon.

وكنت قد فهمت الكلام بالفرنسية فقد كان واضحا ، ولكنى تعللت بأن أكون مخطئـــا فى فهمى وأن الترجمة ستغير منه ـــ ولكن الترجمة كانت مطابقة تماما !

أحمر وجهى وصعد الدم فى رأسى ولم أعد أسمع بقية الشرح

والتعليق ولقد عرفت فيما بعد أنه حاول أن يخفف من حدة نقده بأنها
المحاولة الأولى ... الخ .

ذهبت الى المنزل حزينا لاخفاقى فى المحـاولة الأولى لاستعمال
الألوان ــ وبدأت أفكر فيما قاله أوزنفانت .. وقد استمر وقع كلماته
فى مخيلتى فترات طويلة .

لم أعد الى محاولة التصوير بالزيت طوال دراستى مع أوزنفانت،
وعدت الى القلم الرصـاص فكنت أسعد حالا ، وبدأت العمل بحماس
أنسانى التصوير الزيتى تماما .

***

كانت « زلطة » ــ « برنت ايلاند » حاضرة فى فكرى دائما وكان رأس ــ « جودا » السومبرى لا يبرح مخيلتى و « الكاتب القاعد القرفصاء » المصرى من العهد القديم يبرز فى بساطة « الكاتب » ولكن فى عظمة الملوك الالهة ، وتلك النظرة الى الأفق البعيد الى المـــاوراء ــ الى المقدس ــ تعلو كل شىء دنيوى . والقيم النحتية والمعمارية تبرز فى كل ضربة ازميل من يد ذلك الفنان الصـــانع الذى لم يبخل بجهد على الرأس والأكتاف والصـــدر .. وقد لا يصدق ذلك تماما عند معالجته للأرجل . كانت هذه قمما اختزنتها تجربتى الخاصـــة ــ مع قيمها الفنية والحضارية والروحية ــ فى فكرى وعقلى بل فى كيانى كله .

بدأت العمل وقد اخترت ساقا ــ بل جزءا من ساق الموديل وكان رجلا .. وكان اتصال الساق من عند الركبة بسمانة الرجل ــ وذلك من الخلف ــ حافزا لى على تحقيق هـــذه الكتل واتصالها مع بعض فى تنسيق قوى لا يشذ عن الطبيعة ، ولكنه يقويها ويعطيها معنى أكثر تعبيرا من حقيقتها .. الخط الذى جذب انتباهى طويلا والذى انفقت شهورا طويلة فى دراسته كخط جميل فى ذاته ، وكخط له أكثر من

وظيفة فى وصفه للكتلة المحدودة به •• هـذا الخط بدأ يتلاشى الآن تماما من رسومى •• الخط أصبح نهاية السطح فى انحناءاته ـ هو جزء لا يتجزأ من سطح الكتلة ـ ان القلم كان يبدأ من داخل الكتلة •• من قلبها ويسير فى عملية بناء وليس مجرد رسم وصفى •• عملية بناء حقيقية •• كان القلم كالازميل فى يدى يضرب فى الموقع الملائم ليصنع ويشكل لبنة فى بناء الكتلة •• وأصبح الرسم بالقلم كازميل النحات تماما ينحت ويجوف ويبرز كل الفجوات والنتؤات واصفا السطح المستمر فى تغليفه لتلك الانحنـاءات ، جاهدا فى تحقيق قيم نحتيـة ومعمارية ما أمكن ذلك •• هـذا العمل •• « جزء من ساق رجل » لايزال عندى حتى اليوم أحتفظ به ـ لأنى تعلمت منه الكثير •

ومن هذا المنطلق بدأت صفحة جديدة باركها أوزنفانت بحماس مشجع •• حتى انى خرجت فى ذاك اليوم الذى نلت فيه مديحا من أوزنفانت ـ خرجت الى الشارع فى وقت الراحة أنعم بدفء الشمس الساطعة خارج المرسم • والواقع أننى ما شـعرت بنفسى وأنـا ادندن بنغم بصـوت خافت ـ الا وكان حامـد سـعيد يقف ورائى وهو يبتسم ـ وقال : فعلا يا راتب انها خطوة طيبة التى عملتها وقد كان أوزنفانت محقـا فى مديحك اليوم وانى أراك مغتبطـا مدندنا •• لك حق •

واستمر عملى فى الأكاديمية يتقدم ـ وكان التركيز يزداد والقيمة تزداد أربعة أصابع قدم فقط •• دراسـة للفورم ومعمارية فى الأصبع والظفر •• دراسـة لعين واحدة •• تجويف معمارى يشبه الكهف يتوجه حاجب ينساب فوقه فى تؤدة وانسجام ، ثم الجفنان وقد حسـما فيما بينهما بيضـة أودعت بعناية فى ذلك التجويف الكهفى وقد انشق الجفنان عن جسم العين الزجاجى •• وفى وسطه حدقة توسطت جسم العين •• وكل تلك المنحنيات من قوس الحاجب الى تقوس التجويف

الذى جثمت فيه العين وقد تقوست الجفون فى ترديد عكسى ..
واستدارت الحدقة لتكمل هذا الترديد المعمارى الموسيقى الجميل ..
كل هذا كنت أراه فى العين وأحس به تماما ، وكانت هى الرؤية
الصادقة للطبيعة ـ كما أعتقد . ولكن الى أى حد نجحت فى تحقيق
هذه الرؤية .. لا أعرف .. ولكن كنت أشعر فى كل محاولة أننى
أحقق شيئا من هذه الرؤية ـ وعلى كل حال كانت هذه الرؤية النحتية
المعمارية هى التى كانت تقود خطاى دائما فى تلك المرحلة التى عشتها
مع الموديل الحى .. مع الطبيعة الحية فى أكاديسية أوزنفانت .

كان عملى يسير ببطء ، ولكن فى الطريق الصحيح .. وكانت
الرؤية تعمق يوما عن يوم . وكان أوزنفانت يصدق على اعتقادى هذا
بتعليقاته الطيبة والمشجعة .. كان عملى فى فن الرسم فى أكاديمية
أوزنفانت يسير الى الأحسن وادراكى للقيم الفنية يزداد عمقا
واتساعا ـ كما أن نظرتى للطبيعة أصبحت تتسم بالبحث والتأمل
واكتشاف ما هو غير ظاهر .. اكتشاف القانون الرياضى الذى يحكم
كل جزء فى الطبيعة ـ سواء فى الانسان أو النبات أو الحيوانات ـ
هكذا كانت دراستى تتحول الى دراسة أكثر جدية مما كنت أتوقع
عندما التحقت بأكاديمية أوزنفانت .

كانت أحاديث أوزنفانت فى نقده للدارسين تنصب على المبادىء
وعلى القوانين العامة فكانت أشبه بمحاضرة نبعت أسسها وبنودها من
حالات خاصة فى رسوم الدارسين . وكان لهذه الأحاديث أثر كبير فى
نمو تفكيرى .. وكنت كلما ذهبت الى البيت بعد الدراسة ،كنت
أمحص ما سمعت من أوزنفانت . لم أكن أقبل كل ما يقول على علاته
بالرغم من قلة خبراتى فى ذاك الحين ، وأن سنى الثقافة لم تكد تبلغ
الحلم بعد ، ولكن ساعد على هذا النمو قراءاتى المستمرة الجادة
وزياراتى للمتاحف وصداقاتى الكثيرة للأعمال الفنية الممتازة ..

كما كان للموسيقى الرفيعة دورها بلاشك .. حيث كانت القطع المنتازة التى اخترتها ــ تسمع عشرات المرات وفى كل يوم ، حتى أعيشها بكيانى ، فهى عامل كبير فى التثقيف .. فى تثقيفى بالذات . كما كانت سياحاتى فى المتاحف لاكتشاف أصدقاء جدد من الأعمال الجادة ــ عاملا آخر له نفس الأهمية ــ بل ربما أكثر من الموسيقى . تعرفت فى المتحف الأهلى على « جورجيونى » من مدرسة البندقية الايطالية ــ لفت نظرى برومانسيته الشاعرية فى اضفاء جو من الشاعرية برسم « الهواء » Atmosphere نعم رسم الهواء الذى يسبح فيه الأشخاص ويتخلل كل أجزاء الصور . نعم انه كان يشعرك بوجود الهواء الذى يضفى على أشخاصه المرسومة جوا مليئا بالرقة والنعومة يحيط بهم ويغلفهم .

ثم تعرفت على زميله ــ (تشيانو) ــ من نفس مدرسة البندقية ــ بل ان الاثنين وثالثهم ــ (تنتوريتو) ــ قد درسوا على أستاذ واحد هو الفنان القدير « جيوفانى بللينى » ــ وهو بلاشك فنان كبير .. ولكن كما قال « ليناردو دافنشى » « ويل للتلميذ الذى لا يتفوق على أستاذه » ــ هذا العملاق تشيانو تفوق على أستاذه .. بل تفوق على مدرسة البندقية بأسرها .

لقد عشت مع هذا العملاق شهورا طويلة فى المتحف الأهلى بلندن ، وعشت معه بعد ذلك لسنين طويلة فى البندقية فى « الأكاديمية » وفى الكنائس . بل بحثت عن أعماله الأخرى فى المتاحف خارج ايطاليا وخارج انجلترا ، واشتريت كل ما استطعت من كتب ونسخ فوتوغرافية .. وقرأت عنه .. قرأت ما كتبه « الى فور » العظيم Elie Faure عن هذا العملاق الذى وصل فى لوحته « المسيح يتوج بالشوك » ــ ثم ال « بيتا » Pietta فى أكاديمية البندقية (والتى أكملها فنان آخر بعد وفاته) ــ وصل الى أروع ما وصل

اليه مصـــور آخر فى أى زمـــان أو مكان ــ (اذا استثنينا رمبرانت العظيم) ــ لقد ظل هذا العملاق يصور حتى سن ٩٩ سنة ــ وكان هذا درسا لى . استمر يرسم حتى سقطت الفرشاة من يده .

فنان آخر تعرفت عليه من خلال لوحة له فى المتحف الأهـــلى « العذراء والطفل » كانت معالجة هــذا الفنان للعذراء و « الطرحة » التى تدلت على جبينها سمة معمارية وحسا بالكبر والسعة واللامحدودية Graudeur .. فسعيت الى معرفة المزيد عنه وعن بقية أعماله وأين توجد ــ انه الفنان الايطـــالى الذى مات ولم يكمل الـ ٢٥ عاما ــ « مزاشيو » Massachio كان يدرس معنا زميل ايطـــالى ــ ريكاردو بريولى Richardo Prioli وكان يزعم بأن نسبه يرتقى الى عائلة Prioli التى قـــام رسامو عصر النهضـــة برسم عاهلها . كان انسانا طيبا رقيقا وكانت له أخت تعيش فى لندن هى أســتاذة اللغة الايطالية فى الجامعة ــ وقد استفسرت منه عن أعمال مازاتشيو فقال انه سيبعث الى ايطاليا لاحضـــار فوتوغرافيا من أعمال هـــذا الفنان حيث ان أعماله قليلة وهى محصورة تقريبا فى كنيسة صغيرة فى فلورنســا .

وفعلا احضر عدة فوتوغرافيات «للفريسكو » فى تلك الكنيســة التى صورها مازاتشيو . كان لهذا الفنان أثر كبير فى نفسى ــ وقد كان لأشخاصه هيبة أسطورية وسعة وكبر فى نظرة الفنان ، وكدت لا أصدق ان هــذا الفنان الذى مات ولم يتعد الخامســة والعشرين من عمره قد حقق ما لم يحققه غيره وقد ناهز المــائة من عمره . ان أعمال مازاتشيو على قدر اعجابى الشديد بها على قدر ما كان تأثير ما حققه هــذا الفنان فى ذاك العمر داعيا ليأسى ، اننا لم نعرف شـــيئا عن الفن ولم نمسك بفرشاة الا وقد بلغنا العشرين فكيف يمكن لنا أن نحقق (١ : ١٠٠٠) مما حققه هــذا العملاق وهو لم يتعد الخامسة

والعشرين — ان دراستنا للفن — كما هى الآن فى مصر وفى معظم بلاد العالم — كانت تبدأ بعد اتمام الدراسة الثانوية أى حوالى سن العشرين .. أما فى ذاك العهد .. عهد مازاتشيو ومن سبقوه ومن جاءوا بعده — كانت دراستهم تبدأ قبل بلوغهم العاشرة . كان الطفل اذا أظهر ميلا لفن الرسم أرسله أبوه الى أستاذ له شهرته يتتلمذ عليه السنين الطوال .. فكان يعمل مع الأستاذ أشياء قد تبدو تافهة من تحضير الكنفاش الى غسيل الفرش وغيرها من العمليات التى ينبغى للصبى أن يتعلمها قبل أن يمسك الفرشاة ليساعد الأستاذ فى ملء فراغ باللون فى خلفية صورة من صوره .. وهكذا ينشأ الصبى فى مرسم الأستاذ يشرب من فنه وأسلوبه وحياته وثقافته حتى يشب عن الطوق ويسمح له بالعمل مستقلا .

والويل للتلميذ الذى لا يتفوق على أستاذه كما قال « ليوناردو دافنشى » . ولم يكن هذا النظام معمولا به فى أوروبا وحسب بل بدأ فى مصر القديمة والصين والهند ومعظم البلاد الآسيوية .

ينبغى لنا أن نفكر جديا فى هذه الحالة التى وصلنا اليها الآن .. ان مدارس الفن — ليس فى مصر وحدها ولكن فى أنحاء كثيرة من العالم — أصبحت مفسدة وهادرة لكل القيم الجمالية الحقيقية .. وقد طغت الفردية والذاتية على الفن فى حقبتنا هذه حتى لم يبق منه الا الفتات .. وان رحلة الفن والفنانين تسير الآن بالعرض ، تتسع رقعتها وتزيد فى الاتساع .. ولكن لاشىء الى أعلى .. لاشىء فى العمق . كلا .. ربما يقول قائل ان هذا الاتساع مفيد وأنه كلما اتسعت قاعدة الهرم أمكن للقمة أن ترتفع أكثر وأكثر .. أرجو ذلك .. وربما رأينا قمما فى القرن الواحد والعشرين تناطح ما سبقها من قمم .. على كل حال لقد كنت محظوظا اذ أمكننى أن أجد أستاذا أتتلمذ عليه .. ولكن جاء هذا متأخرا جدا .. هل يكفى أن أتتلمذ

وأنـا فى سـن العشرين لمـدة عامين أو ثلاثـة مع أسـتاذ كبير مثل أوزنفانت •••• ؟ كنت أتمنى لو بدأت حياة التلمذة الفنية وأنـا لم أتجاوز العاشرة •• ربما كانت الفرصـة أكبر مما هى الآن لتكوين الشخصية مبكرا ، وبالتالى الوصـول الى طبقات أعلى •

ان الفن التشكيلى بالذات ـ بخلاف معظم الفنون الأخرى ـ يحتـاج الى وقت طويل لتكتمـل الخبرة ، وللسيطرة على مشـاكل الأدوات •• ثم السيطرة على اللغة نفسها ـ لغة التشكيل ـ التى تحتاج فى رأيى الى العمر كله وليس لبضع سـنوات دراسة •• ان السيطرة على اللغة •• ثم التحقيق المتكامل لذات الفنان ، لايمكن أن يحدث فى سن مبكرة مثل ما يحدث فى الموسيقى والأدب••وطبعا هناك شواذ مثل (ماساتشيو ورافائيل) •• ولكن لايمكن مقارنة هؤلاء بعبقرية بعض الموسيقيين العباقرة مثل موزارت الذى ظهرت عبقريته وهو لم يتخط العاشرة •

ربما يقال ان فن الطفل له قيمته ، وهو فن تحقق قيمه من أطفال فى سن الخامسة •• ان الفن التلقائى للطفل شىء •• والفن الواعى شىء آخر •• وان القيم فى فن الطفل تأتى بانفعال غريزى تلقـائى •• ولم ترق تلك القيم الى تلك التى أعطاها لنا فن الكبار الواعى •• وحتى هـذه القيمة لفن الطفل تنتهى كما أثبتت التجارب ـ عند سن المراهقة •• ولذلك أقول بأن الفن التشكيلى يحتـاج الى العمر كله لكى تتحقق القيمة على المستوى الرفيع ـ وينبغى لنا أن نفكر جديا فى تدبير أسـلوب لتعليم الفن التشكيلى للأطفـال الموهوبين فى سن مبكرة • وكمـا هو حاصـل الآن فى « الكنسرفتوار » فى مصر ـ فهم يقبلون الطلبة الموهوبين فى الموسيقى ليدرسوا الموسيقى بشكل مركز مع بقيـة العلوم الأخرى طبقا لمناهج التعليم العـام • ويمكن تطبيق هـذا النظـام على الموهوبين فى فن الرسم ليدرسـوا

الرسم بشكل مركز على يد أساتذة وصلوا فى فنهم الى مستوى الأساتذة ، لكى نخلق جيلا من الفنانين التشكيليين الذين تستمر رعاية الدولة لهم حتى النهاية .

وفى الجانب الآخر ـ ينبغى العناية بالطفل فى جميع مراحل التعليم ، وذلك بتثقيفه تشكيليا ــ ووصله بالأعمال الفنية حتى يستطيع تذوقها . ونحن فى مصر نعانى الكثير من الأمية التشكيلية فضلا على أمية القراءة والكتابة .

والفنان التشكيلى لا يرتفع انتاجه وعطاؤه الفنى الا اذا كان وراءه قاعدة عريضة من المتذوقين للفن التشكيلى .. بل لابد له من شعب بأسره يسرى فى عروقه حبه للفن على العموم ، وتذوقه للفن التشكيلى على الخصوص .

لقد ظل عملى الفنى يسير قدما ــ ولكن لم يكن الطريق سهلا ــ فكانت فى الطريق معاناة ومعاناة ، وفشل يعقبه نجاح ــ ونجاح يعقبه فشل .. بل كان اليأس ينتابنى فى بعض الحالات وانزوى فى بيتى . وألتهم الكتب التهاما ، هربا من الأكاديمية ومواجهة الفشل ، بل ومواجهة أوزنفانت الذى أصبح تقديره لى على درجة طيبة والذى أطلق علينا أنا وحامد سعيد أعمدة الأكاديمية The Pillars of the Accadimy وكان لهذه التسمية أكثر من دلالة ، حيث اننا لم ننقطع عن الدراسة أبدا الا فيما ندر ــ وثانيا لأننا كنا نأخذ عملنا بجدية تامة ــ وكان التقدم الراسخ المستمر فى أعمالنا واضحا .

انصب اهتمامى على القراءة سواء عندما أشعر بأننى فشلت فى أحد رسومى فكنت أعوض هذا الفشل فى عملية استقبال من الكتب ومن المتاحف ، وهى أخف وطأة وأقل عناء من عملية العطاء التى كانت كلها معاناة .. وكنت أنحو فى قراءاتى فى حالات الاسترخاء

ـ من العطاء الفنى الى القراءة السهلة ـ وهـذه القراءة السـهلة كانت تعنى بالنسبة لى تراجم الشخصيات المهمة (السير) أو قصصا من الأدب الرفيع الروسى والفرنسى والانجليزى •• وكان للروس مكانة كبيرة فى اعتبارى •

وقد وقع فى يدى كتاب عن حياة « غاندى » الزعيم الهندى ـ وكان قد زار انجلترا فى آونة سابقة وهو فى زيه البسيط جدا وفى تقشفه الذى عرف عنه • وقد قـابل أعلى رؤوس فى الامبراطوريـة البريطانية ـ وهو فى هـذا الزى • قرأت حياة غاندى وكان الكتاب مشوقا للغاية ـ ولم أتركه الا وقد أتممت قراءته ـ وقد توقفت مرات كثيرة أتأمل بعض الأحداث المثيرة التى أهاجت فى كوامن نفسيه ، وكانت كلها تدور حول الايمان بالمبدأ والهدى ، والارادة القوية ، ومقاومة الظلم ، والدفاع عن الحق بلا عنف ، بل بالحب •

فى بدايـة حيـاة غاندى وعند عودتـه من دراسـته للقـانون بانجلترا ـ وقد عاد الى الهند ليعمل بالمحاماة ـ قامت قضية اضطهاد الهنود فى جنوب افريقيا ـ وقد دعى للدفاع عن هذه القضية ـ وبعد تردد لم يدم الا قليلا قرر السفر الى جنوب افريقيا للقيـام بالمهمة • فرتب كل شيء واشترى تذكرة سفر بالقطار بالدرجة الأولى • ثم ركب القطار فعلا وأخذ مكانه المحجوز مقدما بديوان بالدرجة الأولى ، وما كاد القطار يتحرك الا ودخل الديوان رجل ضخم الجثة أبيض أحمر الشعر ••• انجليزى بالطبع من المستعمرين « الأسياد » •• وقد تململ عند رؤيته للهندى « الحقير » الذى جلس أمامه فى الديوان بالدرجة الأولى • وبعد برهة قال الانجليزى بغطرسـة واضحة ـ ان هذا الديوان خصص للبيض فقط وان مكان الهنود فى درجات أدنى ، ولا يحق للهندى أن يركب فى الدرجـة الأولى أبدا ، وان الهندى ينبغى له أن يرحل فورا الى مكان آخر بالقطار فى درجة أدنى • ورد

عليه غاندى فى ثبات وهدوء تامين • انه مواطن هندى وقد دفع ثمن تذكرة بالدرجة الأولى وحجز مكانا فى هـذا الديوان بالذات وان هذا المكان هو مكانه وأن من حقه أن يظل فيه حتى يبلغ غايته •• واستشاط الانجليزى غضـبا « على غـير المعهود فيهم » ــ أعنى الانجليز ــ ولكنهم هم هنا فى غير بلدهم ، كل شىء يتغير فيهم • هم هنا أسياد • • وانه لمن الوقاحة أن يخاطبهم أهـل البلد بهـذه الطريقة وينكروا عليهم رغباتهم • فأعاد الانجليزى أمره الى غاندى بالرحيل فورا الى درجة أدنى ، وكانت لهجته فى هـذه المرة غاضبة . فاجابه غاندى بنفس الهدوء والثبات بأنه يعرف القـانون جيدا وليس من حق أى أحـد أن يزحزحه من مكانه • فما كان من « السـيد » الانجليزى الا أن انقض على غاندى ينهـال عليـه بالضرب والركل وينتزعه انتزاعا من مقعده ليقذف به خارج الديوان •

تشبث غاندى بكل ما أوتى من قوة بمقعده ، بكل جزء يمكنـه التشبث به •• قـاوم العنف بالتمسـك بحقـه ، ولم يزده العنف الا تمسكا بحقه • ولكن غاندى الضعيف البنية بجانب ذلك « الفحل » الانجليزى ــ لم يستطع الثبات طويلا ، فتمكن الانجليزى من انتزاعه والقذف به خارج الديوان ثم أغلق الباب وجلس ينفض « الغبـار والأوساخ » التى نالته من ضرب وركل ذلك الهندى « القذر » • ثم بدأ يحشـو غليونه بالطبـاق ويشعله نافثا دخانه وهو جالس فى استرخاء فى الديوان وحده وكأن لم يحدث شىء : لم تحدث جريمـة قذرة •• لم يقع ظلم فاحش وافتراء من قادر بقوته البدنية ــ على حق ظاهر لا مراء فيه • لم يشعر بجريمته النكراء فى حق واحد من أعظم رجال العصر ، هو فى صف الأنبياء برسالته الرائعـة •• بالحب •• وبالحب وحـده يقاوم الظلم والطغيان •• وقد مر حـدث آخر من (غاندى) علق بذهنى حتى اليوم •

لقد مرضت زوجته وأوصى الطبيب بعدم تناولها الملح ــ وقد عانت الزوجــة من هــذه التوصــية وعزمت على ألا تتقيــد برأى الطبيب ــ وعلم غاندى بذلك فذكر لها أن رأى الطبيب كان لصالحها فلا داعى لعصيان أمره . فقالت لغاندى انك لا تشعر بما أعانى بتناولى الطعام بدون ملح فهو غير مستساغ بالمرة ولم تجرب أنت ذلك أبدا . فما كان من غاندى الا أن قال بكل بساطة انه لن يتناول الملح فى طعامه طوال حياته .. وقد كان .

وكان هذا مظهرا اراديا رائعا بالنسبة لى حيث ، اننى كنت أحاول فى هــذه الآونة الامتناع عن التدخين ولم أفلح ، أفلا يمكن أن يكون لى جزء من ارادة غاندى العظيم .... ؟

وكان هناك حدث آخر عظيم استعرضه الكاتب فى استفاضــة وتحضير للحدث . أعتقد أنه كان أروع ما فى الكتاب اطلاقا . لقد ظل غانــدى الزعيم الروحى للهند يبث مبــادءه وفلسفته فى شــعب الهند ــ مبادءه التى بنيت على الحب واللاعنف . ومبادءه التى انتشرت بشكل رائع فى اتباعه من جميع الفرق والملل ليس هنــاك فرق بين فرقة وأخرى . . الهنــد الموحدة هــدف كبير يحلم به ذلك الرجل العظيم .

كان غاندى يعد شعب الهند للمقاومة ــ مقاومة المستعمر ــ مقاومة بلا عنف ولا سلاح . مقاومة على أســاس من الايمان بالحق أولا ، والايمان بأن « العدو المستعمر » ليس كله شرا بل ان فيه من الخير ما يمكن الوصــول اليه عن طريق الحب وعن طريق ذلك الايمان بأن الخير موجود فى باطن ذلك « العدو » .

فى يوم مشــهود اكتملت مســيرة كبيرة تضم الآلاف ونظمت الصفوف . صف أمامى تتلوه صــفوف متراصــة كل فى موضــعه تماما وكل فى حالة نفسية رائعة من معنويات لا تسمح بأى خلل فى التنظيم النفسى والارادى الرائع الذى بذل غاندى السـنين الطوال

للاعداد له • بدأت المسـيرة تزحف •• وتزحف لايمانهـا بحقها فى التحرر •• وفى نظام رائع تتقدم •• تتقدم نحو ماذا •• تتقدم نحو صفوف أخرى متراصـة من الجنود الانجليز المستعمرين الذين أمروا بوقف هـذا الزحف مهما كان الثمن •• أمروا بوقف هذا الزحف بالنار •• بالرصـاص بالقتل •• بكل وسيلة •• انه الحقد اشعلته تلك المسيرة المقدسـة تطالب بحقها فى الحياة الحرة الكريمة •• تقدمت المسيرة حتى أصبحت فى مواجهة الانجليز وقد شرعوا بنادقهم استعدادا لاطـلاق النار فورا لدى تقدم آخر •• ونادوا على المسـيرة بالتوقف والرجوع الى حيث جاءت والا أفنوها عن آخرها •• ولكن المسيرة ظلت تتقدم وتتقدم • وينادى بعض أفرادها على الجنود الانجليز بأنهم جاءوا يطلبون حقهم فى الحرية وأنهم لا يكرهون الانجليز ، وانهم جاءوا مسالمين وأن سـلاحهم الوحيد هو ايمانهم بحقهم فى الحيـاة الحرة ، وانهم يحترمون « الانسان » تحت أى زى وفى أية بقعـة وحتى تحت زى الجندى الانجليزى المسلح الذى سيطلق الرصـاص عليهم بين لحظة وأخرى •

انهم يحترمون بل ويحبون ويقدسـون ذلك الجزء الانسانى الخير الذى يكمن فى كل البشر مهما كانوا ومهما استحوذ عليهم الشر فى بعض لحظات حياتهم •

وكان الجواب شيئا مفزعا •••

اطلق الجنود الانجليز الذين لم يفهموا شيئا فى تلك اللحظـة سوى أمر قائدهم « اضرب » • وسقط الصف الأول من المسيرة • قتلى وجرحى الا ما ندر •• برز الصف الثانى فورا الى الأمام وظل يتقدم فى سيره نحو الجنود وهو ينادى بتلك المعـانى الرائعة التى ظل ينادى بها كل فرد فى المسيرة قولا وفعلا • انطلق الرصـاص مرة ثانية ، وسقط الصف الثانى • ولكن تقدم الصف الثالث الى الأمام•• الى الأمام الى الموت •• الى الشهادة فى سبيل الحق والمبدأ •

وهنا وفى تلك اللحظة وقد شـاهد الجنود الانجليز ما حـدث وما يحدث وهم لا يصدقون أعينهم • القتلى يتساقطون بالعشرات تحت رصاصهم القاتل ويتقدم الصف تلو الصف بايمان ثابت ليلقى مصير من تقـدم منهم • هنـا تسمرت أيدى الجنود الانجليز على زنـاد بنادقهم • لم تستطع أصابعهم أن تتحرك من هول ما رأوا ـ تلك المسيرة الرائعة التى يقتل أفرادها بالعشرات ولا يبدون أى روح انتقامية ، أو أى دفاع مسلح عن أنفسهم • انهم يتسلحون بالحب •• بالايمان •• بالايمان بأن « عدوهم » ليس شرا كله •• وأن الجزء الخير لابد أن يستجيب • وقد استجاب •• وانتصر غاندى •

بعد قراءتى لحياة غاندى ، أردت أن أعرف أكثر عن مبادىء غاندى من الناحية العملية والتحليلية ـ وقد أعارنى حامد سعيد كتابا لطيفا عن « قوة اللاعنف » Power of Non Violence وقد أعطى الكاتب أمثلة كثيرة كيف يكسب الانسان خصمه بدلا من أن يعاديه•• وقد استمتعت بهـذا الكتـاب الذى كشـف لى عن قدرات كثيرة « للاعنف » ، والتى يمكن تطبيقها فى كل لحظات حياتنا • ثم شدتنى هذه القراءات عن غاندى واللاعنف الى كتاب آخر للكاتب الروسى الكبير الذى عاصر غاندى تقريبا ، وقد كان بينهما مكاتبات على حد تذكرى ـ وقد اشتريت الكتـاب فى طبعـة رخيصـة وكان عنوانه « اعترافات ومعتقدات تولستوى » Confessions and what I belive كان لهذا الكتاب « زخم » آخر صاحب زخم غاندى ، ولكنـه تعداه لمشكلة بل لمشاكل أخرى تخص الدين • الشعور الدينى ـ والمسيحية•

لقد ولد تولستوى مسيحيا أرثوذوكسيا على دين آبائه •• وعلى حد قوله « لم يكن لى فضـل أو حق فى اختيار الدين الذى أتبعه • لقد ولدت هكذا واستمرت معتقداتى ، اتبع دين آبائى التى لم يجر أى نقاش لها من جانبى فاستسلمت لها تماما ، حتى أتى اليوم الذى بدأت فيه اناقش تلك المعتقدات » •

وعندما يبدأ تولستوى يناقش معتقداته الموروثة كان معنى هذا هو بدء الشك فى تلك المعتقدات • لقد بدأ بحثه عن الحقيقة بقراءة الأناجيل الأربعة والتوراة ، وسيرة المسيح وكل ما كتب عنه • درس قوانين الكنيسة وصلاحياتها وما تقوم به من خدمات للدين ، ولكنه لم يجد فى كل هـذا ما يشبع شـوقه الشديد للمعرفة •• لمعرفـة الحق •• لمعرفة الله • وفى مجال آخر اعتقد أنه ينبغى له أن يكون كاملا فى كل شيء : الثقافة والأدب • وقد أصبح يشار اليه بالبنان فى روسيا وخارج روسيا • اهتمامه وعنايته بالرياضـة والصيد وكل ما يمكن عمله لاكتماله جسمانيا ، ومعالجة أى قصـور فى معنوياته بدراسـة هـذا القصور والبحث عن الطريق لعلاجه وقد نجح فى كل هـذا « هكذا يقول تولستوى فى اعترافاته » ولكن كل هـذا لم يضيء له الطريق الى اشباع عطشه الشديد للمعرفة •• ترك دينه ومعتقداته الأرثوذكسية وذهب الى غيرها من شعب المسيحية ــ بل ترك المسيحية بأسرها وذهب الى دراسة الأديان المختلفة : البوذية •• الكنفوشيوسية الاسلام واليهودية •• واللاوتزية •

ولم يستطع أن يجد راحة لعقله وروحه •

استغنى عن أملاكه ومزارعه •• استغنى عن أمواله ، وعاش فى بساطة •• يفكر ويتأمل ــ وهو فى ألم مستمر •• قلق دائم •• حيرة طويلة لا تنتهى •• وهناك بعد تلك الرحلة الطويلة استنارت روحـه ووعى عقله ورأى الحقيقـة فى داخل نفسه حين قال قولته الرائعـة The Kingdom of God is within you « مملكة الله بين جنبيك » •• أو •• « الحق فى داخلك » •

وشعر تولستوى براحة بعد ان استقرت روحه بعد رحلة العذاب الطويلة • ولكن هنـاك أشياء لم يستطع البت فيها فورا •• ما هو الموقف بالنسبة للعبـادات الروتينية والكنيسة الأرثوذوكسـية التى

نشأ بها .. هـل يهجرها الى الابد .. ولكن يهجرهـا الى أين .. لا يوجد « أين » أخرى أمامه . ان رحلة الشـك هـذه ـ رحلة العذاب الطويلة التى مر بها ـ تحتاج النفس بعدها الى راحة طويلة .. الى الاستقرار والطمأنينة . ان المعتقدات التى نشأ عليهـا ما هى الا نظام مرت عليه السنون والأجيال بالصقل والتهذيب حتى أصبح له صفة الاستقرار ـ فلماذا لا يرتمى فى أحضانه مرة أخرى .. ويستريح ويريح ؟

وهكذا عاد تولستوى الى الأورثوذوكسية مرة ثانية ، ولكن هذه المرة بالوعى والتكامل مع الحق بالمعرفة .

ومن حيرة تولستوى المسيحى وتشككه فى معتقداته الموروثة .. الى حيرة أبى حامد الغزالى المسلم وتشككه فى معتقداته الموروثة .

أبو حامد الغزالى .. حجة الاسـلام وأكبر المجتهدين فى الدين بغير منازع .. هـذا الرجل لم أتشرف بمعرفته من قبل أبدا حتى وجـدت له هـذا الكتيب الصـغير المترجـم الى الانجليزيـة Confessions of gasali « اعترافات الغزالى » ويندرج هـذا فى كتابه الأصلى بعنوان « المنقذ من الضلال » .. بالعربية . هـذا الرجل الفحل كان أستاذا للدين والفقه الاسـلامى ، وكان يمارس أحاديثه ومحاضراته بحصيلة من العلم لم تكن لمثله ، ومرت عليـه تلك المحنة الكبرى ـ « محنة الشك فيما هو عليه » .. هل هو على صواب فى أخذ دينه بالوراثة .. لم يبحثه ولم يمحصـه ولم يكن له فضل فى اعتناقه واتباعه .

بدأ الشك وبدأت الحيرة فترك المعهد وترك التدريس .

ان علمـه ناقص .. ناقص .. « والطبيب الناقص لا يحسـن المعالجة . كذلك المعلم الناقص .. لا يحسن التعليم .

هجر الغزالى مهنته وهو فى أوجه كأستاذ ومعلم مرموق ، وآوى الى مكان قصى قضى فيه سنين ، وهو فى تفكر دائم وتأمل مستمر .. رحلة طويلة كلها آلام .. ومعاناة .. حتى من الله عليه بالاستنارة والمعرفة ونزل من صومعته الى الناس ثانية وعاد الى الاسلام وهو أقوى مما كان ، فقد نال ما تمنى من الاتصال والاستنارة . ولم يكن أمامه كما حدث عند تولستوى الا أن يعود الى ما ورث وما نشأ عليه .. الى دين متكامل لا يحتمل التحوير ولا التبديل .

والعجيب فى الحالين ــ حال تولستوى وحال الغزالى ــ التشابه الكبير .. عند القمة .. وعند القمة دائما تنمحى الفروق ، وعند القاعدة دائما تكثر الفروق . بعد الحيرة والشك الكبير والوصول الى المعرفة والاستنارة ، كان على تولستوى والغزالى أن يرتميا مرة ثانية فى أحضان النظام الموروث لكل منهما . ولكن الاثنين قد عرفا « حقا » واحدا ، حيث لا يوجد الا حق واحد ، فقد تماثلا بل تطابقت معرفتهم بما عرفوا . فى القمة ــ قمة الخواص وان اختلفت طريقهم .. الذى يصلح للكل ــ على اختلافهم ــ فى القاعدة .. عند العوام .

كانت قراءاتى تسير فى هذا الطريق ، والكتاب كان يستدعى كتابا آخر فى نفس الخط ، والموضوع كان يستدعى موضوعا مكملا لما سبقه . كنت أشعر أن الطريق يتحدد أمام قراءاتى ، وأن المشكلة بدأت تتكون وتتبلور داخلى . لقد قرأت القرآن بل حفظت منه أجزاء كثيرة عن ظهر قلب ، ولكنى لم أكن أفقه مما أقرأ ولا مما أحفظ حرفا واحدا . كنت اقرأه بنغمة رتيبة تشعرنى بأنى أقرأ القرآن ليس الا .

ماذا فهمت من القرآن وماذا فهمت من الدين ؟ .. لاشىء .. لقد مرت على فترات من حياتى وأنا فى سن التاسعة والعاشرة وما بعدها .. بعد موت والدتى .. وأنا أقوم بالعبادات من صلاة

وصوم بشكل روتيني ومستمر • حتى انى كنت أصلى التراويح وأقرأ الأدعية قبل النوم وعند الاستيقاظ فى الصباح ، كما كانت تعلمنى احدى جداتى التى كانت تمارس العبادة عن اقتناع كامل • ولكن لم يستمر هـذا فقد جاءت سن المراهقة فتركت كل هذا ، ولم يبق فى خاطرى منه شيء •• سـوى حفظى لبعض السور الصغيرة التى ما كانت تبرح مخيلتى أبـدا •• ومنهـا « بسـم الله الرحمن الرحيم والضحى والليل اذا سجى •• ما ودعك ربك وما قلى •• صدق الله العظيم » كانت بداية هـذه السـورة القرآنيـة تعود الى خاطرى دائما ، وكانت بقية السورة تختفى من ذاكرتى أحيانا فاستعيد قراءتها حتى تظل حاضرة معى دائما • لم أكن أعرف السبب فى اختيـارى لهذه السورة بالذات ولم اهتم بمعرفة السبب على الاطـلاق • كان فهمى للدين سطحيـا ، وكان لقراءتى لاعترافـات هـذين القطبين : الغزالى وتولستوى أثر كبير فى تفكيرى فى الدين • لقد جرنى حبى للتعرف على هـذا الطريق الى قراءة كثيرة عن التصـوف والمتصوفة ، وعن القديسين والطريق الوعر الملىء بالمعاناة والآلام ، ولكن الكل اذا وصلوا كانوا يترنمون بنفس النشيد مع اختلاف آديانهم •

هذا وحده كان يشـدنى شـدا مستمرا للاستمرار فى القراءة والاطـلاع فى نفس الخـط •• وليم جيمس •• « منوعـات من التجـارب الدينيـه » Variets of Religious Expriences
ايفلـين آنـدر هيـل والطـرق السـبع للتصـوف
Seevn Ways of Mysticism — Evelin underhill
ثم انا بزنت Anna Peusunte عن التصـوف والمتصوفة • وهـذه القراءات تعدت الى محـاولة قراءة القرآن بفهم لم يكن من قبـل ، ولكن هـذه المحاولة فشلت فى ذلك الحين •• كانت اللغة صعبة • قرأت الانجيل وقرأت التوراة وقرأت الرميانا الهندية ــ وقرأت عن بوذا وتاريخه كله وقرأت عن «كنفوشيوس» وعن «لاوتزى» ــ وكنت

ألتهم هـذه الكتب التهاما ، سـواء ما كنت أشتريه من الطبعـات الرخيصة فى حدود ميزانيتى ، أو ما كنت استعيره من مكتبـة حامد سعيد ، أو ما أذهب لقراءته فى المكتبات العامة .

كانت هـذه القراءات تسير وتحدث أثرها الذى سيشهر نفسه بحدة فيما بعد ويطلب جوابا .

وكان عملى فى الأكاديمية يسير بتؤدة ، ولكن رأسـيا الى أعلى دائما اذا لم نعد الكبوات ، فقد كانت فى معظم الأحيان مفيدة .

فى عام ١٩٣٨ وابان أزمة ميونخ الشهيرة التى فجرتها ألمـانيا وذهب رئيس وزراء بريطانيا فى ذاك الحين ليقابل هتلر ليؤجل تفجر الأزمة ولو الى حين ــ فى تلك الآونة ــ سافر أوزنفانت الى أمريكا ، وعلمنا فيما بعد من سكرتيرته بانه تعاقد أو على وشـك التعاقد مع جامعة ييل Yale الأمريكية لكرسى علم الجمـال والفن . وكان الخبر المفاجىء صاعقا بالنسبة لتلاميـذه ، وقد اجتمعوا وقرروا فيما بينهم ارسال برقية احتجاج عنيفة لأوزنفانت لتركهم هكذا ، ومفاجأتهم بهذا القرار وهم ما زالوا فى منتصف الطريق .

وقد وجدت أنـا أن لهجة البرقية عنيفة وغير ملائمـة . وكان حامد سعيد قد ترك الأكاديمية منذ سفر أوزنفانت للتفرغ لدراسـة تاريخ الفن فى معهد « جرتولد » بلندن ، حيث كان يمر بأزمة أشرت اليها بالتفصيل فى مقالى عن حامد سعيد فى مجلة « الفنون » .. ولذلك لم يشترك هو فى هذه البرقية . وقد امتنعت أنـا عن التوقيع على البرقية وقلت اننى سأكتب له خطابا بهذا المعنى . وفعلا كتبت الخطاب . شـكرته على الفترة الرائعة التى أمضيتها تحت اشرافـه وتعاليمه القيمة التى استفدت منها على الدوام ، ولكنى رجوته أن يدلنى على أستاذ آخر وليكن من زملائه فى فرنسا ، لكى أتم تعليمى بقدر المستطاع حيث كنت أشعر أننى مازلت فى بداية الطريق . ومر

ما يقرب من شـهرين وأنـا أعمل بجد ، والأكاديمية تسير كالعادة حتى يأتى الرد من أوزنفانت . وكنت أرسم فى تلك الفترة « تورسو » أى الجزء من جذع وصـدر وفخذ الموديل . كان هذا العمل قد أخذ منى مجهودا واستنزافا ، فقد كان ناجحا ، بل انه كان يبلور دراستى عند أوزنفانت طوال المدة التى تزيد على عامين . كنت فى اللمسات الأخيرة فى هـذا العمل الذى كنت أنفذه بقلم « كنتيه » حينما علمنا ان أوزنفانت قد عاد من أمريكا وانه فى طريقه الى الأكاديمية . كان هذا خبرا مفاجئا لنا جميعا وبدأنا نستعد للقائه وكان حامد سعيد يأتى من وقت الى آخر للأكاديمية ، وكان حاضرا فى هـذا اليوم فقد علم بأن أوزنفانت قد عاد من أمريكا . اذن فقد عاد أوزنفانت . لمـاذا عاد اذا كان كمـا سمعنا انه ارتبط بكرسى الأسـتاذية بجامعـة « ييل » Yale .. هل عاد فعلا تلبية لرغبة تلاميذه ، أم أن هنـاك شئونا له عاد ليصفيها قبل سفره النهـائى الى أمريكا . لقد انهى عمله فى صورة الحياد Life التى استمر العمل فيهـا أكثر من أربع سنوات كاملة ، يعمل فيها بجد تماما ، وكان هـذا العمـل أمامنا ينمو على الدوام ويد الأستاذ تعالج المشكل تلو المشكل ، فكان هـذا فى حد ذاته درسا عمليا كبيرا لنا جميعا . ان الأستاذ يطبق عمليـا كل ما يقوله لنا من نقد ، بل هو يطبق كل ما كتبه فى كتبه ومقالاته عن Purism وعن الدوائم constants . انه كان أمينا لعقله وفكره ونظريتـه فى تطبيقها بنفسه . وبعد كل هـذا أتساءل ـ هل نجح أوزنفانت فى أن يكون فنانا مصورا من الصف الأول ؟ .. ظل هـذا السؤال يتردد فى نفسى زمانا طويلا بالرغم من اعجابى الشديد بهذا الرجل . هل وصل خطابى الى أوزنفانت ؟ وهل قرأه ؟ لقد علمت من شارى السكرتيرة أن برقية الزملاء قد وصلته فعلا فقد كتب لها بهذا ولكنه لم يذكر شيئا عن خطابى له ... !

حضر أوزنفانت الى الأكاديمية وكان الجميع فى انتظاره ، وكان

لقاءا حارا بين الأستاذ وتلاميذه ، فقد كانت هنـــاك علاقة نمت على مر الأيام ــ علاقة احترام وتقدير وحب بين الأستاذ وتلاميذه •

وبدأ يحدثنا قليلا عن رحلته وأنه أصبح يفضل أمريكا لعمل الفنان عن انجلترا فالجو الفنى هنـــاك أصبح ملائما تماما للفنان ــ ولم تنفق معه فى الرأى • وفى أثناء الحديث التفت الى فجأة وقال لى « هل تعـــلم اننى ما عدت من أمريكا الا لأجلك ؟ •• لقد وصـــلنى خطابك » •

قال هــذا أمام الجميع •• الجميـــع ممن أرســلوا له برقيــة الاحتجاج •• جاءت كلماته هذه مفاجأة سارة لى وقد هزتنى فعلا •• هل صحيح هــذا الذى يقوله الأستاذ •• هل عاد فعلا من أجلى •• هل كان لخطابى له ذلك « الرد فعل » الذى أثلج صــدرى وأشعرنى بان لى مكانة عنده • كنت شابا لم أبلغ الواحدة والعشرين واحترامى وتقديرى الكبير لأوزنفانت كان يجعل من كلماته هذه معنى كبيرا فى نفسى •

وقد شعرت بفرح داخلى واعتزاز بالنفس من كلماته هذه سواء قد عاد أوزنفانت من أجلى فعلا أم أن عنده من الأسباب الأهم • المهم انه قال هذه الكلمات فعلا وأمام الجميع •

وبعد ان انتهى اللقاء •• لقاء عودة أوزنفانت واطمأن الجميـــع على استمرار الدراســـة فى أكاديميته بدأنا العمل بجد • وكان هـــذا دائما طابع الدارسين جميعا فى أكاديمية أوزنفانت • وحضر أوزنفانت مبكرا وكانت معه كاميرا وحـــامل ، وازاح الســـتار عن عمله الكبير Life وركز الحامل والكاميرا أمام اللوحة وبدأ فى تصـــوير أجزاء تفصيلية من الصورة • لقد أتم اللوحة وهو يسجلها بتفصيلاتها فوتوغرافيا • وعند الظهر أرجأ أوزنفانت عملية التصوير الفوتوغرافى واشعل سيجارة وبدأ يجول جولته النقدية على الدارسين • ثم جـــاء

دوری وكنت قد أكملت دراستی « للتورسو » وما ان وقعت عين أوزنفانت عليه حتى سكت لحظة ثم نطق ببضع كلمات رائعة .. كانت رائعة بالنسبة لی .. قال بالحرف الواحد :
Mon dieu quelle Dignité quelle grandeur
« يا ربی .. ما هذا الجلال .. وما هذه العظمة » .. لقد فهمت الكلمات الفرنسية فورا فقد اعتدت شيئا فشيئا على فرنسية أوزنفانت .

ولم أسمع ما قاله بعد ذلك .. وقد قال لی حامد سعيد بعد انتهاء كلام أوزنفانت : مبروك يا راتب .. لقد مدحك بما تستحقه فعلا ان هذا العمل هو أحسن ما وصلت اليه فی هذه المرحلة وأن أوزنفانت يتنبأ لك بمستقبل كبير فی الفن وذلك فی بقية حديثه عن عملك وعنك . لقد كانت لحظات حاسمة تلك التی عشتها بعد سماعی هذا التقرير من أستاذ كبير الى شاب مازال فی بداية دراسته للفن . كان هذا حافزا لی للسير الى نهاية الشوط وكانت عزيمتی قد انعقدت على هذا فعلا .. ظلت « الجلال » Dignity والعظمة « الجراندير » «Grandeur» يلازمان كل نبضة فی نفسی وفی أعمالی الفنية .

انتهت الفترة الدراسية بعد بضعة أسابيع وبدأت الاجازة الصيفية ــ وقد صممت أن ابتعد عن أصدقائی فی لندن وأن أرحل الى مصيف هادیء . ووقع اختياری فعلا على مصيف ليس من بين المصايف الشهيرة القريبة من لندن هو مصيف « رانسجيت » Ransgate

لم آخذ معی الى رامسجيت سوى الكتب ــ كتب كلها تبحث فی الدين « حياة الرهبان والقديسين » كتاب ايفلين اندر هيل « سبع طرق للتصوف » Seven Ways of Mysticism E. Underhill أربعة أجزاء كبار استعرته من حامد سعيد ــ وذهبت الى رانسجيت محملا بالكتب ليس الا ، ووجدت سكنا هادئا مع عائلة صغيرة : زوج وزوجة وابن صغير لم يتعد التاسعة من عمره . وبدأت فورا فی ترتيب

أوقاتى . كانت رانسجيت بلدة صغيرة نسبيا تقع على الشاطىء وترتفع عن الشاطىء الرملى بما لا يقل عن خمسين أو ستين درجة سلم يتوسطها كشك صغير من الخشب ونوافذ زجاجية ، جعل كمحطة يستريح فيها النازلون والصاعدون ، فزود بمقاعد مريحة . والنوافذ الزجاجية كانت تطل على البحر بطبيعة الحال . كان هذا الكشك بين الشارع والشاطىء الرملى هو مكانى الذى كنت أقضى فيه الساعات الطويلة قارئا ومفكرا فى الحاضر .. حاضر الفكر .. فكرى أنا . ثم أسبح لأسبر غور فكر الآخرين الذين أقرأ لهم والذين قرأت لهم من قبل..تلاحم وتضارب بين فكرى وفكر الآخرين..كانت المناقشة تدور داخلى كلما قرأت بضعة سطور تقول شيئا ذا أهمية.كان عقلى يستدعى كل ما عنده مما قرأه ومما هضمه من قراءاته ليناقش هذا الرأى الذى تحداه فى تلك السطور التى يقرأها . كانت تلك السطور التى يقرأها عن طرق التصوف السبعة تقف أمامى فى تحد واضح ، ولكنها فى الوقت نفسه تحرك مكامن سحيقة فى نفسى . تلك السطور التى تحكى عذاب القديسين الذى كانوا يصبونه على أنفسهم عامدين متعمدين بغرض « اعدام الجسد » بكل رغباته الدنيوية لتنطلق الروح فى حرية ، تلك الروح الخالدة تتخلص من ذلك الجسد الفانى لتلقى المقدس ـ لتلقى الله . لتتحد معه فى وحدة أبدية . كانت تلك السطور تهزنى هزا عنيفا فى ذلك الحين . كانت قطرات الدمع تتساقط بغير ارادتى ، وكانت السطور تتوارى خلف هذه القطرات ولكنى مستمر فى القراءة .

وأترك هذه السطور ، ولكن الكتاب يشير الى أمثلة حية من هذا العذاب الارادى لتطهير الجسد كما يقولون . هذا الراهب فى طريقه الى المقدس يسير وقد حمل صليبا ضخما قد دقت فى كل جزء من أجزائه المسامير الحادة . حمل هذا الصليب الضخم تشبها بالمسيح

عندما حملوه صليبه الى حيث صلب • حمل الصليب وأسنان المسامير الحادة قد غرست فى لحمـــه وفى كل خطوة منه فى سيره يهتز الصليب وتنغرس المسامير فى جسده أكثر وأكثر • صابر •• صابر •

ان الجسد قد مات وان روحه أصبحت معلقة فى السماء ، حيث المقدس يرنو اليه من عل فهو لا يشعر بأى ألم • لقد تطهرت روحه وتخلصت من الآلام الدنيوية بل تخلصت من كل الرغبات والشهوات ، بفضل تلك الآلام والعذاب الذى اختاره السائر فى هـــذا الطريق •• هكذا يقولون فى هذه السطور •

ان الطريق طويل جداً وشاق جدا لمن أراد الوصـــول • وان الحـــالات كما كانوا يســـمونها : بين الشـــوق والتوبة والتطهر •• والخلاص ــ والوصول •• حيث الكل فى واحد •

سيطرت على تفكيرى طوال اقامتى فى رانسجيت تلك الحالات والأمثلة المضروبة فى الكتاب ــ بل قل ان تفكيرى قد شل تماما ولم يعد يعمل • ان هنـــاك عبر الفكر الواعى دوافع ونزعات فى أعمـــاق النفس تعمل وتعمل بغير وعى كامل منى • لقد اعترانى شـــعور قوى بنقص ذاتى •• بل باحتقار لنفسى • كيف يمكن أن أقف على قدمى بين هؤلاء الجبابرة الذين تجردوا كلية من كل ما هو دنيوى ، وركزوا أبصارهم على كل ما هو علوى •• وأنـــا •• أنـــا الذى حاولت أكثر من مرة أن اتخلص من عادة قبيحة •• من لذة سخيفة •• ألا وهى التدخين مثلا • لم أستطع ، رغم المحـــاولة تلو المحاولة • هل لم يعد عندى ارادة • كنت أتمنى فى تلك اللحظـــة أن يكون عندى جزء من ارادة هؤلاء الجبابرة •• ولكن •• هل هى مجرد ارادة فقط •• وما هو مفجر هـــذه الارادة •• انه الايمان قبل كل شىء •

هكذا كانت تسير أفكارى •• مرة تقبل ومرة ترفض •• ولكنها على ما أظن كانت حية •

استمرت قراءاتى فى هـذا الخط طويلا ، حتى أن صاحب المنزل الذى أسكنه والذى كان يعمل ليلا ويظل فى البيت نائما بالنهار قد أخذ يقلب فى كتبى وأنا بالطبع غائب فى « صومعتى » فى ذلك الكشك الرائع على الشاطىء وفاجأنى الزوج يوما قبل أن يرحل الى عمله فى المساء ـ وقد تقابلنا صدفة ـ فاجأنى بسؤال غريب .. كان غريبا على سمعى .. « هل أنت تدرس اللاهوت » فأجبته باننى أدرس الفن التشكيلى . « ولماذا كل هذه الكتب عن الدين » ؟ قلت له انها لمجرد التثقيف فى هـذه الناحية ـ وهز كتفيه فى حيرة وتركنى بعد أن حيانى وذهب الى عمله .

كان بالمنزل « سماعة » مستقلة لراديو لا أعرف مكانه ، ولكن صاحبة المنزل قالت لى أننى أستطيع أن استمع للموسيقى اذا ما حركت مفتاحا معينا فى هـذه السماعة وخصوصا يوم الأحد حيث أن موسيقى دينية لمشاهير الموسيقيين الكلاسيكيين تذاع فى ذلك اليوم .. وكان من حظى فى معظم الأحيان أن أحظى بسماع « بـاخ » . وكنت أحرص فى هـذا اليوم ـ يوم الأحد ـ على أمرين : الأول الاستماع الى الموسيقى الدينية ، والثانى أن اصطحب ابنهم الصغير « جون » الى السينما وكان هـذا دائما مدعاة لسروره ومن ثم سرورى . كنت أتحدث معه وهو يلقى على أسئلته فى براءة تامة وكنا نشاهد أى شىء فى السينما وكنت أسر عندما أجد « جون » منتبها تماما متتبعا لأحداث الفيلم . وكنت قبل دخولنا للسينما اشترى له « شيكولاتة » وكانت هذه الأشياء البسيطة كافية لتعقد بينى وبين جون صداقة ، حتى أن نظراته كانت تنم عن الحزن عندما ودعته بعد انتهاء الأجازة ورحلت عن رانسجيت .

كان يوم الأحد هذا يوما مريحا لى .. انه كان ينسينى تفكيرى وتلك الأزمات النفسية التى كانت تعترينى طوال اقامتى ، وعنـدما

اختلى بنفسى .. حتى أن الأزمات كانت تلاحقنى وأكاد أتمنى أن أذهب من هذه الدنيا الى الأبد لأتخلص مما سيطر على من فكر رهيب .. رهيب لاننى لا أجد حلا لشعورى بالضعف ينساب فى كل جزء من ارادتى . حتى أنه حدث فى يوم نزلت فيه الى الشاطىء واستأجرت قاربا بمجدافين ، وركبته وحدى وجدفت وجدفت ودخلت الى مسافة بعيدة فى عرض البحر .

وأنــا أعلم مقدرتى فى التجديف فقد كنت اعتبر « رجل مجداف » (Oar's Men) من الطبقة الأولى سواء فى مصر أو فى لندن عندما كنت اجدف فى فريق تشلسى .. ذهبت مسافة بعيدة بالقارب ولم أشعر بأنى بعدت عن الشاطىء كل هــذه المسافة . وأوقفت المجاديف وتركت القارب تتقاذفه الأمواج ولم أعن لحظة واحدة بأن أعود بالقارب الى الشاطىء فقد تملكنى شعور غريب .. شعور بأنى عاجز عن التجديف واننى انطلق الآن الى اللامحدود .. انطلق الى حريتى .. انطلق الى ما يخلصنى من الشـعور بالنقص .. الشعور باحتقار الذات ــ وفعلا تركت القارب يتحرك بحريته .. ولكن هل للقارب حرية .. حرية الحركة ؟ . هل القارب حر فعلا فى أن يسير الى حيث يشاء وتلك الأمواج التى تتلاطم حوله وتقذف به شيئا فشيئا نحو الشاطىء رغما عن ارادته ، ورغما عن أية ارادة لى أيضا .. واقترب القــارب بفعل حركة الأمواج نحو الشاطىء . وبدأت أصحو من تسلسل الأفــكار والأحاسيس ســواء الواعية منها وغير الواعية . أمسكت بالمجاديف مرة ثانية وبدأت أضرب المــاء بقوة نحو الشاطىء .. نحو الحياة .. عدت الى لندن وقد صفيت نفسى بعد تلك الأزمة العارمة . وبدا لى كأن فكرى يعمل فى الطريق الصحيح . ولكن ــ بين الفينة والفينة كانت تزورنى تلك الأفكار عن تطهير النفس عن طريق تعذيب الجسد .. هل هذا هو الصحيح .. وهل اذا كان هــذا صحيحا فى تلك الحالات التى سردتها « اندرهيل » Undershill فى كتابها .. هلا يكون

هناك طريق آخر ؟ انى شخصيا لا أتحمل شكة الدبوس ويقشعر بدنى كله اذا رأيت أى منظر فيه قسوة أو تعذيب • وهل الطريق الى الله مفروش بتلك الطرق الوحشية لاخضاع الجسد وتعذيبه •

الله ••• السلام ••• والطريق الى السلام مفروش دائما بالشوك، ولكن هذا الشوك من نوع واحد دائما •• هل هو شوك يدمى الجسد للتطهير •• أم هو شوك آخر ، شوك معنوى •• معاناة ومعاناة •• تطهر النفس أولا ويطهر الجسد بالتبعية • أن المعاناة فى الخلق •• والعطاء الفنى •• أى فن •• يطهر النفس • ليس هناك خلق فنى بغير معاناة •• وقد مارست أنا نفسى هذه التجربة على طول خط حياتى وتجربتى مع العطاء الفنى • العطاء الفنى تكتنفه على الدوام معاناة حقيقية من الفنان المعطى على طول الطريق ــ تختمر فكرة العمل الفنى ــ لوحة أو تمثال ــ مثلا فى ذهن الفنان ، وقد يتم تصميمها بشكل محدد فى مخليته ويبدأ التنفيذ • تعترضه المشكلة تلو المشكلة ، فى تعامله مع الخامة ــ منذ البداية ــ فيعانى ــ حتى يجد الحل تلو الحل • ثم تأتى المشاكل الأكبر والأعمق ــ فى تحقيق العمل فى وحدته وتكامله •• فى ايصاله لمرحلة النضج الكلى لكى يقول العمل ما أراده الفنان بعقله الواعى ، وغير الواعى •• فى رفع القيمة للعمل ، درجة بدرجة حتى يصل الى أقصى ما يستطيعه الفنان • وهذه العملية تشتد صعوبتها وتعمل على شد أعصاب الفنان الى الذروة •• فى مراحلها النهائية ، فتقدم العمل فى هذه المراحل الأخيرة للنضج •• تصبح عبئا ثقيلا ــ ثقيلا على كل كيان الفنان المبدع •

خلجات النفس ترق وترق حتى تصبح مرهفة تماما •• روحانية تماما •• يحملها العمل الفنى فى مرحلة اكتماله •

وفى هذه المراحل الصعبة من الابداع الفنى قد لا يجد الفنان

الحل للمشاكل التى تتوالى عليه • وهنا تبدأ المعاناة ــ فيجنح الفنان الى احتضان المشكلة وصهرها فى فيض من الفكر والتأمل المركز • وقد تطول فترة الحضانة هــذه أياما وأسابيع •• بل شــهورا فى بعض الأحيان •• حتى يأتى الحل •• بعد الاستنارة •• وبعد عذاب نفسى قد يصحبه مرض جسمانى ــ اننى شخصيا أعيش هــذه التجربة فى معظم حالات الابداع الفنى • انها صــورة مصغرة •• خطوة واحدة من الطريق الصوفى الطويل • انها معاناة نفسية وفكرية •• وليست تعذيبا للجســد الذى يضعنــا فى الطريق الصحيح الى الاســتنارة والمعرفــة •

فى لندن وفى الشهور التالية لعودتى من رانسجيت قرأت لمؤلف كبير كان له أثر كبير فى فكرى ، وتحولت من رومانسية الكتب التى قرأتها عن التصــوف الى فهم عميق • عميق للدين والاخــلاق •• لقد قــرأت برجســون «Bergson» « ينبوعان للدين والاخلاق » Two Sources of morality and Religion كان لهــذا الكتــاب الرائع الفضــل فى تحولى الى فهم حقيقى موضــوعى علمى للدين والاخلاق والينابيع التى تنهل منها • لقد قرأت الكتاب من الغــلاف الى الغلاف وخرجت منه بشىء رائع ••• لنفسى ولكل من أراد :

« ان الحب هو أعظم شىء للانسان »

ان قوة الحب على المستوى الذى يصفه برجسون يمكنها أن تزيل الجبال ــ كنت أقرأ الكتاب لا لأحفظ ما فيه •• ولكننى كنت أقرأ الكتاب لأتمثل وأعيش ما اعجبنى فيه •

بدأت الدراسة فى أكاديمية أوزنفانت فى سبتمبر سنة ١٩٣٨ بعد الاجازة الصيفية وبدأ العمل فيها كالمعتاد وكان حامد سعيد يتغيب عنها الا ما ندر ، وكان أوزنفانت يعاود حلقات نقده كالمعتاد ــ ولكنى شعرت

أنه يتغيب فى رحـلات متقطعة الى باريس ويترك الأكاديمية مددا تتراوح بين أسبوع وأسبوعين •

ولم تمض شهور قلائل حتى أعلن أوزنفانت انه سيرحل الى أمريكا فعلا وأنه رتب كل شيء لتسير الأكاديمية فى طريقها • وقد اختار لها فنانا انجليزيا كبيرا ، وسيبدأ فى الاشراف والتدريس بالأكاديمية من أول سنة ١٩٣٩ ـ أى بعد بضعة أسابيع اذ كنا فى نهاية سنة ١٩٣٨ •

اذن فقد بات رحيل أوزنفانت مؤكدا •• فقد اختار فعلا فنانا ممتازا للاشراف على الأكاديمية •

كان هذا الفنان والذى سبق أن حضرت له بعض الدروس فى تشلسى ـ كان هنرى مور • بلاشك هو نحات عظيم ، وربما كان هذا أحسن اختيار ـ وكما يقولون أحسن خلف لأحسن سلف ـ وقد تأكدت من هذه الأنباء من أوزنفانت نفسه ومن سكرتيرته التى قالت لنا انها ستسافر معه هى أيضا بعد بضعة شهور حينما يستقر أوزنفانت فى أمريكا • وكنت قد طلبت من أوزنفانت ان يدلنى على أستاذ آخر فى بـاريس لأتم دراسـتى معـه فـذكر لى زميـله وصـديقه « فرناند ليجيه » Fernand Leger وكنت قد رأيت الكثير من أعماله التى عرضت فى لندن ـ وهو بلاشـك فنان ممتاز كنت أرجو أن استفيد من الدراسة معه ـ وهو بالفعل كان أحسن من أدرس معهم فى باريس فى ذلك الوقت •

قررت السـفر الى باريس فور سفر أوزنفانت • وفعـلا بدأت مراسلة فرناند ليجيه على عنوان أكاديميتـه الذى حصـلت عليه من سكرتيرة أوزنفانت • وانتظرت الرد أسبوعا بعد أسبوع ـ ولمـا لم يصلنى رد ـ فتر حماسى قليلا وخصوصا وقد علمت أن من سيخلف أوزنفانت هو « هنرى مور » • وكنت معجبا بأعماله النحتية كما كانت مقالته الشهيرة عن الزلط والحصى عالقة بذهنى حتى هـذه اللحظة •

وفعلا بدأت الأكاديمية تستعد لوداع أوزنفانت ، وعند ذلك ذكرني حامد سعيد بأن أطلب من أوزنفانت شهادة بدراستى معه ورأيه فى ؛ حيث أن الرأى من مثل من كان فى مكانة أوزنفانت العالمية له قيمة كبيرة فى أى مكان . وفعلا طلبت من السكرتيرة هذا الطلب وأسرعت الى أوزنفانت تنقل له طلبى فقال انى فكرت فى هذا ، وجلس يكتب بضعة سطور بالفرنسية وترجمتها السكرتيرة بالانجليزية على ورقة مطبوعة بعنوان الأكاديمية بلندن كتبت بالآلة الكاتبة وسلمت الى وكانت عبارة عن سطرين اثنين :

Rateb Saddik given The Right
Opportunity Will be an artist of international importance.

اطلع الزملاء على نص الشهادة ، وتمنى الأصدقاء أن يكون لهم شرف مثل هذا الرأى . وهنأنى الجميع ـ ولكنى فى الواقع لم يسعدنى هذا الرأى بقدر ما حيرتنى جملة Given the right opportunity (اذا أعطى الفرصة الصحيحة) أين سأجد هذه الفرصة .. وأين أبحث عنها .. هل هى فى الدراسة مع الآخرين أم انها نضال متصل مع النفس ـ مع المجتمع .. مع الروتين .. مع الجهل ؟ فعلا لقد لاقيت كل هذا فيما بعد ، ولم أجد هذه الفرصة المواتية لأكون فنانا ذا أهمية عالمية كما قالها أوزنفانت ، فلقد ذقت العذاب من المجتمع ومن الناس ومن الدولة فى شخص موظفيها ، ومن الأصدقاء ومن الأقارب ومن الجهل .. كل ذلك كان فى مصر عند عودتى اليها .

سافر أوزنفانت وزارنا هنرى مور لأول مرة بعد رحيل أوزنفانت ببضع أسابيع ، وبدأ يتحدث معنا فى أول زيارة . وكان الجميع معجبين بأعماله .. لاشك فى ذلك .

لم يشأ هنرى مور فى أول زيارة للأكاديمية أن يمارس التدريس أو النقد ، ولكنه فى الزيارات التالية وفى ممارسة التدريس .. ويا للأسف .. لقد خيب الظن .. انه يمارس التدريس على طريقة

تشلسى •• يطلب من الدارس أن يوليه مقعده ثم يمسك بالقلم ويصحح الرسم بنفسه راسما خطوطا جديدة مسترشدا بالموديل • انه يحاول محاكاة الطبيعة ورسمها كما هى • بل هو يتعمد أن يقيس النسب بالقلم كما كنا نعمل فى تشلسى ليرشد الطالب الى هذه الطريقة السهلة فى قياس نسب الموديل • وليس هذا فقط فانه يمسك الاستيكة ويمحو ثم يرسم ، ويظل هكذا مع الطالب الى ما يقرب من العشر دقائق أو الربع ساعة ، ثم يقوم ويقول قولته المشهورة التى سفرتنى الى باريس •• والتى بعدها لم أحتمل أن أرى هذا الفنان العملاق يدرس الفن بهذه الطريقة • لقد قال بالحرف الواحد : « ان على الدارس أن يتعلم الصنعة التى تمكنه من نقل الطبيعة كما هى ، ثم بعد أن يتم له ذلك وينتهى من دراسته ، فليحاول أن يكون هنرى مور آخر » •

كان هذا الكلام خطيرا من فنان كبير مثل هنرى مور • فان هذا الكلام مضاد على خط مستقيم لما كان يقوله وينادى به الأستاذ أوزنفانت : « لا تأخذ الطبيعة من الطبيعة وتضعها على الكنفاش أو الورق كما تراها عينك — فهذا ليس بفن — ولكن عليك بان تحتضن الطبيعة فى داخل كيانك ثم تضيف اليها هذا الكيان بتجاربه وثقافته ، ثم تخرج الطبيعة من داخلك معادلا فنيا « للطبيعة + الفنان » تضع هذا المعادل على الكنفاش •• هذا هو الفن أما غير ذلك فهو مهارة •• والمهارة وحدها لا تخلق فنا • وينبغى للفنان أو الدارس للفن أن يعى تماما أن كل ما يخطه على اللوحة من بادىء الأمر أن يكون له دلالة الفن •• أما غير ذلك فيترك للآلة الفوتوغرافية » •

أسفت حقا لهنرى مور الفنان العظيم والمدرس الفاشل من وجهة نظرى على الأقل • لقد أحببت هنرى مور فنانا وشخصية رائعة ومحدثا لبقا ، ولكن مهنة التدريس كما مارسها هو فى تشلسى وهى

محكومة دائما بالامتحان فى آخر الدراسة ، والامتحان عبارة عن امتحان للمهارات ليس الا • وكان هذا طابع مدارس وكليات الفنون ليس فى انجلترا وحدها ولكن فى جميع أنحاء العالم ، فان هذه المدارس والكليات تحتاج الى مقياس للنجاح ــ والمقياس الوحيد الذى يمكن الاعتماد والاتفاق عليه هو المهارات فى نقل الطبيعة بجانب بعض القيم البسيطة التى يسهل الاتفاق فى موضوعية عليها • ولكن اذا صار الأمر الى عملية تقييم للعمل من وجهة ما أودعه الدارس فيه من قيم جمالية وقيم بلاستيكية ومعنويات ــ انهار المقياس تماما ، لأن هذا المقياس صعب يحتاج الى ثقافة واسعة •• ثقافة عالية قد ألمت بنواح عديدة وبخبرات طويلة فى جميع النواحى والمدارس الفنية •
ان الاتفاق على سلم للقيم Schale of Values موحد صعب للغاية ، بل قلما يوجد ، الا اذا ارتفعت الثقافة الى شمول كبير بين القائمين على عملية « التقييم » • وهذه واحدة مما عانينا ومازلنا نعانى منه فى مصر الآن ــ التقييم •

وفى هذه اللحظة وأنا فى أسف لخيبة أملى هذه فى هنرى مور النحات العظيم • خيبة أملى فيه كمدرس •

جاءنى الرد من باريس •• ردا مكتوبا بالانجليزية على خطابى الذى أرسلته بالانجليزية •• وكان الرد قد تأخر لسفر فرناند ليجيه الى أمريكا لعمل لوحتين جداريتين لأحد أصحاب الملايين الأمريكيين وقد حول خطابى الى المشرفة على أكاديميته الذى أطلق عليها اسم :
«Academie de l'art contemporain»
« أكاديمية الفن المعاصر » وجاءنى الرد مرحبا بحضورى الى الأكاديمية والالتحاق بها ، وأنهم أيضا قد اهتموا بطلبى ايجاد مكان« بنسيون » قريب من الأكاديمية لاقامتى ، وأنهم فعلا وجدوا هذا المكان وهو

لا يبعد سوى بضع خطوات عن الأكاديمية .. وأعطونى عنوان الأكاديمية فى باريس
Paris 14em XIV 6 Square Henri de Lourmel Denfert Rocheraus
وقد فرحت بوصول هذا الرد وبدأت أعد نفسى للرحيل الى باريس. ولم يمض أسبوع واحد الا وكنت قد رتبت حاجياتى ورسومى واستغنيت عن كل ما ثقل حمله وحجزت لى مكانا فى القطار والعبارة حتى باريس .

لم يودعنى على القطار فى لندن أحد سوى سعد الخادم . لقد ذهبت الى حامد سعيد فى سكنه وكان عنده بعض الأصدقاء الفضلاء ممن أتوا الى لندن للدراسة ، وكنت قد عملت معهم صداقات . ذهبت لأقول له انى ذاهب ، فقال لى ببساطة مع السلامة . وقد قام الأصدقاء كلهم وقالوا لابد من الذهاب لتوديع راتب حتى محطة القطار ، ولكن حامد سعيد منعهم ، وألحوا ومنعهم للمرة الثانية قائلا ان راتب يعرف طريقه للمحطة وليس محتاجا لمن يودعه . ولكن سعد أتى لتوديعى . ركبت القطار وأنا أفكر فيما فعله حامد سعيد من منع الأصدقاء عن الذهاب الى المحطة لتوديعى .

اننى لم أتوقع ان أحدا من هؤلاء الأصدقاء سيفكر فى توديعى ، بل انى لم أكن اهتم على الاطلاق لمثل ذلك ، فانى راحل الى باريس وكلى حماس وشوق اليها وكلى حماس وشوق لفرناند ليجيه .. فقد كنت أحب فنه .

سأكون وحيدا فى باريس بغير أصدقاء أو معارف .. بغير لغة .. غير تلك الكلمات التى مازالت عالقة فى ذهنى منذ المدرسة الثانوية . ولكن تفكيرى كان يعود دائما الى حامد سعيد . لقد كان صديقا مخلصا حقا فى كل السنين التى أمضيناها معا فى لندن . لقد كان صديقا وزميلا فى الدراسة وكان أوزنفانت يجمع بين الاثنين الذين

أتيا من بلاد الفراعنـة فى نقده وتقريظه . لمـاذا لم يقل كلمة واحدة لطيفة يودعنى بها بعد الصـداقة التى عشناها معا . لم أجد لهـذا التساؤل جوابا .. هل أنـا أتيت شيئا معيبا فى حقه ، هل أتيت شيئا يخالف الصـلة الطيبة التى كانت بيننا .. هل أغضبته فى شىء ؟ لم أستطع أن أجد جوابا على هذا أتعلل به ـ استساغة لتصرفه . انه لم يفعل شيئا .. وياليته قد فعل شـيئا .. لم أجد شـيئا ذا بال .. سوى .. أعنى ربما يكون هـذا سببا .. كانت لنا زميلة تقاربنى فى السن ألمـانية تعيش فى المنفى فى سويسرا حيث طرد هتلر أباهـا أو أن أباها هرب من بطش هتلر .. مثقفـة .. ذكيـة طيبـة تعرف الفرنسية وتنطق الانجليزية بلكنة ألمـانية . لم تكن جميلة ولكن كانت لها جاذبية فى ذكائها و « خفة دمها » ، وكانت تحب الموسـيقى حبا جما ، وكنت أنـا كذلك . وكثيرا ما كنا نذهب سـويا لسماع « كونسرت » نعرف مقدما برنامجه . وفى مرة كنا عند حامد سعيد فى حجرته وكانت الشمس فى العصر ساطعة تدفىء الجو ـ وكنا قد اشترينا تذكرتين مقدما « لكونسرت » كان مخصصا Mass in B. Mins لبـاخ ـ وكنا بطبيعة الحـال نصعد الى أعلى التياترو على حسـب ميزانيتنا ، وبدأنا نستعد للخروج ـ لكى نلبس « ما على الحبل » استعدادا للقاء مع « باخ » . وقد طلب منا حامد سعيد بعد أن عرف وجهتنـا عـدم الذهـاب الى الكونسرت والمكوث معه فأصررنا على الذهاب ، ولم يستطع منعنا بالحاحه أو باغرائنا بأشـياء كثيرة مثل قراءة كذا وكذا على حسب عادته فى الاغراء . تذكرت هـذه الحادثة وأنـا فى القطـار الى نيوهافن ، وتذكرت أننى لمحت استياء يخفيه من اصرارنا . وبعدها بأيام التقيت به فوجدت منه فتورا لم أعره اهتماما فى ذلك الوقت ، خصوصا وأنـا كنت فى حماسى للسفر الى باريس وقد قلت لقاءاتنا بطبيعة الحـال . ولقد كنت ألمح على وجه حامد عبوسـا لا يبرح ملامحـه . لقد كان يمر بأزمة فـكرية

ونفسية بغير شك ، هكذا كنت أعلل حالته . مرت بذهنى كل هـذه الأحداث . ولكن إقتراب القطار من المحطة النهائية قطع على حبل تفكيرى وبدأت استعد للنزول مع حاجياتى . وعلى « العبارة » الى دييب نسيت كل شيء عن المواقف التى آلمتنى من الأصـدقاء ، ولم يبق فى نفسى الا الحب والتقدير لهم وأن حسناتهم كانت من الكثرة بحيث تمحو أى عدد من السيئات . عبرنا المـانش وكان العبور هينا نوعا ما عن المرات السابقة . ومن دييب الى القطار الى باريس وفى الجمرك كان كل شيء سهلا بعد أن علموا اننى رسام .

على أرض فرنسا تغير كل شيء .. أولا اللغة .. فبالطبع لم أكن أسمع سوى الفرنسية .. واختلفت المناظر ، واختلف الناس .. هم يتكلمون بالفم واليد معا ، ذلك الذى لا يحدث فى انجلترا .. هم يتحركون ويجادلون فى السياسة وفى كل شيء . وبصوت عال حتى الصخب . يدافعون عن آرائهم باندفـاع وانفعال ــ ليس لهم صبر الانجليز وهدوءهم فى المناقشـة . استمعت كثيرا طوال رحلة القطار الى باريس بمراقبـة المناظر ثم الناس ، ألتقط من أحاديثهم بضـع كلمات وأفهم من اشاراتهم باقى الحديث . وكانت أحاديثهم دائمـا حية ساخنة .

وصل القطار الى باريس .. وكان الوقت فجرا .. وقد بدا نور النهار أو كاد .. نزلت من القطار وأودعت حقـائبى فى أمانات المحطة .. ولكنى لم أترك رسومى فقد حملتها معى .

خرجت من المحطة ومعى عنوان أكاديمية (ليجيه) ولكنى لا أعرف كيف أصل لها ، بل لا أعرف كيف أسأل عنها . ولم أعرف فى أى اتجاه أسير ــ أهى قريبة من المحطة .. ؟ .. ولكنى تصرفت سريعـا فقد كان العنوان مكتوبا عندى فى نوتة فناديت على تاكسى وأخرجت له العنوان ، وجعلته يقرأ العنوان ، ثم ابتسم وسمعت منه كلمة We

أما الباقى فلم أفهم منه شيئا • وأوصلنى فعلا الى العنوان ، وقرأت رقم البناية واسم Square كما كان مكتوبا ، وأعطيته ما طلبه وزيادة ثم شكرته وانصرف • ولكن الساعة الآن كانت مبكرة جدا •• الخامسة •• فكيف أجرؤ على الصعود الى الأكاديمية وهل من المعقول أن يكون بها انسان مستيقظ •• وهل من الذوق أن أدق الباب فى هذه الساعة ؟ ووقفت فى حيرة •• لا أعرف كيف أتصرف ، ولكننى حملت رسـومى بثقلها ومشيت بلا تفكير وبلا غرض معين • كل ما أردته هو أن أمشى لاستكشف المنطقة ــ ربما وجدت مكانا لأشرب فيه فنجانا من القهوة وأستريح فيه حتى « يطلع النهار » •

ولدهشتى وجدت أكثر من محل والنور الكهربائى مضاء فيه ، وأناسا كثيرين يشربون القهوة ، وبعضهم يتناول بعض « كروسان » و « الشوسون » وغيرها •

ودخـلت أحـد هـذه المحـلات وطلبت قهـوة • وسألنى « الجارسـون » أى نوع من القهوة ، وفهمت من كلمـاته كلمتين « لبن » ، « كونياك » فقلت له فورا «لبن » ، فذهب ليحضر لى ما طلبت • وقد رأيت « الكرواسان » الساخن على البار فذهبت وأشرت الى الجارسون « بالاشارة فقط » اثنين من فضلك بالفرنسية • فقد كنت أعرف هذه الكلمات •• « من المدرسة طبعا » !

شربت القهوة وأكلت الكرواسان ودفعت الثمن ، وسارت العملية ببساطة لم أكن أتوقعها • فقد كنت أعرف كلمات كثيرة من الفرنسية ولكنى أخاف أن أنطقها فيأتى النطق مخالفا للصحيح ، فيسخر منى السامع • ولم أفكر أبدا أننى أجنبى ولست مطالبا أن يكون نطقى سليما أو غير سليم • ولكن كان هـذا طبعى ــ فقد كنت حساسا لمثل هذه الأشياء •

تلكأت فى المقهى ولكنى اضطررت لمبارحتها حيث كنت أشاهد

الناس تدخل وتلتهم بعض المـأكولات فى سرعة . وتشرب القهوة أيضا فى سرعة ، وينطلقون فورا خارج القهوة الى أعمالهم . كان الوقت لا يزال مبكرا ، ولكنني خرجت وحملي معلق فى كتفي ـ أقصـد رسومى ـ وبدأت رحلة على الأقدام حول مكان المدرسة استمرت أكثر من ساعة . وكنت أحدد لنفسى علامة فى الطريق لكى ترشدنى لطريقى فى العودة الى مكان المدرسة . واقتربت الساعة من السابعة صباحا فقررت الذهـاب الى المدرسـة وذهبت الى البنايـة رقم ٦ « سكوير هنزى دولورميل » ودخلت الى البهو .. فسمعت صوتا .. صـوت امرأة يقول «Oui monsier» نعم يا سيدى . فتوجهت نحو الصوت ، فوجدت سيدة تجلس وراء مكتب فرقه يافطة صغيرة مكتوب عليهـا concièrge أى بواب . فلم أنطق بحـرف ؛ وأخـرجت العنوان من جيبى وأريتها اياه ـ ونطقت هى بكلمة واحدة Six السادس .. وبدأت الصعود على السلم . لم أفكر فى الأسانسير ، بل انى لم أره بالمرة .. من لخمتى .. وصعدت دورا بعد دور وأنـا أعد الأدوار واحد بعد الآخر ، حتى وصلت الى السادس ووجـدت يافطة تشير الى المدرسة « أكاديمية الفن المعاصر » .

دققت الجرس وأنـا لا أتوقع وجود أحد فى المدرسة فى هـذه الساعة . وكانت مفاجأة لى عندما فتح الباب وظهرت فتاة فى العشرين من عمرها على الأكثر .. جمالها « صاعق » .. فى هـذا الوقت المبكر فى أول يوم لى فى باريس .. قوام ممشوق ولكنه ممتلىء بحساب .. صدر أسطورى .. بل هو صدر من صدور « تشيانو » العظيم .. لقد تسمرت تماما أمام هـذا المنظر غير المتوقع أبدا .. ولم أسمع ما قالته فى أول الأمر .. فكررته ـ ففهمت أنها تسألنى عن حاجتى . وكانت حاجتى ينم عليها كل جزء فى وجهى .. ولكنى تمالكت تماما ونطقت باسم المدرسة .. فأجابت بنعم ولكن المدرسـة لا تفتح الا فى الرابعة بعد الظهر . لقد قرأت فى وجهى التعب من الحمل الثقيل الذى

كنت أحمله على كتفى فاشفقت على ، واشارت بان أضعه داخل الباب وأن أحضر بعد الظهر لمقابلة مدام « بكوييه » . وكان هـذا الاسم حاضرا فى ذاكرتى حيث أن الخطاب الذى وصلنى من المدرسـة وأنـا فى لندن وكان مكتوبا بالانجليزية كان موقعا « بوكييه » . ففعلت ذلك ووضعت رسومى بالداخل ــ وكنت خائفا من أن أفقدها لأى سبب كان ــ على كل حال فقد شكرتها ونزلت مسرعا على السلالم أيضا . خرجت من البناية الى الميدان Square ولم أعرف الى أين أذهب . لم أكن أعرف أى انسان فى باريس سـوى صديق لحامد سعيد هو على ما أذكر « محسن الخشاب » أو أحد « الخشابين » غير (يحيى الخشاب) الذى كنت قد قابلته فى لندن مع حرمه سهير القلماوى .. ولكن أين أجد هـذا العنوان .. وهو عنوان لوكاندة صغيرة .. بل كان رقم تليفون ليس الا ، وهو طالب يدرس فى كليه ما . وكيف أجد تليفونا الآن ، وكيف أجد العملة الصغيرة المسدسة الشكل التى كانوا يستعملونها فى ذلك الحين والتى لم أكن أعرفها فى تلك اللحظة .. وهل سأجد هـذا الشخص فى هـذا العنوان ؟ .. وكيف سيكون رده على فى مثل هذه الساعة المبكرة .. وماذا يمكن عمله لى وهو لا يعرفنى بالمرة . هل أقول له ان صديقه حامد سعيد قد أعطـانى عنوانه هذا . وماذا أريد منه أنـا الآن فى هذه اللحظة ؟ .. دارت هذه الأفكار فى رأسى ، وكانت النتيجة أننى أسقطت هـذا الحل من حسابى ، وفكرت فى عنوان السفارة المصرية . ولكنى لم أكن أعرفه . وفكرت فى أن استعمل انجليزيتى بدلا من محـاولة التحدث بالفرنسية ، فمن الجائز جدا أن يكون من أحدثه على معرفة بها وفعلا بدأت التجربة .. وكنت أتوجه بالسؤال الى بعض المـارة ــ الذى كنت أتوسم فيهم معرفة الانجليزية . كيف كان هذا « التوسم » .. لا أعرف ــ وربما كانت مجرد مصادفة ــ حيث أننى كنت كلما اسأل انسانا مارا بالطريق عن Egyptian Embasy السـفارة المصريـة ، كان يجيبنى

بانجليزية ركيكة النطق ولكنها مفهومة تماما • وبعد السؤال أكثر من مرة وبعد أن دلنى أكثر من انسان على الطريق ــ وقد فضلت أن أسير على قدمى بعد أن تخلصت من حمل « رسومى » لكى يمر الوقت أولا ، وثانيا لأنى كنت أريد أن اتفرج على شوارع باريس فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ، وكل يسير فى سرعة الى عمله ، لا تلكؤ ولا ابطاء •• ولم يكن يتلكأ فى تلك اللحظة فى باريس كلها على ما أظن سواى وحدى •• والعجيب أننى بعد أكثر من سؤال وبعد أكثر من انسان دلنى على الطريق الى السفارة المصرية وبالانجليزية التى أفهمها جيدا وجدت نفسى فى النهاية وبعد أكثر من ساعتين من المشى قريبا جدا من مكان أكاديمية الفن المعاصر • كيف حدث هذا •• لا أعرف •• هل كنت أسأل عن مكان الأكاديمية ، وهل لاسم الأكاديمية أية صلة باسم السفارة المصرية •• لم أستطع الا أن أضحك مما حدث •

هناك شىء ما لم أتمكن من معرفته تسبب فى هذا الخطأ ولكن هذا الشىء من المؤكد لم أتسبب فيه أنا فقد كان سؤالى واضحا ، وكلمة السفارة المصرية بالانجليزية تقارب فى كلماتها السفارة المصرية بالفرنسية •• فلا وجه اذن للخطأ فى فهم سؤالى • على كل حال قنعت بهذه النتيجة ولم أحاول مرة أخرى السؤال عن السفارة المصرية • واكتفيت بما نلته من تعب السير على الأقدام طوال هذه المدة • لقد كاد النهار أن ينتصف وبدأت أحس بأن معدتى تطالبنى بالطعام ــ فقد هضمت ما أكلته فى الصباح • وبحثت فى الشوارع القريبة عن مطعم صغير أتناول فيه وجبة ساخنة • وفعلا وجدت مطعما صغيرا به بضع مناضد مصطفه ــ ولم يكن به الا شخصين اثنين يتناولان الطعام • فدخلت وأخذت مكانى على منضدة منزوية ، ووجدت أمامى قائمة بأصناف الطعام • وجاءنى الجرسون فوضعت اصبعى على أول صنف فى رأس القائمة ، وجاءنى به الجرسون

بعد قليـل ، وكان حساء ساخنا مذاقه طيب • ووقف الجرســون فى انتظار طلباتى فوضعت على صنف فى السطر الثالث أو الرابع على ما أذكر • وابتسم الجرسون وجاءنى بالطلب • ويا لدهشتى فقد كان حساء (شوربة) أيضـا •• ولكن من نوع آخر ففهمت • وبدأت افتش هذه المرة عن كلمات أعرف معناها فى القائمة فوجدت فى النهاية كلمة « سكالوب » فوضعت اصبعى على السطر وابتسم الجارسون وأحضر لى اسكالوبا رائعا محلى بقطع من البطاطس المحمرة ، فأكلته بشهية ، واكتفيت بما أكلت • وجاءنى الجرسون فطلبت منه الحساب وكنت أعرف الكلمات تماما بفرنسية سليمة ، فجاءنى بالحساب فدفعته وانصرفت •• الى أين ؟ •• لا أعرف ••• سأمشى •• وأظل أمشى حتى الساعة الرابعة • وبعد ساعة من المشى وجدت نفسى عاجزا عن المواصلة ، فقد تعبت قدماى تماما • فدخلت الى مقهى وطلبت قهوة باللبن وجلست وقتا طويلا وأنـا اتمهل فى شرب القهوة ، وقد صممت على أن أتوجه الى الأكاديميــة فورا وقد بلغت الساعة الثالثــة بعد الظهر • وفعــلا ذهبت الى البناية رقم ٦ ، وفى هــذه المرة وجــدت الأسانسير وصعدت به الى الدور السادس ، وضغطت على الجرس وكنت أتوقع بل أرجو أن أجد تلك الفتاة التى فتحت لى الباب فى المرة الأولى فى الصباح الباكر •

ولكن للأسف •• فتح الباب وبرزت منه سيدة فى الأربعين من عمرها ، لا هى جميلة ولا هى قبيحة ، ولكنهـا هشت وابتسمت لى وقالت : انك أنت الطالب الانجليزى الجديد •• قالتها بالفرنسية •• فقلت لها بالانجليزية وقد فهمت كلامها •• فعلا أنـا الطالب الجديد ولكنى لست انجليزيا بل مصريا خالصـا • ولكن ظل هـــذا الظن مسيطرا على الجميــع مصرين على تلقيبى بالانجليزى ، حتى فرناند ليجيه نفسه كان يخاطبنى على أننى انجليزى • على كل حال استقبلتنى بروح طيبة وفى انجليزية ركيكة للغاية أفهمتنى بأنها حجزت لى مكانا

فى بنسيون قريب من المدرسة ، وأنها ستذهب معى فورا بعد أن تسجل اسمى فى الأكاديمية ، وأدفع المصاريف المطلوبة مقابل الدراسة . قد حدث كل هــذا فى وقت قصير ــ وقد أعطتنى « كارنيها » ، عبارة عن رقعة من الورق المقوى عليها اسم وعنوان أكاديمية ليجيه ــ باسمى وبصفتى طالبا أدرس فى الأكاديمية ؛ وأن هــذا الكارنيه يعطينى الحق فى دخول جميع المتاحف الفرنسية مجانا .

ووقد اصطحبتنى لكى أرى مكان الدراسة « الأتيليه ».فقد كان الأتيليه ملحقا بشقة سكنية تسكنها مدام بوكييه مديرة الأكاديميــة وزوجها الفنان « بوكييه » ــ والمديرة من أصل روسى أبيض كمــا فهمت منها ، تزوجت بالفرنسى بوكييه ــ وقالت انه فنان مصــور . ولو أنى لم أر له أى عمل أو انتاج طوال دراستى فى الأكاديميــة . اصطحبتنى مدام بوكييه كمــا قلت حيث المرســم ، وهو قاعة ضيقة وطويلة ننزل لها ببضع درجات خشبية ، والأرضية باركيه والاضاءة لا بأس بها ، مدفــأة كهربائية . الجو مغاير لأكاديمية أوزنفانت فى لندن . فمن السعة الكبيرة الى الأرضية الأسمنتية الى الموقد الكبير الذى يوقد بالفحم الى السقف الجمالون العالى حيث يسقط الضوء المخفف بقماش خفيف أبيض يغطى الزجاج .. على كل حال ان المكان نظيف والاضاءة فيه لا بأس بها والمهم هو الأستاذ فرناند ليجيه .

وقالت لى مدام بوكييه ان الدراســة فى الأكاديميــة مسائيــة فقط ــ أى تبدأ الساعة الرابعة بعد الظهر . وللأسف الشديد فالأستاذ ليجيه فى أمريكا وكاد يفرغ من عمل عملين جداريين لأحــد أغنيــاء أمريكا ، ولن تمر بضعة أسابيع حتى يعود الأستاذ للاشراف والتوجيه للطلبة . على كل حال هى نفسها تقوم مقامه ــ فهى فنانة لها مكانتها (كما تقول هى) وقد درست تحت اشراف ليجيه ســنوات طويلة وهى ، تقوم أثناء غيابه بتوجيه الطلبة وتقديم النقد والارشاد . وقالت

لى انها ترحب بأحد تلامذة Ozenfant فهى تعرفـه جيدا وأنهـا ترجو أن أريها بعض الدراسات التى قمت بها تحت اشراف أوزنفانت فأكدت لها اننى سأعرض دراساتى على الأستاذ ليجيه لأعرف رأيه فيها ، وكذا أرحب بأن أعرف رأيها هى أيضا .

ثم سألتها عن مكان البنسيون الذى حجزت لى فيه غرفه طبقا لخطابها فتركتنى بعضا من الوقت حتى ارتدت ملابسها واصطحبتنى الى البنسيون الذى لا يبعد أكثر من بضع خطوات عن بناية الأكاديمية وصعدنا الى الدور الرابع ، واستقبلتنا سـيدة فى الخمسين من عمرها رحبت بى ولكنهـا أسفت لأنها لا يمكنها اعطـائى غرفة فى الحال ، حيث أن جميع الغرف مشغولة ، ولكنها كانت تعرف ميعاد وصـولى ولذا فقد حجزت لى غرفة فى فندق قريب وذلك لمدة أسبوع أو أسبوعين على أكثر تقدير ، حتى تخلو غرفة لى . وكان تصرفا معقولا وعاقلا . ونادت على زوجهـا وهو كهـل فى السـتين من عمره اصطحبنى الى الفندق . وأخذت مفتاح غرفتى وأفهمنى أننى سأتناول طعامى عندهم فى البنسيون . وذكرت له « بصعوبة طبعا » ببضـع كلمات أن حقائبى مازالت فى المحطة ، وأنى قد وصلت الى باريس فى ساعة مبكرة جدا وأنى أرغب فى احضـارها ، فتطوع الرجل وذهب معى . وأحضرنا الحقائب وتركتها فى الفندق ، ثم اصطحبنى الى البنسـيون لتناول العشاء . وقبل تناول العشاء تفاهمنا على الأجر ودفعت أجر شـهر كامل ـ وكان المبـلغ كله بالعملة المصريـة ـ لا يتعدى السـتة جنيهات ٦٠٠٠ر١٠٠٠ ألف فرنك وكان الفرنك فى ذلك الحين (١٩٣٩) يعادل ٦ مليمات أو أكثر قليلا . وكان هـذا الأجر يشمل كل شىء من سكن وجميع الوجبات والحمام ... الخ .. وكان الأجر مناسـبا جدا لميزانيتى ويقل كثيرا عنه فى لندن . وأجلسنى الرجل فى غرفـة جلوس مجاورة لغرفة الطعـام وبدأ فى محاولة هادئة للتحدث معى وهو يتعمد أن يبطىء فى كلامه حتى أفهم ما يقول . وكنت أفهم كل

ما يقول ولكني لا أستطيع الرد عليه بنفس السهولة • وكنت أسخط في هذه اللحظات على طريقة تعلمنا للغات في المدارس المصرية • لقد درست اللغة الفرنسية ٥ سنوات •• بل ٦ سنوات فهناك سنة اعادة •• سنة البكالوريا ، ومع ذلك فانى أجد نفسى الآن عاجزا عن النطق ببضع جمل قصيرة تعبر عما أريد أن أقوله — بغير تردد أو تلعثم ، وبغير الترجمة من العربية الى الفرنسية قبل النطق بها • ولكن الرجل كان يتقبل منى التردد والخطأ ، ويعيد الكلام مرة ومرات — وقد أفادنى هذا كثيرا فيما تلا من أيام وشهور قادمة •

بدأت في اليوم التالى الذهاب الى الأكاديمية وكانت الدراسة بعد الظهر كما سبق ان قلت • وكان الدارسون بالأكاديمية لايزيدون على خمسة أو ستة في تلك الآونة ، كلهم من الجنس اللطيف ما عدا رجل واحد وأنا • لم يكن هناك موديل حى • كل دارس يرسم ما يشاء باجتهاده الشخصى — وفي الغالب يكون الرسم من الخيال والكل تقريبا مشغولون بعمل لوحات كاملة صالحة للعرض في معظم الأحيان •

كنت في لندن ومع أوزنفانت أجد الدراسة تستمر أسابيع وشهورا حتى أتم ويتم غيرى من الزملاء دراسة بسيطة ولكنها جادة • وهنا في باريس وفي أكاديمية « فرناند ليجيه » — الكل يرسم لوحات كاملة قابلة للعرض في بضعة أيام • كان هذا غريبا وجديدا على • لم أستطع المقارنة بين ما كان يتم من عمل في أكاديمية ليجيه ، ومدرسة تشلسى مثلا فهناك فارق كبير • وأقول الحق فان ما كان يتم تحت نظرى في باريس شيء له قيمة بلاشك ، على الأقل كان الناظر يسر لبعض التوافقات في الألوان ، والجرأة في اختيارها ، كما كان هناك فكر وارادة في التكوين •

وقد ترددت كثيرا •• كيف أبدأ •• والأستاذ ليجيه لايزال في أمريكا • كنت في المدة الأخيرة اهتم كثيرا بسيزان بتفاحاته التى تتفجر

بأحاسيس عجيبة . لم أكن أفهم كنهها فى تلك اللحظة ، ولكن تكويناته كانت تبعث فى أحساسا « بالبطولة » Heroism وكنت ألاحظ لمساته باللون .. كل لمسة فى موضعها تتفجر من تحتها حياة .. أنا الذى فشلت فى لندن فى أول عمل لى بالألوان الزيتية — جذب نظرى هذا المصور الرائع سيزان ، كى أتعلم منه شيئاً عن الألوان البناءة للشكل . ولكن سيزان صعب .. هو أعظم مصور فهم وظيفة اللون كاملة وبنى منها فنه العظيم . هذا ما كنت أراه وأعتقده ومازلت كذلك حتى هذه اللحظة .

جذبنى تفاح سيزان .. وشجعنى غياب ليجيه لكى أبدأ التجربة الثانية لى للتصوير الزيتى .

اشتريت سلة صغيرة تشبه سلات سيزان التى رسمها كثيرا ، واشتريت تفاحا كثيرا ، ورتبت « طبيعة صامتة » من السلة وبها التفاح ، وقطعة قماش تناثرت عليها بعض التفاحات . شىء قريب مما رأيته فى لوحات سيزان . وسألت مدام بوكييه أين أجد الكنفاش لاشترى ما أحتاجه ، فتطوع مسيو بوكييه وذهب معى واشتريت « الكنفاش والشاسيه » وبعض الألوان التى احتاجها . وقام هو بشد الكانفاش بنفسه على الشاسيه . وبدأت بتنفيذ ما تعلمته وما سمعته من أوزنفانت فى هذا المجال . دراسة بالقلم الرصاص على الورق للتحضير الجاد لما سأقوم بتنفيذه بالألوان . ثم نقله على الكنفاش بعد نقله على الورق الشفاف وصبغ ظهره بلون يمكن أن يضيع مع التلوين النهائى .

قمت بهذه العملية بدقة متناهية .. تلميذ مجتهد ينفذ تعليمات أستاذه بعد أن حفظها عن ظهر قلب .

كانت السلة ذات ذراع كبيرة من الخيرزان المجدول فى نظام لطيف ، وقد شدت انتباهى هذه الذراع . ونسيت التفاح فى تلك

اللحظة ، وتركز اهتمامى كله على هـذه السلة ونسيجها الممتع • كان كل شيء مرسوما وما على الا أن أضع الالوان ولكن ، حدث شيء رهيب •• لم ألحظه الا بعد فترة انقضت على انهماكى فى العمل •

لقد بدأت فى استعمال اللون •• ووجدت الفرشاة باللون تنزلق بخفة على ما رسمته من الخيزران المجدول . لا تهتم بالخط المرسوم بل تخلق فى انزلاقها وفى سرعتها ذلك النظام البديع للخيزران المجدول، وكذلك فى النسيج الجميل للسلة • اندمجت تماما فى العمل وأنـا سعيد لأرى السلة تبرز تحت ضربات الفرشاة المملوءة باللون وهى تعرف طريقها تماما وقد محت الخطوط المرسومة وسارت فى خط جديد •• هى التى ترسمه لنفسها ــ ولم يستطع أى خط مما رسمته مسبقا أن يحد سيرها ــ فهى تعمل والسـلة تظهر رويدا •• رويدا •• قويـة رائعة • وتوقفت عن العمل •• بعد أكثر من ساعة كاملة وأنـا منهمك تماما •• وتركت الفرشـاة من يدى وكذا « الباليت » •• وبدأت أتأمل ما رسمت •• وفوجئت أن بعضا من زملائى الدارسـين يقفون خلفى وهم يظهرون اعجابهم الشديد بالمهارة التى أظهرتها فى رسـم هذه السلة بتلك السهولة وانسياب الفرشاة باللون بسرعة ودقة والسلة تظهر بهذه الروعة •

هكذا عبروا لى عن اعجابهم وانهم يعتقدون اننى تعلمت هـذه المهارة عند أوزنفانت وأننى مصـور زيتى ماهر ••• ! ••• سبحان الله ! •• ان هـذه كانت تجربتى الثانية ــ بعد التجربة الأولى مع أوزنفانت ــ وقد منيت بالفشل الذريع مما جعلنى أعدل تماما عن أية محاولة أخرى للتصـوير بالألوان الزيتية • كيف يمكن أن أنجح •• وهـل هـذا النجـاح فعلا •• لقـد تخليت تماما عن تعليمـات أوزنفانت عند أول لمسـة للفرشـاة على الكنفـاش • هـذا التحضير الطويل بالرسـم والنقل بالشفاف ــ والعنايـة الفائقـة بعمليـة النقل •• كل هـذا قد محتـه الفرشـاة المنسـابة فى حريـة على

الكنفاش .. كيف يمكنني تحطيم تعليمات أوزنفانت وأنجح .. هذه مسألة ينبغي التفكير فيها .. ينبغي امتحان كل شيء .

ولكنني كنت متيقنا تماما بأن أوزنفانت كان على حق وأن تعليماته صحيحة . ولكن ما حدث الآن .. قد أعجبني .. والنتيجة كانت محسوسة حازت اعجاب الزملاء كما حازت اعجابي .. هل أنا مخطىء ؟ .. أم أن هناك أكثر من طريق « Approach » وأن جميع الطرق تذهب الى روما » ـ كما يقولون .

أوقفت العمل واكتفيت بهذا النجاح الذى هنأني عليه الزملاء وكذا مدام بوكييه ومسيو بوكييه .

كانت احدى الطالبات أميريكية .. تتكلم الفرنسية بجانب الانجليزية بالطبع ، فسرعان ما تعرفت عليها حيث كنت أستعين بمعرفتها للفرنسية للتعبير عما كنت لا أستطيع التعبير عنه بالفرنسية . لم تكن مس « جلوجو » ـ وكان هـذا اسمها ـ تمت بصلة للجمال ، ولكن كان فى ملامحها سهولة وطيبة ـ عرفت فيما بعد أنها يهودية تدرس الفن منذ عامين مع فرناند ليجيه فى باريس ، وأنها ستعود آخر هـذا العام الى أمريكا . توطدت صلتى بجلوجو عن طريق اللغة أولا . وثانيا لاعجابها الشديد بمقدرتى فى « تصوير السلة » . وقد دعوتها الى غرفتى فى الفندق لترى أعمالى بالقلم الرصاص عند أوزنفانت فى لندن . وقد زاد اعجابها بما رأت .. وقالت انه بالرغم من اعجابها بما رأت من مهارتى فى رسم « السلة » الا أنها ترى أن دراساتى بالقلم عند أوزنفانت أكثر عمقا وجدية ، وتنم عن فهم ودراية بالقيم التشكيلية الحقة فى غير صخب أو استعراض .

فاجأتنى جلوجو بهذا الرأى السليم ، وزاد اعجابى بتقييمها الرصين ـ وقد توطدت صداقتنا فيما تلا من أيام وأحداث .

بدأت فى الأيام التالية السير قدما فى محاولتى هــذه فى التصوير الزيتى ــ وكان على أن أبدأ تجربتى مع « التفــاح » التفــاح الذى أغرانى به « سيزان » العظيم •• ولم تزل مشاهدتى لتفاحة فى لوحاته حاضرة فى مخيلتى ــ وكنت أتمنى حظــا مع التفــاح مثل ما نلته مع « السلة » • وبدأت التجربة مع التفاحة الأولى •• وبسرعة مع الثانية •• ولكن كان ما شهدت من تفاح سيزان مسيطرا على ذهنى •• لم أستطع الاستمرار •• توقفت تماما وشعرت بالفشل الذريع •

كيف جرؤت على هذه التجربة ؟ كيف أرسم تفاحا •• وتفــاح سيزان يدغدغ فكرى وحسى •• كل ما عملته •• أننى صبغت التفاح بالألوان ــ أهــذا هو سيزان ؟ •• بئس ما عملت •• اننى صبغت التفاح بالألوان •• لقد فشلت ثانية • اننى أخجل مما فعلت •• لقد نجحت تجربتى مع السلة لأننى كنت حرا تماما فى الطريقــة والفكر والمعالجة •• ضربت عرض الحائط بكل التعاليم التى حفظتها •• وقد نجحت •• ولكن تجربتى فشلت مع التفاح لأن سيزان كان يسيطر على فكرى وحسى ، وحاولت أن أسير على منواله •• وبكل بساطة فشلت •

وكانت هــذه التجربة « النصف فاشلة » هى الأخيرة لى فى التصوير الزيتى فى فرنسا • ولم أبدأ التجربة الثالثة الا فى مصر فى « المنيب » ، تلك القرية التى ولدت ونشأت فيها •

شعرت بتعب وارهاق •• مرضت ولزمت الفراش وانتابتنى حمى شديدة وقامت بالعناية بى من أول لحظة « جلوجو » الأمريكية • كنت أهذى من الحمى ولكنى كنت أشعر أنها بجانبى طوال الصباح ، ثم بعد مواعيد الأكاديميــة فى المساء • كانت عجيبــة تلك الزميلة « جلوجو » التى لم يكن قد انقضى على تعارفنا كزملاء فى المدرســة سوى نيف وأسبوع • لم يكن بيننا أى شىء سوى علاقة صــداقة بريئة بدأت منذ فترة قريبة جدا ولكنهــا تطوعت فى اخلاص وصدق

للعناية بى فى مرضى وفى غير مرضى ، حتى أننى لم أستطع نسـيان هذه الفتاة الأمريكية اليهودية الخالية من الجمال الأنثوى الذى يجذب الرجال ، ولكن قلبها كان مليئا بالخير والحنان •

لقد مرت السنون ــ أربعون عاما الآن ــ وأنـا لم أنس هذه الفتاة وتلك الصداقة البريئة التى أقامتها هى بيننا بعطائها الدائم ــ ولم تفكر لحظـة واحدة فى الأخذ أو الجزاء • شكرا لك يا « جلوجو » مرة ثانية حيث أنت وحيثما كنت •

كان الرجل الكهل صاحب البنسيون يأتينى بما يلزمنى من غذاء يناسـب مرضى كل يوم ، يحمله بنفسه ويسألنى اذا كنت فى حاجـة الى شىء •

شفيت من الحمى وانتقلت الى غرفتى فى البنسيون •• فقد جاء الرجل الكهل واصطحبنى اليها ــ وقد كانت حجرة متسعة مريحـة هادئة فى آخر الشقة بها مدفأة جيدة وبها كل الراحات •• وعدت الى الأكاديمية وبدأت العمل من جديد •• ولكن بالقلم الرصـاص هذه المرة •• فقد تركت أية رغبة فى العودة الى ألوان الزيت •

ولما لم يكن هناك « موديل » فكنت أرسم من ذاكرتى •• الانسان دائما •• والمرأة على وجه الخصـوص •• وبعد بضعة أيام جاءت مدام بوكييه بنبأ عودة الأستاذ ليجيه من أمريكا وأنه سيحضر الى الأكاديمية غدا بعد الظهر •

وفى الموعد حضر الأستاذ • وكانت الأكاديمية التى لم أر فيهـا فى الأيام التى مضت أكثر من ستة طلبة قد امتـلأت بما يقرب من الخمسة عشر طالبا وهو أقصى عدد تحتمله سعة القاعة المعدة لاستقبال الطلبـة •

حضر ليجيه •• رجل بسيط للغاية فى لباسه ، وتلك «الكاسكيت»

التى يضعها على رأسه مما يلبسه العمال . ربع القوام نغلب على قوامه السمنة وملامحه مريحة • لم يفكر فى أية أناقة فى لباسه ولم يفكر فى حركته ومشيته وقيامه وجلوسه • كان بسيطا فى كل شىء •• كل شىء فى فرناند ليجيه •• مظهره بالذات كان يختلف عنه عند أوزنفانت • كل شىء عند أوزنفانت كان محسوبا •• مظهره وحركاته ولباسه •• كنت أعقد مقارنة سريعة بين الاثنين فى الثوانى الأولى التى رأيت فيها فرناند ليجيه •

أحببت ليجيه فى بساطته المتناهية •• قامت مدام بوكيبه بتعريفه بالطلبة الجدد بعد أن سلم على القدامى بروح صداقة ومحبة ظاهرتين • وجاء دورى فعرفته بى على أنى جئت من لندن من عند أوزنفانت الذى رشح لى أكاديميته فى باريس لتكملة تعليمى ؛ حيث سافر هو الى أمريكا • فهش فى وجهى وسلم على فى حرارة ــ ومنذ ذلك الحين وهو ينادينى بالطالب الانجليزى • وبعد وقفة وتحية وكلام دعانا جميعا لشرب البيرة فى مقهى مجاور ــ وفعلا ذهبنا جميعا وشربنا البيرة على حسابه •

لم يحضر ليجيه الى الأكاديمية أسبوعا كاملا ، ثم بدأ يحضر بانتظام يوما بعد يوم •• كان يمارس النقد لكل طالب على حدة ، وليس كما كان يمارسه أوزنفانت • وجاء دورى بعد أيام •• كنت أرسم رأس امرأة •• بالقلم الرصاص •• وكنت أستعين فى الرؤية برؤوس الزميلات كلما احتجت الى ذلك •• وقلما كنت أحتاج • جاءنى ليجيه محييا باسما مرحبا بالانجليزى الذى جاء من لندن ، وطلب أن يرى بعض ما رسمته مع أوزنفانت فى لندن ــ وكنت أتوقع ذلك ــ بل كنت أرغب فى أن أعرف رأيه بالذات فى أعمالى مع أوزنفانت • فأحضرت بعض هذه الرسومات معى •• بل كنت آتى بها كل يوم متوقعا حضوره • وبدأت أريه واحدة بعد أخرى وقد

توقف عند دراسة ليد .. بد مطبقة الأصابع .. فى حجم اليد الطبيعية مكبرة أكثر من ستة أضعاف .. كانت دراسة واعية معمارية ، والنور فيها يلعب دورا متكاملا مع معمارية الشكل — وقد اقتبست كثيرا من شكل القوقع فى التصميم . توقف ليجيه طويلا أمام هذه الدراسة وقال انها ممتازة — وأنه يشعر بالحرارة والدفء Chaleur تنبعث منها — وأنه أعجب بها للغاية — وقال انه متأكد من أننى سأصل الى مستوى رفيع فى المستقبل . وشجعنى كلامه كثيرا .

وقد مر فى اليوم التالى ، وقد اعتاد فى كل مرة يأتى فيها الى الأكاديمية أن يبدى اهتمامه بى والتحدث الى وتوجيه بعض النصائح المفيدة فيما أعمله . وفعلا كانت ملاحظاته على العمل دائما مفيدة وفى الطريق الصحيح والى الأحسن دائما . وبعد مرور بضعة أسابيع دعانا (طلبة الأكاديمية) الى مرسمه لنرى عملا جديدا يقوم بتنفيذه . وهو يفضل أن نراه فى مراحل تنفيذه وقبل أن يكتمل لكى نستفيد من متابعة الأستاذ فى طريقته لتنفيذ فكره على الكنفاش . وذهبنا الى مرسم متواضع .. لم يكن فيه حائط واحد يتسع لحجم العمل الذى يقوم بتنفيذه فقد كان العمل من نوع الجداريات الكبيرة ولكنه، ينفذ على كنفاش . فما كان من ليجيه الا أن فرش الكنفاش على أرض المرسم وانطلق يرسم ويضع الألوان . ولما لم يكن عنده من سعة فى المكان ليرى ما يعمله عن بعد كاف ، فكان يصعد الى المكان المرتفع الذى كان مخصصا للنوم أو الجلوس فى مثل هذه المراسم : « صندرة » ولها سلم خشبى .

كان يصعد الى الصندرة ليجد المسافة الكافية ليرى العمل الكبير ككل . وكان له حس تعبيرى رائع فى معالجته للأشياء البسيطة العادية التى نستعملها كل يوم . وقد أعجبنى كثيرا معالجته لبعض « سنون

الريشة » (ريشة الكتابة) •• سنون معدنية عادية •• نسج منها شعرا رائعا بحسه المترع بالشفافية الشعرية واللونية • الواقع أنني استفدت من فرناند ليجيه كفنان مصـــور ممتاز أكثر من استفادتي منه كمدرس أستاذ موجه • على كل حـــال انني لم اســـتمر في دراستي الا ما يقرب من ستة شهور حيث انتهت الفترة الدراسية وجاءت الاجازة الصيفية • وفي أغسطس ١٩٣٩ قامت الحرب العالمية الثانية • ولم أعد لأكاديمية فرناند ليجيه بعد ذلك أبدا •

الدراسة مع ليجيه كانت بعد الظهر دائما وقد اعطـــاني هـــذا التوقيت للدراسة الفرصة لزيارة المتاحف في الصباح وخصوصا وان « كارنيه » الأكاديمية كان يعطيني الحق في زيارة المتاحف مجانا كطالب ودارس للفن التشكيلي • وقد كرست معظم الصبحيات لزيارة اللوفر العظيم •• القســـم المصري •• السومبري •• تمثـــال « النصر » ، ساموثتراسي Victoire de samothrace » وتمثـــال هـــيرا أوف ساموث « Hera of Samoth كان هـــؤلاء هم أصـــــدقائي المقربون بالنسبة للنحت في اللوفر وعلى رأسهم تمثـــال الكاتب المصري والتمثال الخشبي الصغير « توى » Toue من الفن المصري ورأس « جورا » من السومبري ، ثم ما ذكرته من اليوناني القديم عن عصر الأركايك ٥٠٠ قبل الميلاد ــ كان هؤلاء أصدقاء دائمين لي ، لا أزور اللوفر الا وأزورهم وأقضي بعض الوقت مع أحدهم •

أما بالنسبة للتصوير ــ فكان لي أصدقاء كثيرون أتردد عليهم باستمرار : رمبرانت •• وتحفته الرائعة « سوزان في الحمام » • ويدا وأصابع الموناليزا كانا مما يشـــدني دائما للتوقف أمامها •

ولكن درسي الكبير الذي ظل يشغل تفكيري سنين طويلة كان رسام فرنسا الكبير « بوسان » Poussin •• وكان اللوفر يحوي أكبر مجموعة لهذا الرســـام الكبير • وقـــد أخذ كل اهتمـــامي في

الدراســة : حســابه الرياضى لكل شيء ــ لكل سنتى متر مربع فى اللوحة •• لكل لمسة •• لكل بقعة لون •• لكل منطقة ضوء أو اظلام مهما صغرت أو كبرت ــ هــذا الفنان ذو الحساب الرياضى والحس الرائع الذى قال عن نفسه انه « لم يترك شيئا •• يضاف أو يدرك » I left nothing كان درسا كبيرا لى ولا يزال •

ثم زميله ومعاصره الكبير « كلود لوران » Claude Loren ذلك الرسام الذى تخصص فى رسم الطبيعة من ســماء وماء ومبان •• ذلك الرســام الذى أعطى « للنور » ــ ولا أقول الضوء ــ فالنور فى نظرى شيء مختلف تماما عن الضوء •• النور الذى يشع وينبع من كل شيء •• ليس له مصــدر معين •• ولكن كل الأشياء مصدر له •• لقد أعطى هذا الفنان الكبير للنور صفة القدسية •• وللطبيعة سعة لا محدودة •• ان أعماله تملأ النفس بانطلاقه الى اللامحدود ، فى نور قدسى شفاف • وقد لاحظت شــيئا ما فى الأشخاص الذين كان يرسمهم •• كانوا بمثابة اضافة ليست على المستوى الذى رسم به الطبيعة •• وقد قرأت فيما بعد عن هــذا الفنــان أنه كان يستعين بفنــان آخر فى رسم الأشخاص فى صــوره حيث أنه لم يكن يتقن رسمهم •• وقد يكون هــذا صحيحا أو غير صحيح •• ولكن من مظاهر العمل ان رســوم الأشخاص عند « كلود لوران » فى مستوى غير ذلك المستوى الرائع لرسمه الطبيعة •• سماء وبحرا وبناية عمارة وغــيرها •

وقــد كانت المتاحف الأخرى تأخــذ جزءا من وقتى : متحف musée Guimet **ومتحف الانسان** musée de L'homme وهو متحف عن الانسان فى كل مكان ــ وكان رائعا ثم المعارض وقاعات العرض الكبيرة منها والصغيرة •• والتى كانت لا تزيد على حجرة ٤ × ٥ م وبها كراسى وترابيزات قديمــة معروضــة توضع فوقها

لوحات والبعض الآخر معلق على الحوائط ــ وكانت هــذه القاعات الصغيرة أكثر بيعا ، وتفتح مجالا طيبا للفنانين الناشئين لتســويق أعمالهم ، فكانت هذه القاعات تبيع كل شيء ومنها اللوحات الفنية .

في البنسيون ــ كنا نتناول الطعام : طعام الغداء والعشــاء في حجرة الطعام ــ معا ــ المقيمون في البنسيون وآخرون كانوا يأتون لتناول الطعام فقط نظير أجر معين .. واني أذكر منهم شابا مصريا جاء باريس ليدرس الفلسفة وبدأ بدراســة اللغة الفرنسية في « اليانس الفرنسي » Alliance Precmeaire Francaise وربطتني به صداقة في تلك الآونة ــ فكان يأتي الى غرفتي بعد الانتهاء من الطعــام لكي نتحدث سويا . كان حديثا جادا بين شابين في مثل ذلك السن ــ دارس للفن ودارس للفلسفة ــ وكان الحديث دائما مفيدا ــ وكان يجد في آرائي جدية وعمقا لا تتناسب مع سني في ذلك الوقت . وكنت أرى أنــا فيه ذكاء وطموحا من خريج من « دار العلوم » . كان هذا الشاب هو محمود قاســم الذي أصبح فيما بعد عميدا لدار العــلوم ، وله مؤلفات مرموقة ــ وقد توفاه الله منذ أمد غير بعيد . وكان هنــاك أيضــا عراقي من غــير المقيمين ، لم أجد له مدخــلا لكي أعرفــه أو اصادقه .. كان متحمسا دائما في الكلام عن بلده . يشتط في المديح حتى ليبتسم الجميع في صمت . وكنت أنــا أشعر بالخجل له للشطط والمبالغة التي كانت تغلب على حديثه عن بلده العراق . وقد انفردت به يوما حــاولت أن ألفت نظره الى موقف الســامعين له من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، فما كان منه الا أن سبني بكل بساطة . فقطعت صلتي به فورا ولم أحاول أن أتحدث اليه في ذلك على الاطلاق. وقد تدخل محمود قاسم لاصلاح ذات البين ، ولكنني ابتعدت عن كل صلة به .

ثم جاء الى البنسيون أربعة من الانجليز رجــلان وفتاتان ..

الفتاتان وجدتا مكانا للاقامة بالنسيون والرجلان آقاما بالفندق وكانا يأتيان لتناول الطعام معنا •• وقد فرحت لقدوم هؤلاء الانجليز ، فهم يعرفون قدرا من الفرنسية وجاءوا ليتخصصوا فى اللغة واتقانها لتدريسها فى انجلترا •• وكان وجودهم متنفسا لى لكى أتحدث بلغة أعرفها ـ وقد كانت تدور بينى وبينهم بعض الأحاديث ونحن على مائدة الطعام بالانجليزية ، فاعترض القائمون على البنسيون على استعمال اللغة الانجليزية ـ فالواجب علينا جميعا أن نتحدث بالفرنسية ـ فنحن جميعا هنا مطالبون باتقانها ، فأقاموا نظاما جزافيا يغرم كل من يتحدث بلغة غير الفرنسية على مائدة الطعام ، بأن يدفع غرامة قدرها ٢٥ سنتيما ـ أى ربع فرنك • وجاءوا بحصالة على شكل فيل ، كانت تبتلع النقود ابتلاعا ـ وكانت تمتلىء ـ وكان امتلاؤها دائما يكون من حر مالى ـ الا مانذر • وقد لاحظ الجميع ذلك فكانت الحصالة توضع دائما بجانبى والواقع أن هذه الحصالة أفادتنى ، فبدأت أتقدم فى الفرنسية فى سرعة لا بأس بها ، وبعد أن كانت الحصالة تمتلىء فى أسبوع أصبحت تمتلىء فى أسبوعين •• ثم فى شهر •• وكانت هذه علامة طيبة على تقدمى فى اللغة الفرنسية •

وكان تقليدا لطيفا من أصحاب الدار أنه عندما تمتلىء الحصالة تفرغ من النقود ، ويقام حفل صغير لأعضاء الدار لتناول « الجلاس » والشمبانيا •• على حساب الحصالة •• أى على حسابى فى أول الأمر •

كانت غرفتى فى نهاية دهليز طويل فى آخر الشقة ـ وفى الغرفة التى تجاورنى تماما كانت تقيم الفتاتان الانجليزيتان •• وقد توطدت صلتى بهما عن طريق اللغة الانجليزية التى كنا نستعملها فى غير وقت الطعام خوفا من الغرامة • وكانت الفتاتان فى الصباح فى دراستهما جادتين مع الشابين الانجليزيين ، ولكن فى المساء كانتا تلهوان وتتمتعان بحياتهما فى باريس وملاهيها •

وكانت حياتى تسير فى نظام تام على وتيرة واحدة تقريبا : الصباح ـ فى المتاحف والمعارض .. بعد الظهر ـ فى الاكاديمية فى المساء .. قارئا جادا حتى ساعة متأخرة من الليل . وكانت قراءاتى دائما جادة . كنت احاول أن أبنى نفسى .. ان أحقق ذاتى .. كنت أحاول أن أعوض ذلك النقص الذى واكب الفترة الدراسية التى عشتها فى مصر . لم تكن ثقافتنا تتعدى الكتب المدرسية وبعض المجلات .. القصص والروايات .. ولم آكن أعرف عن الثقافة الا ما هو متاح من مثل ما ذكرت .. والآن وقد فتحت الأبواب على بالذات . عشت مع الفكر الانسانى فى أعلى مراتبه : سواء مع الكلمة بناء شخصيتى . ولذا كان الاختيار دائما للقمم وليس أقل من القمم فى جميع المجالات الثقافية . وكان هذا محتما فى هذه المرحلة أو التشكيل أو الموسيقى . وقد تركت الفكر الانسانى فى مراتبه مصراعيها أمامى ، وأصبحت كل مناهج الثقافة متاحة فى يسر .. فكان على أنا الآن أن أختار ما يوائم حاجتى وما يمهد لى الطريق الى الأدنى الى ما بعد مراحل تكوين الشخصية ... الى مرحلة النضوج حيث أتمكن من أن أقبل أو أرفض برأى صائب وحكم ناضج وقد كان لهذا أثر كبير فى حياتى المستقبلة . القمم مقياس صعب للغاية .. حتى كان يعترينى اليأس أحيانا كلما فكرت فى تلك الخبرات الرائعة التى وصل اليها هؤلاء البشر الذين اعتلوا تلك القمم . كان هذا المقياس الصعب ماثلا أمامى لا يبرح مخيلتى لحظة واحدة .. جعلنى هذا المقياس أعى وأعرف قدر نفسى فى كل حقبة من حياتى وأعرف أين أنا من هؤلاء الجبابرة .. جبابرة الفكر والفن .. وكان لهذا الوعى فضيلة كبرى بالنسبة لى ـ فقد بدأت أنقد ذاتى فى كل خطوة أخطوها سواء فى مجال العطاء الفنى أو فى المجال السلوكى والخلقى. كنت أحاسب نفسى حسابا عسيرا ، وكان هذا داعيا لأن أذهب بعيدا فى تأملاتى .. فى كل ما يمس حياتى .

فى ليلة من الليـالى كنت ساهرا أقرأ كتابـا لـ « الى فور »
Spirit of the form وكان « الى فور » فى قمتـه فى ذلك الجزء
الأخير من كتابه عن تاريخ الفن التشكيلى ٠ وهو عبارة عن بلورة
لفكر « فور » عن الفن والحضـارة والانسان ٠ وكنت مستغرقا فى
قراءتى ٠٠ وكانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل ٠٠ عندما سمعت
حركة فى الدهليز وباب الحجرة المجـاورة يفتح ثم يقفل فى عنف
وأصوات مغمغمـة ٠ فعرفت أن الفتاتين الانجليزيتين قـد عادتا من
سهرتهما ٠ وذهب تأثير هذه الأصوات ، وعدت الى القراءة مرة ثانية ٠
ولكن لم يمض أكثر من بضـع دقائق لا تتجاوز العشر حتى سمعت
باب الغرفة المجاورة يفتح وخطوات تأتى نحو بابى ٠٠ تركت الكتـاب
جانبا وأرهفت السمع لهذه الخطوات ٠ كانت الخطوات غير منتظمة٠٠
ثقيلة ٠٠ بطيئة ٠٠ مترنحة ٠٠ لم أفهم منها شيئا ٠٠ غير أنهـا توقفت
عند باب غرفتى ٠٠ وبعد برهة انفتح الباب ـ الذى لم أكن أغلقـه
الا عند النوم ـ انفتح الباب بدفعة غير محسوبة ، وظهرت على عتبته
« بولين » كبرى الفتاتين الانجليزيتين ٠ وقفت بولين على عتبـة
الباب ، وهى فى قميص شفاف تماما ٠٠ شبه عارية ٠٠ وقد برز أحد
نهديها من القميص ، وقد ارتخت جفونها وتحركت شفتاها ببضـع
كلمات غير مفهومة ثم تقدمت نحوى ٠ وقفت لاستقبالها ولا أعرف
ماذا تريد فى هـذه الساعة ٠٠ تقدمت نحوى فى خطوات مترنحة ،
وجسدها الذى كان عاريا تماما الا من تلك الغلالة الرقيقة التى لاتحجب
شيئا ـ يهتز فى امتلائه الخفيف ولونه المرمرى الشفاف فى كل خطوة
تخطوها نحوى ٠ سألتها بلطف ٠٠ هل لها حاجة أقضيها لها ٠٠٠ ؟
لم تجب وجعلت تتقدم نحوى ، تترنح فى مشيتها ٠ عقدت الدهشـة
لسانى برهة ٠٠ وقد فهمت أنها سكرى وفى غير وعيها ٠٠ وشعرت
أن كل ما فيها قد تحول الى رغبة جامحة تطلب الارتواء ٠ ووقفت
مذهولا عندما ارتمت بين ذراعى ، وقد تلقفتها خوفا من سقوطها ٠

كانت هذه صورة ربما تخيلتها فى أحلام اليقظة منذ بضع سنوات وكانت الرغبة والغريزة توحى الى بمثل هذه الصورة . فتاة فى سن العشرين متوسطة الجمال ولكن لها قوام رائع .. ذات بشرة ناصعة البياض شفافة وصدر وجراح مغر .. كان يمكن لهذه الصورة أن تكون فى أحلام اليقظة كما قلت .. ولكنها الآن حقيقة واقعية .. ولكن أنا الآن غير ما كنت ، ان أحلامى لم تعد أحلام اليقظة ، وان سيطرتى على شهواتى وغرائزى أصبحت واقعة ، وان فكرى أصبح معلقا بمثل أخرى ترتفع على مستوى الغريزة والرغبة المؤقتة . وبولين هذه سكرى .. وان علاقتى بها لا تتعدى تبادل بضع كلمات كل يوم بالانجليزية على مائدة الطعام وعندما تتقابل صدفة ، فكيف يمكن لهذه العلاقة أن تمتد الى أكثر من ذلك . لم يكن بينى وبينها أية عاطفة ، وهى الآن تطلب الارتواء واشباع رغبتها — وهذا حق طبيعى لها ولكل امرأة — ولكن مع الرجل الذى تتبادل معه نفس الميل ونفس العاطفة ، ولكن ليس مع أى رجل .

كانت هذه اللمحات السريعة من الفكر تمر فى مخيلتى بالرغم من تأثرى بمنظر « بولين » وجسدها الرائع من تحت الغلالة الشفافة ، ينبض كل جزء فيه بالرغبة الحارة الجامحة . ولكنى تمالكت نفسى تماما ، وانتصرت على نفسى وعلى غرائزى .

تحدثت اليها : هى متعبة فعلا والأجدر بها أن تذهب الى غرفتها لتنام وتستريح ، وأننا يمكن أن نتحدث كثيرا فى الصباح — وقرنت حديثى بان أحطتها بذراعى سائرا بها نحو الباب .. نحو غرفتها ، ودخلت معها حتى فراشها ، وساعدتها حتى استلقت فى استرخاء تام على الفراش .. ولم تشعر زميلتها بأى شىء من ذلك فقد كانت تغط فى نومها .

كانت تجربة .. قاسية على .. شدت كل أعصابى ، وكأن نضالا

شديدا وصراعا مريرا يحتدم داخلى وأنــا أقاوم . كان ما حدث ..
يعد فيما مضى حلما وأمنية لى .. بل ولأى شــاب فى مثل سنى ..
ولكن لم أكن كمــا كنت فيما مضى .. لقد وضعت لنفسى مقاييس
خاصة لمثل تلك العلاقة .. ان الجنس ينبغى ألا يفهم بهذا المفهوم
الحيوانى .. انه شىء رائع .. يجب أن نرتفع به وأن نرتفع له ..
انه نصف الحياة .. ان امتناعى عن مجــاراة بولين فى رغبتها لم يكن
ناتجا عن عفة « جسدية » بمفهومها العامى ، ولكنه كان ناتجــا عن
عفة فكرية ناتجا عن احترام للجنس ، والارتفــاع به الى المســتوى
اللائق . انه علاقة رائعة بين الرجل والمرأة ، علاقة تمت ونضجت
برعاية من الاثنين معــا ، تظللها عاطفة مشــتركة من الحب والاحترام
المتبادل . ثم تأتى العلاقة الجنسية ثمرة طبيعية لهذا الحب والاحترام
المتبادل . انه الجنس على المستوى الانسانى المتحضر .

لم أنم تلك الليلة حتى الصباح وهذه الأفكار فى رأسى ، ومازال
منظر ذلك الجســد البض تحت تلك الغــلالة الشفافــة تزيد من
اغوائه ـ ينادى ... وأنــا اتململ فى الفراش . هل اخطــأت فى
حق الغريزة الطبيعية التى ناداها جسد « بولين » الجميل ... ؟ ...
هل أنــا مقتنع فعلا بتلك السفسطة التى ملأت بها رأسى عن العفــة
الفكرية ؟ .. هل هــذا التفكير كان مقنعا حقا لى .. ؟ .. أو أننى
كنت أعيش فى عــالم المثاليات وعــالم ما قرأت فى الكتب .. ؟ ..
هل أنــا نادم على فوات هــذه الفرصــة ؟ هــل تغضب « بولين »
لكرامتها ؟ ربما .. وربما لا .. انها كانت لا تعى تماما ما تفعل . ان
الخمر والرغبة كانت تدفعها الى ما فعلت وهى نصف واعية . ولكن
لمــاذا هــذا التشكك فى قنــاعتى .. لقد تصرفت معها بكياســة
وحكمة ، وربما كانت تلك الأفكار قد تمثلتها فعلا ـ فقد أثبتت
الأيام والسنون القادمة أننى كنت كذلك ـ كنت مقتنعا تماما بتلك
الأفكار التى تضع الجنس والعــلاقة الجنسية على مستوى انسانى

رفيع • لم أر « بولين » فى اليوم التالى على مائدة الطعام وقد حمدت الله على ذلك • كنت اتوقع شيئا ما قد يعترى الفتاة ويعترينى أنـا أيضا اذا ما تقابلنا ، ولكنها لم تأت • وقد علمت من زميلتها أنهـا متوعكة قليلا ، بل وأنهما راحلتان غدا عن باريس •

ورحلت بولين وزميلتها •• ولم أرها بعد ذلك أبدا •

واصلت حيـاتى فى باريس بين المتحف صباحـا والأكاديميـة والاستفادة من نقد « ليجيه » Leger عصرا •• ثم الاستقرار فى حجرتى مساء مع الكتاب • ولكنى كنت فى بعض الأمسيات أكسر هذه القاعدة لكى أذهب الى الموسيقى •• الى « كونسرت » الى « أوبرا » • وكان رسم الدخول الى مثل هـذه الحفلات فى ذلك الوقت لا يتعدى بضع فرنكات • وقد تعرفت على فاجنر •• وبيتهوفن •• وديبوسى •• وهونجر •• وبيلابارتوك وغيرهم من تلك الحفلات الموسيقية •

وبيتهوفن الذى كان بعيدا عنى فى لندن ، ولم استسغ من موسيقاه الا القليل ، بل لم يرسخ فى ذهنى ولا أقول فى قلبى سوى السيمفونية السادسة « الريفية » ، وفيها كنت أشـعر بأن بيتهوفن قد ترجم الطبيعة فى معادلات موسيقية صرفة عبرت تماما عن مضامين أدبيـة وتصويرية فى نفس الوقت « ذلك الركب الذى خرج يسير فى جو صاف رائق ومن حوله الطبيعة بمنظرها البهيج ، يسعد بها حتى بدأت العاصفة وهدوؤها تلك الابتهالات من الركب لزوال الخطر ـ ابتهالات الى السماء » ـ وقد عبر بيتهوفن عن كل هـذا بما لايدع أى شك فى قدراته • ولكن اعجـابى وتقديرى لبيتهوفن لم يتعد حتى تلك اللحظة الاعجاب الذهنى بتلك القدرات • كان لباخ وموزار المكانة الأولى التى استحوذت على وجدانى وفى احدى هذه الحفلات وكانت الأوركسترا تعزف كونشرتو « براندنبيرج » لبـاخ جاورتنى فتـاة

لاحظت استغراقها الكامل فى الاصغاء . لم تكن جميلة بمعنى الجمال بالمقاييس المعروفة .. ولكن اصغاءها وتركيز انتباهها التام على الموسيقى أضفى على وجهها مسحة من جمال آخر ، تغلب عليه روحانية أكاد أحس بها تنتشر من حول ذلك الوجه ، فى انتباهته اليقظى للنغم . خرجت من الحفل الى الشارع وكان الجو باردا والسماء تمطر رذاذا خفيفا فاقفلت معطفى وسرت على قدمى الى البيت ، ومازالت الموسيقى والنغم الرائع « لأستاذ الأساتذة » باخ ــ يملأ كل جوانحى .

ها هو أستاذ عملاق قد وصل الى ذلك المستوى الرفيع ــ والرفيع جدا ــ هل يمكن لأحد يأتى بعده أن يصل الى ذلك المستوى ؟ هل يمكن لدارس للفن مثلى أن يصل الى قبس صغير مما وصل اليه ذلك العملاق من قيم ؟ ينبغى أن يكون الهدف هو هذا ــ والا فلا داعى للتمسك بالطريق .

وكانت الأفكار تتزاحم فى مخيلتى وأنا أسير تحت المطر .. هل يمكن لهذه القمم العملاقة التى أقارن نفسى بها أن تدع اليأس ينفذ الى قلبى ؟ اننى فى بداية الطريق . ولكنى أضع أمامى آمالا كبارا .. اسعى لتحقيقها .. واذا كان الهدف كبيرا والغاية سامية فان الطريق سيكون وعرا وشاقا . هل أنا كفؤ لمثل هذه المسيرة ؟ هل ابتعد عن هذه القيم حتى لا يدب اليأس فى نفسى .. أم أقبل التحدى المستمر حتى يستحثنى الى السير فى الطريق ؟

انهم عمالقة ولايمكن الوصول اليهم .. ربما يكون هذا حقا .. ولكن ليكونوا لنا نبراسا ومقياسا لما نحققه ــ ليكونوا لنا علامات تضىء لنا الطريق لما يمكن للانسان أن يحققه .

لم ينقطع رذاذ المطر وأنا أسير فى خطوات منتظمة .. كذا لم تنقطع سلسلة أفكارى عن عمالقة الفن فى كل فرع ، وما أمكنهم تحقيقه

فى حياة قصيرة اذا ما قيست لهذا الهرم الضخم الذى انجزه كل منهم بشخصه • وبالرغم من أنى كنت أشعر بعجز وقصـور ازاء هؤلاء العمالقة الا أن اليأس لم يدب فى نفسى ، بل ربما كان هـذا حافزا ومشجعا لأسير فى نفس الدرب ــ ولا يهم الى أين أصل ــ أو الى أى من المستويات الرفيعة يمكننى الوصـول • المهم هو أن أسـير ولا أتوقف بوعى كامل لهـذا الميزان الدقيق للقيم • لهـذا الميزان الصارم الذى وضعه هؤلاء العمالقة ومن قبلهم العديدون •• لأقيس به ما أحقق ولأعرف أين أنـا •• ولأبنى به نقدى الذاتى ومقاييسى للعمل الفنى •

وصلت الى محل سكنى وقد بللنى المطر ولم يكن غزيرا ، بل أن هذا الرذاذ قد ساعد سلسلة أفكارى أن تنساب فى طريقها بغير معوق، وساعد فى ذلك أيضا رتابة الخطوة التى كنت اخطوها باتزان وثبات •

صعدت بضع درجات فى مدخل البناية حتى حاذيت « حارسـة الباب » Concierge فحييتها وعمدت رأسا الى « الأسانسير » ــ المصعد ــ وقد لاحظت أن بابه يكاد يغلق فلحقت به ودلفت الى الداخل••وكانت به فتاة تشبه تماما تلك الفتاة التى كانت تجلس على مقربة منى فى حفل الموسيقى الذى عدت منه فى التو ! وقد دهشت عندما ابتسمت وحيتنى وسألتنى عن « أى الأدوار » سأصعد ، فرددت التحية وذكرت رقم الدور ــ فى فرنسية سليمة هذه المرة ــ ووجهت لى الحديث أثناء سير المصعد معلقة على الحفل الموسيقى وعما اذا كنت قد استمتعت بأداء الأوركسترا لموسيقى باخ • لقد رأتنى هى الأخرى فى الحفل •• لقد كانت ترقبنى أيضا •• فقد تعرفت على فى الحال ! أجبتها ان الحفل كان رائعا • ووصل المصعد الى الدور الرابع ففتحت الباب لأخرج وحييتها فقالت انها هى الأخرى تسكن هـذا الطابق فافسحت لها لكى تخرج قبلى • ودخلت الى الشقة المقابلة للشـقة

التى كنت اسكن حجرة منها • ومرت الأيام وكانت الصـــدفة تجمعنا فى مقابلات سريعة • وفى مرة وقفنا سويا على باب البناية ننتظر أن يخف المطر ليذهب كل الى حال سبيله ــ وبدأت تجاذبنى الحديث ، وكنت أفهم كل كلامها بالفرنسية ، ولكننى كنت أبحث عن مرادفات للكلمات العربية •• أذ أننى كنت اكون الجملة فى ذهنى أولا بالعربية ثم أجد ما يماثلها فى الفرنسية ، وعندما لا أجد ما يماثلها حاضرا فى ذهنى أستبدلها بكلمة انجليزية •• ومن هنا فهمت هى أننى ربما أكون انجليزيا فى الأصل ، فسألتنى وعرفتها بأنى مصرى ولكنى جئت من لندن حيث كنت أدرس الفن التشكيلى مع أستاذ فرنسى هو « فلان » ونطقت اسم أوزنفانت باعتزاز ، وأنى جئت لأكمـــل دراســـتى مع Leger الذى تقع مدرسته فى هذا الحى • فرحبت بى فى باريس وأنها سعيدة لتتعرف على فنان تشكيلى من مصر • وســـألتنى عن اسمى فذكرته لها ، وحاولت نطقه أكثر من مرة وأنـــا اصحح لها النطق حتى تمكنت من نطقه صحيحا • وسألتها عن اسمها فذكرت أن اسمها « سيمون » •

انى اذكر كل هذه التفاصيل عن تعرفى بسيمون هذه لأنهـــا كانت فى خلال الشهور الباقية لى فى باريس لاتكاد تفترق عنى ، وكان لها أثر كبير فى حياتى • لقد عرفت منها أنها تعمل فى مجال الاعلان •• وهذا العمل لكسب العيش ، وأنها تدرس الموسيقى والغناء ــ وان فنانها المفضل هو باخ ، وانها متدينة • لقد عرفت هـــذا فى تلك اللقاءات التى كانت فى معظم الأحيان مرتبة ــ حيث أنزل أنا فى الصباح الى المتاحف وتنزل هى الى عملها وقد تفاهمنا على توقيت معين لهذا اللقاء ــ وفى معظم الأحيـــان كنا نسير على الأقـــدام مسافات طويلة نتحدث قبل أن نفترق كل فى طريقـــه • توطدت الصـــلة •• وكثرت اللقاءات •• وكانت تدعونى الى الحفلات الموسيقية كلما وجدت منها ما يعجبها ويعجبنى •

زارتني في حجرتي لترى أعمالي ، وقد أبدت اعجابا شـديدا بتلك الرسوم التي رسمتها في لندن • وقد تنبأت لي بمستقبل حافـل في هذا المضمار •

زادت الألفة بيننا وبدأت تصحح لي لغتي وتصحبني الى المتاحف لنرى سويا الأعمال الفنية ، ولترى هي ما يعجبني منها . وزالت الكلفة تماما بيننا • وفي يوم استأذنت مني لتصحب بعض أصدقائها الى غرفتي ليتعرفوا علي وعلى أعمالي ، فرحبت بذلك •

وجاءت وجاء اصدقاؤها ولدهشتي كانوا أربعة : امرأة في سن الخمسين تقريبا وثلاثة شبان لم يتجاوزا الثلاثين من عمرهم ــ والثلاثة كانوا « قساوسة » في زيهم المعهود ، وكانوا جميعا في غاية التعاطف معي ومع عمـلي مقدرين له • وبدأوا حوارا جـادا معي عن الفـن والحياة ــ وخرجوا في النهاية وقد شعرت انني كنت ندا للحوار على هذا المستوى الذي أثاروه •

وجاءتني سيمون في اليوم التالي وهي فرحة باسمة وقالت لي • انك أثرت اعجاب الجميع بحوارك المقتضب الحاسم الذي أشـعرهم بأنك تعرف أكثر مما تقول وتبدي ، وأنهم يرجون أن أقبل الدعوة الى حفل موسيقي ديني يقيمونه في مكان ما للأطفال اليتامى •

فقبلت الدعوة شاكرا •• وذهبت فعلا وقد اصحطبتني سيمون وعشت وقتا جميلا مع انشاد الأطفال السريع القصـير المحسـوب موسيقيا • كان هــذا اللون جديدا علي •• كانت الأنشودة لا تزيد على دقائق لا تعدو الثلاث أو الأربع ، وهي مملوءة بالحس والجمال • وعدت الى المنزل وأنـا ممتلىء بنشوة لطيفة من تلك الأناشـيد السريعة الجميلة •• الحياة فيها الكثير مما لا أعرف •• ان « باخ » يرتفع بي الى الرفيع من الحـالات النفسية ، وكذلك كان هـؤلاء الأطفال •• ان أناشيدهم لم تبرح ذاكرتي أبدا •

تطورت العلاقة بيني وبين سيمون •• زادت لقاءاتنا •• وتقاربت ميولنا •• وبدأت هي في الاهتمام بالفن التشكيلي بشكل يكاد يماثل اهتمامهـا بالموسيقى •• كانت كاثوليكية متدينـة •• تؤمن بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ايمانا قاطعا •• طلبت منها يوما ان نزور كنيسة « سان سلبيس » حيث توجد لوحتان كبيرتان للمصور « ديلاكروا » •

وذهبنا فعلا وأمضينا بعض الوقت في دراسة وتذوق اللوحتين ثم مشاهدة عمارة الكنيسة من الداخل والخـارج • وقد قامت هي ببعض الحركات الروتينية عند دخولها الكنيسة •• وقد اسـترعت انتباهي تلك الحركات •• هل هي فعلا جزء من الدين ؟ أم هي مظهر تقليدي كتعاليم الكنيسة ؟ •

وفي يوم آخر ذهبنا سـويا لزيـارة بعض الكنـائس لتذوق عمارتها ، وانتقلنا من كنيسـة الى أخرى • وفي احدى الكنـائس الصغيرة « سان جوليان ليوفر » سمعت ترتيلا بلغة أعرفها ، وأصغيت السمع فكانت العربية ، وكان القسيس الذي يتلو القداس عربيـا شاميا •• هي كنيسة كاثوليكية تتبع الطقوس الشرقية •

وأمضينا عدة أيام في زيارات متعددة للكنائس ، وكانت هـذه الزيارات مفيدة لي سـواء من ناحية التشكيل ـ العمارة ـ أو من ناحية تفهمي للطقوس الكنسية المختلفة •

وفي يوم سألت « سيمون » هل يمكنك الصـلاةذ في آية كنيسة من هؤلاء ؟ قالت نعم في كل الكنـائس الكاثوليكيـة أما غيرها من الأرثوذكس أو البروتستانت فلا ••• فاظهرت لها دهشتي : ان كل الكنائس مسيحية ـ وهل يعبد الله في كنيسة ولا يمكن عبادته في أخرى فلم تحر جوابا ، فلم تكن تعرف كيف تجيب •• ولكن السؤال ظل يلح عليها في طلب الجواب طيلة الأيام والشهور التالية ، عدت الى المنزل وأنـا أيضا أفكر في الاجابة •

عندما وصلت الى الأكاديمية بعد انتهاء اجازة نهاية الأسبوع — أى بعد ظهر يوم الاثنين التالى — قابلتنى « جلوجو » الفتاة الأمريكية — وقالت ان أحدا ما جاء يطلب مقابلتى ، وأن هذا الأحد ترك بطاقة باسمه لما لم يجدنى ، وناولتنى البطاقة فقرأت الاسم . وكان الاسم الأول جورج أما الثانى فكان ينطق بالفرنسية « أتان » ولم أستطع معرفة جنسية هذا الشخص من اسمه ، ولم أذكر انني تعرفت على أحد بهذا الاسم من قبل ، وطلبت من « جلوجو » أن تصفه لى — فقالت انه طويل القامة يميل لون بشرته الى السمرة .. شعره أسود ، وأن ملامحه ايطالية على الأغلب . فلم تزدنى هذه المعلومات شيئا لمعرفة شخصه وأخذت البطاقة . ثم أردفت بانه ذكر أنه سيعود غدا فى ساعة متأخرة بعد الظهر ويرجو أن يجدنى . وفى اليوم التالى انتظرت فى الأكاديمية حضور « جورج أتان » هذا . وفعلا حضر وكانت هيأته كما وصفته لى « جلوجو » وتقدم للتو منها وطلب منها بفرنسية سليمة أن تعرفه براتب صديق لأنه لا يعرفه ولم يقابله قبل اليوم . وفعلا تقدمت تصحبه نحوى حيث كنت جالسا أرقب هذا الضيف . وعندما التقينا قدم نفسه الى بانه جورج حنين وهو مصرى صميم وأن « اتان » هذه تعنى حنين . وذكر لى أن أصدقائى فى القاهرة وعلى رأسهم يوسف العفيفى وكامل التلمسانى قد أحاطوه علما بأنى أدرس الفن التشكيلى فى باريس مع فرناند ليجيه، وانه هو نفسه كاتب وشاعر ويهتم اهتماما كبيرا بالفنانين المصريين ، وأنه يقيم حاليا فى باريس ، وانه أراد أن يتعرف على وأنه على استعداد لتقديم معرفته بباريس التى يتردد عليها كثيرا من مساعدتى بالشكل الذى أراه . وقد وجدت فيه شخصا رقيقا له شخصية جذابة سهل قبوله ودعانى للذهاب معه بعد الأكاديمية ليعرفنى ببعض الأصدقاء الفرنسيين المثقفين والمهتمين بالثقافة — أدبا وشعرا وفنا تشكيليا — وكذلك لتناول العشاء معه .. فقبلت الدعوة .. وفعلا خرجنا وذهبنا

الى مكان يعرفه هو من قبل ــ وقال ان كثيرا من الفنانين والشعراء يرتادون هذا المكان • وكان المكان يزدان بالمرايا •• حتى السقف كانت به مرآة •• وسألت « جورج » عن اسم هــذا المكان فقال انه « كافيه فلور » Cafée Flore •• وجلسنا نتحدث ، وأراد هو ان يعرف كل شىء عنى ، فأجملت له ملخصا عن دراستى مع أوزنفانت فى لندن ، وما أنــا الآن بصدده مع ليجيه ، وبالمثل أردت أن أعرف عنه وعن شخصيته واهتماماته وسر اهتمامه بالفنون التشكيليــة ، فذكر لى فى اختصار بأنه يكتب الشعر بالفرنسية • وسر اهتمامه الكبير بالفن التشكيلى تلك الصــلة الكبيرة التى ربطت الفن التشــكيلى السريالى بالأدب • وكانت السيريالية فى ذلك الوقت سنة ١٩٣٩ فى أوجها ، ســواء فى الفن التشكيلى أو فى الأدب ــ وانه هو نفســه سيريالى النزعة فى شعره وكتاباته الأدبية •

عرفنى جورج حنين ببعض الكتــاب والشعراء من الجنســين شبانا وشابات •• والكل كان ينحو هــذا النحو السريالى ــ ليس فى كتاباتهم فحسب بل فى تفكيرهم وسلوكهم أيضا • وكنت أعتقد أن كل فنان مهما كانت نزعته سواء أديبــا أو شاعرا أو تشكيليا فلا يخلو عطاؤه الفنى من جزء سيريالى اختزنه فى أعماقه •• يظهر فى عمله بغير عمد •• ومن هنا كنت أسر لمناقشاتهم فى هــذا المجال ، وأتدخل من حين لآخر لأقول رأيى ، ولكنى لم اشتبك أبدا معهم فى نقاشهم الحاد وحماستهم المشتعلة •

شباب مثقف يقف على أعتاب الحياة ليأخذ ويعطى •• كنت أفهم حماستهم وحدتهم فى النقاش •• ولكنى دائما هادىء رزين وكأنى قد بلغت الخمسين تجربة وخبرة •

تواعدنا أنــا وجورج حنين على اللقاء من حين لآخر •• وفى

اللقاء التالى لنا دعوته للعشاء معى فى البنسيون ، وحاولت تقديمه وتعريفه بالموجودين على طاولة الطعام • فأبى قائلا انه لا داعى للتعارف ، فى لهجة مستعلية لحظتها ــ وتضايقت قليلا ــ ولكنى لم أعلق أهمية ما على هذا ــ فقد يكون محقا ، فهم خليط من البشر ربما لن يقابلهم مرة أخرى • على كل حال تناولنا عشاءنا ودعانى لأشاهد « أفلاما صامتة لشارلى تشابلن » ، فى عروض خصصت لنوعية خاصة من المشاهدين • وقد استمتعت بهذه الأفلام التى لم أكن أفكر لحظة فى مشاهدة مثلها ــ فقد كان فكرى كله متجها اتجاها مغايرا تماما لمثل هذه العروض الخفيفة • واستمرت لقاءاتنا حتى نهاية اقامتنا فى باريس • فقد تصادف أن عدنا سويا على نفس المركب الى مصر بعد قيام الحرب الثانية ببضع شهور •

زارنى جورج فى مسكنى مرات عديدة ليتعرف على أعمالى مع أوزنفانت ــ وقد أعجب ببعضها ، ولكنى شعرت بأن اعجابه يشوبه شىء من المجاملة • وفى مرة من المرات رأى بعض الرسوم التى كنت أرسمها بالقلم الحبر •• أشكالا مجردة وخطوطا موحية ــ أبدأ من الطبيعة ــ كرسى ــ جاكتة ــ قطعة قماش •• وأنتهى الى شىء آخر فيه ملامح من الطبيعة ، ولكنه يدفع الخيال الى أبعاد أخرى تذوب فيها الطبيعة ، ولا يبقى منها الا أحاسيس الفنان المدفونة : تجريد موح • توقف جورج حنين كثيرا أمام هذه الاسكتشات وهو يقلب الواحدة بعد الأخرى وهو لايكاد يصدق ما يرى ، والتفت الى قائلا لماذا لم ترنى هذه الرسوم الرائعة ؟ قلت له ــ انى اتسلى برسمها فى الأمسيات التى لا أجد فيها رغبة للقراءة • فقال انها أحسن ما رسمت وانه يرجو أن استمر فى هذا الطريق ، فهو الطريق الصحيح ، فابتسمت وقلت له اننى بدأت أفهم ميولك وما تحبه فى الفن التشكيلى ، ولكن هذا الطريق سينتهى سريعا ولن يبقى منه الا الهزة الأولى التى حركتك • ان هذه

الاسكتشات غير باقية . انها تعبر عن أحاسيس سريعة عابرة . انني أحبها فهي مني ــ وهي تثير في خيالات حرة تنطلق مني بعد أن خففت القيود عنها ، وتركت المجـال للمدفون ليظهر على السطح . انها مسلية ولا أكثر من ذلك . وانبرى جورج حنين يدافع عن هذه الاسكتشات « النصف مجردة والنصف سيريالية » وكان يدافع بحمـاس لم أشهده فيه من قبل . وظل يردد ان هذا هو الطريق وهذا هو المنطلق نحو فن يأتي من أعماق النفس الدفينة النصف واعية أو الغير واعية بالمرة ليعطي ظلالا وظلا للحياة وللطبيعة غير موجودة بغير ما تضفيه عليها النفس البشرية من أعماقها الدفينة ، وأن تلك الرموز التي يخلقها الفنان والتي تأتي من الأعماق الغير واعيـة أو النصف واعية لتترك العنان لخيال المشاهد يسبح فيه ليجد نفسه فيه أو في جزء منه .. ! .. وكنت أجيب .. ولكن لمـاذا يترك الفنـان العنان لخيال المشاهـد ليجد نفسه في شيء ما يتخيله هو يخلقه هو ، ولم يرد ولم يقصـد الفنان بوعيه أو بغير وعيه أن ينقله للمشاهد ان الفنان يعطي بوعيه الكامل ما في أعماقه من لا وعي ، وأن الفنـان الحق هو ما يحمـل الطبيعة تلك الشحنة الوجدانية التي جاءته من أعماق الوعي واللاوعي متكاملين ، ليعطي المشاهد شيئا أكبر من الطبيعة وأكبر من الفنان بقصد واع منه الى حد كبير ــ وعلى المشاهد أن يستقبل ذلك العطاء بأن يكيف نفسه وتكيفه ثقافته لتلقي الرسالة كما هي ــ كما أرادها الفنان الخالق ــ وهـذا في رأيي هو الفنان الحق ــ الذي يقود المشاهد ولا يترك للمشاهد أن يتجول بخياله في العمل ليجد لنفسه شيئا آخر غير ما أراده الفنان . وكانت المناقشـة تدور بيني وبين جورج حنين على هـذا النحو في معظم الأوقات التي نلتقي فيها . هو سيريالي يعتنق السيريالية ويؤمن بها وهو مخلص تماما في معتقداته . أكثر الفنـانين قربا الى قلبـه كان « ايف تانجي » Yve Tanguy الفنان السيريالي المعاصر . وكنت أنـا أيضا أحب هـذا الفنان ،

ولكن كان حبنا لهذا الفنان لأسباب وقيم تختلف من الواحد منا عن الآخر • فكانت رمزية « تانجى » وذلك الخيال الموحى الذى يخلنه الفراغ اللانهائى تؤكده تلك الكتل المتراقصة فيه : فى أعمال تانجى — هى ما يثير مشاعر الشاعر السيريالى جورج حنين • أما أنا فكان يكفينى مقدرة وحس « تانجى » فى خلق هذا الفراغ — وتأكيد قيمته « باللعب » بتلك الكتل السابحة فيه • انها قيم جمالية بحتة ينبثق عنها شعر لاشك فيه • أما الرمزية السيريالية بمعناها (الفرويدى) Froeudem فلم تكن لها أولوية على القيم الجمالية بأية حال •

سألنى جورج حنين عمن يثير اهتمامى من الفنانين •• فقلت له انهم كثيرون ، ولكننى أعكف الآن على الدراسة والتعرف على فنان خطير هو « بول سيزان » • فعلق جورج حنين على اجابتى بأن « سيزان » فنان مهم ولكن لماذا نهتم به ، وما خطر مثل هذا الفنان فى وقتنا الحالى ، وبالنسبة لك ما هو خطره وأهميته ، وكنت أرجو أن تسترعى اهتمامك حاليا تلك الحركة السيريالية التى تغزو العالم الآن • فقلت لجورج •• اننى أتفهم جيدا وجهة نظرك وانى لأعتقد أن كل فنان تشكيلى أو أديب يحمل بين جنبيه جزءا « سيرياليا » قد يظهر واضحا فى عمله أو أن يكون محتجبا فى الظل ، ولكنه ذو أثر لاشك فيه فى بناء العمل • أما بالنسبة « لسيزان » وأهميته لى الآن ، فهى أننى بدأت أعالج التصوير بالألوان الزيتية ، وأننى لم أجد الأستاذ الذى يمكن أن يساعدنى عندما أكون أنا مستعدا لتلقى المساعدة • وقد فاتت على الفرصة عندما كنت أدرس مع « أوزنفانت » •• أما « ليجيه » فهو مشغول عنا فى هذه الأيام ، وقد صممت على أن أشق الطريق الى التصوير بالزيت بنفسى ، وأن اختار أساتذتى من كبار الأساتذة الذين تركوا علامات جادة على الطريق من أمثال « جيوتو » Jiotto الايطالى ، و « فيللاسكويز » Velasquaze

الاسبانى •• ثم سيزان الفرنسى • وانى أعتقد أن « سيزان » هو أعظم من عالج اللون كعنصر أساسى لبناء الشكل ، متضافرا ومتكاملا مع جميع العناصر الأخرى من خط وكتلة وفراغ ••• الخ •

ليس هذا فحسب فانى أجد أن سيزان قد حول « الخط » الذى كان قيدا يحد الشكل « الفورم » من النمو — الى مساحات من اللون المدروس أكسبته صلابة على عكس ما فعله التأثريون Impressionists فقد أصبح الفورم عندهم هشا •• عندما تخلصوا من الخط واستبدلوه بلمسات لونية •• ولكن هل تعرف يا جورج أن هذا الرجل سيزان ذهب بعيدا فى طريقة معالجة اللون ؟ لقد استبدل بدرجات الظل والنور ألوانا •• ألوانا واضحة وليست درجات وظلال من اللون • انها معادلات لونية للظل والنور •

قال جورج — أنك تتعمق فى دراستك لسيزان وطريقته فى العمل ولكن هذا « تكنيك » فقط • صناعة برع فيها بغير شك ، ولكن أين الفن ؟ أين الانسان •• ؟ •• فقلت •• ان ما صنعه سيزان ليس « صناعة تكنيك » ولكنه ثورة حقيقية فى التصوير اللونى • انه أوصل « اللون » الى أعلى وظائفه •• ان اللون عند سيزان لم يعد لونا •• مجرد لون •• بل انه تعدى هذا النطاق كله •• لقد تحول اللون عند سيزان الى نسيج السطح •• الى ما تحت السطح •• الى المادة نفسها •• الى كنه المادة •• الى الطاقة الكامنة فى المادة •• ثم يرتد ثانية الى السطح حاملا معه ذلك الذىمسه تحت السطح •• انه أكثر من أن يكون مجرد لون •• هو حس مرهف للغاية لصوفية اللون — اذا جاز لى أن أسميها كذلك • لقد بدا على وجه جورج حنين الاهتمام بحديثى وحماسى لسيزان ، بل انى شعرت بأنه بدأ يهتم هو الآخر بسيزان ، وقال لى يبدو انك تحب سيزان كثيرا وأنك دائب على دراسته دراسة مستفيضة • واننى بعد ان

سمعت حديثك هــذا سأحاول من جانبى أن أرى سيزان بعين أخرى ..
وربما ذهبنا ســويا الى المتحف فى مرة من المرات لنشــاهد سيزان
معا . وقلت مختتما الحديث عن سيزان .. ان مسألة اللون هذه ليست
كل سيزان .. ان لسيزان فى أعماله حسا « بالبطولة » Heroeism
تشعر به فى « تفاحه » وفى « سلاله » وفى « أشخاصه » وفى « أشجاره
وجباله » .. انه فنان عظيم .

افترقنا هــذه الليلة وتواعدنا على اللقاء فى الأسبوع القــادم
لنذهب سويا الى « متحف اللوفر » لنشاهد سيزان الذى كنت قريبا
منه طوال اقامتى فى باريس .

فى صباح اليوم التالى تقابلت مع « سيمون » وسألتنى أين
كنت ــ فانها لم ترنى منذ بضعة أيام . أخبرتها بما كان بينى وبين
الصديق المصرى « جورج حنين » ، وأنه شــاعر ســيريالى يكتب
بالفرنسية وهو مثقف ، ورويت لها بعض ما جرى بيننا من حــديث
ومناقشات حول الفن . جرى هــذا اللقاء وكانت تسير الى جانبى
حيث تذهب الى عملها وأذهب أنــا الى المتحف كالمعتاد أيضــا .
ولكنها فاجأتنى بأنها فى اجازة هــذا اليوم وأنه يوم مشمس والأجدر
بنا أن نستمتع بهذا الجو الجميل الذى هو « استثناء » فى فصــل
الشتاء واقترحت أن نذهب ســويا الى حديقة الحيوان ولم أكن قد
شاهــدتها من قبل . ورحبت بالاقتراح على الفور .. كنت أحب
الحيوان والنبــات ، ولم أنس بعد تلك الأشجار الضخمة التى طالمــا
استمتعت برؤيتها وتأملها فى « ريتشموند » بضــواحى لندن . وفعلا
قادتنى « سيمون » حيث حديقة حيوان باريس ، وقد اشترينا بعض
الفطائر « شوسون » لنأكلها فى رحلتنا هذه .

أثناء تنقلنا فى الحديقة توقفت أمام نبات ينبثق فى عنفوان رائع
من الأرض ، وينبثق من الأم فرع تلو الفرع بنفس ذلك العنفوان .

حتى أن حركة تدفق عبرت من ذلك الانبثاق وكأنها لن تنتهى أبدا .
وقفنا أنـا وسيمون أمام هـذا النبات الذى لم أعرف نوعه ولا اسمه وكذا سيمون ــ ولكنه استحوذ على كل أحاسيسنا واعجابنا ــ بل انه طغى على كل ما رأيناه من حيوان فى الحديقة .

عدنا من الحديقة وقد استمتع كلانا بالجو والنبات والحيوان والصحبة . ولأول مرة أجد أن ذراعينا قد تشابكتا ونحن عائدان . وقبل أن نفترق قالت انها تود أن تعرفنى على فنان بلجيكى عجوز معروف عالميا ، يعرض أعماله حاليا .. وهى تعرفه معرفة شخصية .. كان هذا الفنان هو « جيمس انسور » ــ وقد تواعدنا على الذهاب سويا لمشاهدة معرض « انسور » فى الغد .

عرفتنى سيمون بالفنان الذى رحب بشاب مصرى يشتغل بالفن التشكيلى ، ولكننى فى الواقع لم أجد ما كنت أتوقعه عند انسور التأثيرى سوى تكوينات ومواكب لا بأس بها ، ولكن الفورم عنده يفتقد الى الصلابة التى كنت أنشدها فى كل عمل قد يحوز أعجابى .
لم أخرج من معرض انسور بشىء يذكر ، وعدنا الى البيت . وقبل أن تدخل سيمون الى شقتها قالت انها ستأتى الى حجرتى لتسمعنى أسطوانة جديدة لباخ اشترتها خصيصا لأجلى .

جاءت سيمون فى المســاء وكانت قد أحضرت « جراموفونا » تركته عندى لمثل هذه المناسبة . جلسنا نتحدث عن باخ وعطائه الفذ فى الموسيقى ، والحس الدينى والروحى الكبير الذى أودعــه فنــه الرائع ــ وبدأنا نستمع الى القطعة القصيرة المسجلة على الاسطوانة وكان اسمها Lévé toi ma chere ame ــ انهضى يا روحى الغالية » . كانت الموسيقى رائعة وأثرها بالغ العنف . كنت أشعر بنوع من التمزق والأسى الشــديد الواقــع على النفس .. كانت الموسيقى كأنهـا تنحر القلب نحرا . لم أستطع فهم نوع الأثر الذى

تركته هـذه القطعة الموسيقية من باخ .. بالذات . بقدر عمق الأثر بقدر ما ترددت فى قبول هـذا الأثر . لم أستطع استساغته تماما بالرغم من اعجـابى الشديد به .

انتهت الموسيقى وظللت صامتا كما صمتت سيمون أيضا ، ولكنها كانت ترقبنى وأنـا سـابح فى تفـكير وتأمل ومازال « سـحر » الموسيقى – « لقد كان سحرا حقا » – يأخذ بتلابيبى ولا أستطيع منه فكاكا . لقد أحببت « باخ » حبا شـديدا بالقلب والعقل وبكل الجوانح ، ولكن هذه القطعة « انهضى يا روحى الغالية » كانت تختلف عما عرفته من موسيقى باخ . كانت الشحنة الروحية التى أودعهـا باخ فى هذه القطعة من حجم ونوع لم أستطع تحمله .. أو قبوله .

بعد فترة صمت طالت قليلا سألتنى سيمون عن رأيى ، فقلت انها رائعة بلاشـك ولكنى لم أستطع قبولها .. نعم لم أقبلها .. ربما لأنها « مسيحية » أكثر من اللازم .. ان باخ يقول من خـلال هـذه القطعة .. « أنـا مسيحى » .. بل مسيحى منحاز من مذهب معين Secterian .. وكنت أحاول بهذه الكلمـات تبرير أحاسيسى الرافضـة لشىء ما فى هـذه القطعة .. وكان هـذا كله جديدا على بالنسبة لباخ العظيم . وفاجأتنى « سيمون » بقولها انها لم تفكر أبدا فى مثل ما قلته عن هـذه القطعة بالذات ، ولكنها تشعر الآن بأن ما قلته الآن فيه شىء من الصـواب ، ولكنها لم تشعر بأى رفض لتلك الرهبـة وذلك الأسى الذى تحدثت أنـا عنه .. قلت .. ربما لأنك أنت أيضا مسيحية .. بل مسيحية منحازة أيضا .

كانت هـذه القطعة الموسيقية مثارا لتأمل طويل وتفكير مركز حول الدين .. دين الله .. ودين الكنيسة . انسحبت سيمون بعد لحظات وتركت الاسطوانة قائلة انه من المستحسن أن أسمعها مرة أخرى بل مرات . لقد عرفت باخ جيدا .. عرفته فى شوامخه « غير

المنحازة » التى ينطلق بها الى السماوات العلا يبنى عمائر بللورية رائعة ــ يبنى قصورا معلقة رقت وشفت جدرانها حتى يكاد المقدس يستبين من خلالها •• انه يرتفع بنا جميعا من كل الأجناس ، ومن كل الأديان •• ومن هم بغير أديان الى ذلك المستوى الروحى الصافى نستشف منه ذلك المقدس الذى يضفى على الجميع ذلك الشعور الرائع المنطلق الى اللامحدود الى حيث الوحدة الكبرى • لم أشعر أبدا مع روائع باخ بهذا الحس الحزين المتآسى الذى يأخذ بمجمع القلوب ويحبس الأنفاس من الرهبة ــ والخوف والأسى معا •• الذى شعرت به وطغى على أحاسيسى من تلك القطعة لباخ « انهضى يا روحى الغالية » •

كان باخ فى هذه القطعة مسيحيا منحازا لفئة معينة من المسيحية ، •• ولم يكن باخ فى تلك المقطوعة هو باخ المنطلق بنسيجه الموسيقى الذى لا نهاية له •• نسيجه الموسيقى الذى يحملنا معه الى الآفاق الروحية العليا •• يحملنا معه الى اللامحدود •

لم أتقابل مع سيمون فى اليوم التالى لأنى لم أذهب الى المتحف كالمعتاد ، وفضلت صحبة الكتاب فى حجرتى •• وقد استحوذ على الكتاب حتى أنى لم أخرج من الحجرة طيلة اليوم ولم أذهب الى الأكاديمية أيضا بعد الظهر • وفى المساء أدرت اسطوانة باخ مرة ومرات لأستوعبها جيدا ، ولكنى لم أجد بها شيئا يغير من أحاسيسى الأولى ومن رأيى الذى أعلنته لسيمون •• من قبل

وفى يوم جاءتنى سيمون وبصحبتها أحد الشبان القساوسة الذى كنت قد تعرفت به مع زملائه من قبل ، وكان قد أبدى اعجابه بعملى الفنى ، بل أبدى اعجابه بآرائى وشخصيتى كما اخبرتنى سيمون ، وقد حدثها بذلك بعد المقابلة الأولى • جلسنا نتحدث عن أشياء كثيرة ولكنى لاحظت أن زائرى يحاول أن ينحو بالحديث

الى ناحية الدين • والدين والمشاكل الروحيــة لم تزل قابعة داخلى لم تجد حلا شافيا ولا طريقا أو مخرجا مرضيا • وقد ركز زائرى فى حديثه (على الدين) بعد أن أفلح فى جعله محورا للحديث • وقد كان قسا كاثوليكيا بطبيعة الحال • وكان فهمه للمسيحية من خــلال « مسيحية » الكنيسة الكاثوليكية ؛ وكان التفتح الذى بدا منه نحو الفن التشكيلى والأدب فى زيارته السابقة قد شجعنى على مجاراته فى الحديث عن الدين • ولكنى لم أكد أخطو الخطوات الأولى فى هــذا المجال الا وجدته يتكلم من خلال تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ؛ وقد ذاب ذلك الانفتاح الذى لاحظته فى تفكيره فى زيارته الأولى • ولاحظت أيضا أنه بدأ يتكلم فى لهجة تبشيرية لم تعجبنى بالمرة • اننى كنت متعاطفا فعلا مع تعاليم وســلوك المسيحية من المسيح نفسه •• روح الله وكلمته ، والتى كانت تتلخص فى نظرى فى الحب •• فى الحب الكبير الذى يحرك الجبال ـ كما جاء على لسان « برجسون » فى كتابته عن سقراط ، فى ذلك الفصل الممتع الذى أفرده له فى كتابه :

The two sources of Morality and Religion

وهذا الحب الكبير الذى كان يحمله عيسى المسيح بين جنبيه ـ والذى كان يبشر به الانسانية جمعاء ـ هو الذى شــدنى للتعرف على ذلك الدين ، الذى ارتكز أساسا على عمودين اثنين : الحب •• والمعاناة ••

Love & Suffering •

أما الحب الكبير الذى يحرك الجبال فكان هدفا أعلى أنشــده دائمــا ـ وأما المعاناة فكانت ترافقنى على الدوام ولكنهــا كانت معاناة فكرية دائما •• ولم أتقبل أبدا أية معاناة جسدية مما افتعلها بعض الصــوفية من المسيحيين وغيرهم بما كانوا يعرضــون أجسادهم لضرب السياط وشــك المسامير •• الخ •• لتطهير النفس عن طريق الألم • لم استسغ هــذا أبدا عندما شعرت بالمحــاولة « التبشيرية » التى جاوزت حدود الفكر الحر ، وان الحوار بدأ من جانبــه كأنه

يقوم بوظيفة « القس » . عندئذ تراجعت حماستى فى النقاش وركنت الى الصمت . ولكنه لم يصمت وظل يردد كلاما كثيرا عن الكنيسة والكاثوليكية .. ولم أرد عليه بكلمة واحدة فقد زهدت فى الحوار . لاحظت أن سيمون ترمقنى بنظراتها محاولة فهم رد الفعل الذى يساورنى ازاء كلام القس ، وكانت قلقة ـ أو هكذا خيل الى وعندما شعرت هى باننى فقدت الاهتمام بالحديث تماما ، وكان القس لايزام الكلام يتدفق من فمه كأنه يلقى بموعظة ـ حاولت سيمون ايقافه عن الكلام . وبعد أكثر من محاولة وقفت قائلة ان الوقت أصبح متأخرا وعليها أن تذهب . وكان وجه القس قد شابه احمرار من حماسته ، وقد تململ قليلا من سلوك سيمون هذا الذى بدا لى أنه جاء فى وقته تماما .

خرج الاثنان وقال لى القس .. الى الملتقى .. سنتلقى ثانية لنكمل الحوار .. أليس كذلك .. ؟ .. لم أرد على سؤاله .

ودعتها حتى باب الحجرة وعدت الى المقعد المريح بجانب النافذة استعيد ذلك الحوار الساخن الذى بدأ من ذلك القس المتعصب بطبيعة وظيفته . جلست أفكر وقد انتابنى شىء من القلق .. هل كانت زيارة القس هذه برغبة منه هو أم بايعاز من سيمون . لو كانت الأخيرة لأصاب الصلة التى بدأت تتوطد بينى وبين سيمون ضرر كبير . ان فكرى حر تماما .. وأنا دائب فى تحريره من كل الجوامد Dogmas .. انى أبحث داخل أعماقى عن حل لتلك المشكلة الكبرى .. أبحث عن الغاية والهدف .. أبحث عن الطمأنينة الكبرى التى تستكين لها نفسى القلقة .. هل أجد هذه الطمأنينة فيما قاله هذا القس ؟ أجدها فى تعاليم الكنيسة .. والكنيسة الكاثوليكية بالذات .

مرت هذه الأسئلة فى خاطرى وأنا أجلس بجانب النافذة أراقب

قطرات المطر على زجـاج النافذة . وصوتها الرتيب يدعو الفكر أن ينساب بلا اعاقة . ولكن لمـاذا لا أجرب .. لمـاذا لا أذهب الى الكنيسة واستمع الى القداس مع ذلك الرهط الكبير من البشر الذين يؤمنون بالمسيحية والكنيسة وتعالم الكنيسة .

لقد ظلت هذه الأفكار تتقلب فى ذهنى مرة بالقبول ومرة بالرفض ، ولكن فى النهاية .. قبول ماذا .. ليس هنـاك شىء معد للقبول .. ان طريقى غير ذاك بالمرة .. ان طريقى وعر .. بل شـديد الوعورة انى لا استسيغ الحلول السـهلة ، ولا أعتقد ان مثل هـذا الطريق يصلح لى بالمرة . ان هدفى وغايتى أبعد من ذلك بكثير . سـهرت كثيرا وأنـا فى حوار عنيف مع نفسى .. فى حوار مع خبرات الآخرين ممن قرأت لهم ، ومع خبرتى الشخصية التى تتكون وتتبلور ببطء فى أعماقى .. ثم نمت .. ولم أستيقظ الا على دقات الباب .. كانت الخادمة قد أتت بالافطار الذى كنت اتناوله دائما وأنـا فى سريرى . شـعرت فى ذلك اليوم بكسـل شديد ، فلزمت الفراش ولم أترك الحجرة بل انى لم أتناول أى طعام . لقد شعرت بالمرض يداخلنى .. وفى المساء جاءتنى « سيمون » وعلمت منى أننى لم أترك الحجرة بل لم أترك السرير لأنى أشعر بضعف .. فانزعجت وقررت استدعاء الطبيب ، ولكنى رفضت وتناولت بعض أقراص اعطتنى اياها ، وجلست بجـانبى على الفراش تحادثنى وهى منزعجة قليلا من حالتى هذه . ظلت سيمون ساعات طوالا بجـانبى ترقبنى وهى تتحسس جبينى من وقت الى آخر ، ولكننى كنت أشعر بتحسن مستمر .. لم يكن مرضا ولكنى كنت قد سهرت الى ساعة متأخرة من الليل قلقا مفكرا فى كل ما مر بى فى ذلك اليوم .. ولمـا شعرت سيمون بالتحسن الواضح الذى طرأ على .. نصحتنى بالنوم مبكرا ثم انحنت على فى ود ظاهر وقبلتنى .. ثم انصرفت .

عملت بالنصيحة ونست وأنا أفكر فى قبلة سيمون لى وما نوعها ... ! ... هل هى مجرد تعاطف مع ضعفى ، أم هى أكثر من ذلك ... ؟ ...

جاءتنى سيمون فى الصباح تسأل عن حالى وكانت باسمة فطمأنتها بأن كل شىء على ما يرام وأننى ذاهب الى المتحف بعد فترة قصيرة . فاستأذنت هى فى الانصراف لأنها على موعد هام مع شخصية كبيرة وستزورنى فى المساء ، وتركتنى وانصرفت .. لم أذهب الى المتحف وفضلت أن استريح تماما اليوم أيضا وتناولت كتابا لالى فور Eli Faure : النسخة الفرنسية وقدد اشتريتها بثمن بخس بعكس النسخة الانجليزية المترجمة التى كان ثمنها يبلغ أضعافا مضاعفة .

لقد قرأت كتاب تاريخ الفن « لالى فور » بالانجليزية فى لندن سواء فى مكتبة المتحف البريطانى أو بالاستعارة لبعض الأجزاء من حامد سعيد — وكان الكتاب يتألف من خمسة أجزاء : الفن القديم .. الفن فى العصور الوسطى .. الفن فى عصر النهضة .. الفن الحديث .. ثم الجزء الخامس Esprit des Formes (روح الفورم) وهذا الجزء لم تسنح لى الفرصة لقراءته كاملا قبل ذلك بالانجليزية .. والآن وقد حصلت على نسخة فرنسية — وهى الأصل — قررت السير قدما فى محاولة قراءتها — أقول محاولة قراءتها لأن (فور) كان صعب الفهم حتى لو كان بالعربية .. فما بال الأمر بفرنسيتى الضئيلة مع (فور) ، وتلك الجمل الطويلة التى لا تنتهى ، والألفاظ المنتقاة بحساب شعرى رائع . لقد استمتعت بالترجمة الانجليزية وكانت على مستوى رفيع ، ولكنى كنت أعتقد أن الأصل الفرنسى سيكون أمتع .. اذا تمكنت من اللغة . وكنت أسير فى قراءتى بتؤدة .. وانقل سطورا بأكملها الى كراسة خاصة

بالكتاب ، وأفرد مساحة للكلمات التى لم يتضح لى معناها تماما الا فى السياق • وانتظرت حضـور « سيمون » فى المساء لتوضح لى معانى هذه الكلمات ، واستعيد قراءة السطور التى تعثرت فى فهم معناها • كانت صعوبة قراءة (فور) بالفرنسية واضحة تماما لكثرة ما كنت انقله الى كراستى من كلمات لا أعرف معناها بالضبط ، مما دعـا سيمون الى أن تحضر الى فى المساء فى أغلب الأيام لتشرح لى معنى الكلمات • وكانت هـذه أيضا فرصة لنقرأ فصولا بأكملها سويا •• وكانت الظروف كلها تقارب بينى وبين سيمون حتى أننا لم نعد نفترق الا لتذهب الى عملها صباحا ، أما الأمسيات فكنا نقضيها معا ، اما فى الذهاب الى « كونشرت » فى سـهرة فى الخارج ، واما نسهر معا فى حجرتى سـواء لسماع الموسـيقى أم القراءة سـويا بالفرنسـية ، وشرح ما لا أستطيع فهمه لغويا •• أم للتحدث فى نواع مختلفة ثقافية كانت أو اجتماعية •

وفى يوم جـاءتنى سـيمون تقول بأنها تود تقـديمى وتعريفى بشخصية كبيرة جدا لها مكانتها فى الشعر والأدب والدين أيضـا ، هى على صلة قربى بعيدة بهذه الشخصية • فسألتها عن اسم هـذه الشخصـية فذكرت اسـم « بول كلوديل » Paul Cloudeh ولم أكن قد سمعت هذا الاسم من قبل •• اذ لم يكن لى صلة ما بأدب المعاصرين الفرنسيين •• فى تلك الفترة الزمنية •• وسألتها لمـاذا تريدين تقديمى لهذه الشخصية الكبيرة فى الأدب والشعر والدين ؟ وكنت أفضل أن اتعرف على شخصية مهمة فى الفن التشكيلى •• فابتسمت قائلة : انك ستراه ولن تندم على هـذا اللقاء •• انه رجل عظيم •• انه شاعر فرنسا •• شاعر الكاثوليكية •• وانه يتحـدث الانجليزية فقد تولى السفارة فى الولايات المتحدة لفترة ما •

وبعد يومين جاءتنى « سيمون » فرحة قائلة : سنذهب سـويا غدا لتقابل كلوديل ••• فقد حدثته عنك •

وفى المساء فتحت الكتاب كالعادة ولكننى لم أستطع أن أفهم شيئا مما أقرأ .. وقد استولت على أفكار كثيرة حول هــذه المقابلة غدا مع كلوديل .. لمــاذا تصر « سيمون » على تقديمى لبول كلوديل بالذات ؟ .. وقد ذكرت فى حديثها أنه شاعر الكاثوليكية فى فرنسا .. لم أستطع أن أحدد الهدف من اهتمامها هــذا .. هل هناك علاقة بين ذلك الحوار الحاد الذى جرى بينى وبين القس صديقها فى غرفتى منذ بضع أسابيع .. ؟ .. هل فسرت شغفى بالمعرفة .. وقرآتى حول الأديان وتركيزى على الدين المسيحى فى هذه الفترة بالذات ـ على أنه ميل لاعتنــاق المسيحيــة . أرجو ألا يــكون الأمر كذلك ، والا فستكون سيمون ومن حولها من أصدقاء من القساوسة قد أساءوا فهم دراساتى وتأملاتى حول الدين . انه شغف بالمعرفة ليس الا .. معرفة الذات من خلال التجربة الشخصية وتجارب الآخرين .. ان كل فروع المعرفة من علوم وفنون تصب فى النهاية فى نهر واحد .. ذلك النهر الذى يصب فى اللامحدود .. وهو الهدف والغاية .

كانت تأملاتى التى لا تنقطع وأنــا أعيش عليها وأتغذى بها فى كل وقت ســواء كنت أعمل أو أقرأ أو أرسم أو أركن الى المقعد المريح فى غرفتى وحيدا مع فكرى المشتعل دائما .. يعمل باستمرار يحــاور ويجادل كل الأفكار التى ترد عليه من أى منبع كان . ان الظروف هى التى جعلتنى أركز على المسيحية ، وعلى التصــوف المسيحى بالذات لأن كل الكتب المتاحة فى ذاك الوقت فى انجلترا أو أوروبا فى هــذا الصدد كانت أغلبيتها مسيحية . لقد قرأت القليل من الأديان الأخرى الآسيوية ، وتعاليم « بوذا » . وحياته بالذات ، وكان لها أثر كبير فى تفكيرى . وفى باريس وأنــا محاط بفتاة متدينة تتعصب لكاثوليكيتها وثلاثة من رجال الدين المسيحى قساوســة شبان متفتحة أذهــانهم بشكل ممتاز ولكن الى حدود لا يمكنهم تخطيهــا .. حدود تعاليم

الكنيسة الكاثوليكية .. وزياراتى مع سيمون للكنائس والغناء الدينى الذى كانت تشدو به وهى مع نفسها .. كل هذا جعلنى أعطى الكثير من اهتمامى للبحث والتفكير فى هذا الاتجاه .. حبا فى المعرفة .. ورغبة فى تفهم الى أى الحدود يقف عندها هـذا النوع من الفكر والبصيرة . التى استقرت فى قالب صاغته الأجيال حتى أصبح قالبا راسخا متكاملا براقا . يضفى على العامة من النـاس طمأنينة للنفس هى ركيزة لها تثبتها فى حالات القلق والهزات العنيفة التى لا تخلو منها الحيـاة .. تضفى نوعا من الروحانيـة التى تتسم بالغموض تحن اليه النفس ــ أى نفس ــ وتأوى الى ظلاله كلمـا ألم بها حدث أو نزلت بها نازلة .. أو ربما كان ذلك الغموض وذلك الجو الذى تضفيه الشموع والتراتيل والبخور مما تحن اليه النفس وتهفو اليه حناياها الباطنة . ان الانسان من قديم الازل وقبل الأديان السماوية كان يلجأ الى الطقوس ويخلقها لتلائم مزاجه واحتياجاته الروحية .. وكان البعض يسمى هـذه الطقوس سحرا .. ولكنهـا لا تفترق عن أى طقوس دينية فرضتها الأديان وطورتها الأجيـال ، لتلائم الزمـان والمكان والمجتمـع المواكب لها .. ولكن هل هـذا يكفى .. ربما يكفى العامة والكثرة من الناس .. ولكن الخاصـة وخاصة الخاصـة .. لا أظن .. لقد عشـت التجربة بنفسى فى فترة لاحقة ، وحضرت أكثر من قداس وأنـا أرجو أن أجد شيئا فى تلك الطقوس الدينيـة ــ وانفعلت فعـلا ازاءها وازاء ذلك الجو الخافت القاتم الحزين الذى تضفيه تلك التراتيل وتلك الشموع والجمع الكبير الذى حضر الى المكان لهدف واحد . أو هكذا ظنوا .. هو واحد فى الظاهر فقط .

لقد عشت التجربة كاملة وأنـا أحاول أن استقبل بقلب مفتوح وعقل نصف مغلق لكل همسـة روحانية أو شبه روحانية قد تأتى مع تلك الطقوس .. وقد تأثرت فعلا وشعرت كيف أن الكثير من هؤلاء

الذين تجمعوا فى هذا المكان يتأثرون وقد لمست الراحة والطمأنينة بل والاعتداد بالنفس Self comlucemy بعد خروجهم من الكنيسة . لقد كنت معهم أستشعر أحاسيسهم ، تأثرت مثلهم ، ولكن لما خرجت معهم كان فهمى لكل هـذا مغايرا تماما لفهمهم . ان الكثرة كانت تؤدى الواجب ، ولكنى كنت أبحث .. أريد أن أعرف .. ولكن هل عرفت .. ؟ أظن أننى فى الطريق الى المعرفة .. دارت فى رأسى كل هـذه الأفـكار حول مقابلتى الموعودة « لبول كلوديل » شـاعر الكاثوليكية الكبير .

اصطحبتنى سيمون فى اليوم المحدد الى حيث ألقى كلوديل .. ورأيت كلوديل . رجل ممتلىء الجسم مستدير الوجه .. فيه جدية ووقار .. هيئته تدعو للاحترام .. قابلنى الرجل ببشاشـة .. وهو يصافحنى بينما تنطق سيمون باسمى تعرفه بى .. « راتب سديك » كما ينطقه الخواجات .. وكنت أتوقع أن يطلب كلوديل منها اعـادة نطق الاسم ليستوعبه .. حيث كان الجميع من الخواجات يطلبون منى ذلك لسـماع هـذا الاسم الغريب ـ ولكنـه لم يأبه لذلك ـ وابتدأنى الكلام بالانجليزية قائلا : انه عرف من صديقتى سـيمون أننى شاب مصرى يقرأ كثيرا عن الدين ، ويبحث باهتمام زائد فى الدين المسيحى ، وأنه يرحب بى وأنه سيساعدنى . وفى لحظـات قصار تناول كتابا كان قد أعده من قبل وأخرج قلمه ووقع باسـمه على ركن من أركان صفحة الكتاب الأولى ودفعه الى قائلا : اقرأ هـذا الكتاب وسيساعدك فى الاهتداء الى ما تبحث عنه . وصافحنى مرة ثانيـة مودعا . والتفت الى سيمون وتحدث معها قليلا .. بالفرنسية طبعا .. وودعته وجاءت واصطحبتنى الى الخارج . ورويدا رويدا بدأ الدم يصعد الى رأسى وأشعر بسخونة تعترينى . وحاولت سيمون أن تعرف منى شيئا عما يدور فى رأسى نتيجة للمقابلة .. ولكنى لم أحر جوابا . ان المقابلة كلها لم تستغرق سـوى دقائق .. انه لم يهتم بمعرفة اسمى

كما ينبغى ، ان سيمون رتبت هـذه المقابلة على أساس خاطىء وعلى فهم خاطىء لى على الأقل • وما هـذا الكتاب الذى اهدانيه ومهره بتوقيعه والذى سيساعدنى على أن أجد ما أبحث عنه •

سرت وسارت سيمون معى فى شوارع باريس ولم تحاول أن تقطع على حبل تفكيرى الا بعد أن سرنا على أقدامنا أكثر من ساعة بأكملها •• وبدأت سيمون الحديث قائلة •• الأجدر بنا أن نذهب الى البيت حيث أن الجو بدأ يتغير وأن المطر على وشك أن ينهمر •

وذهبنا الى البيت وصعدت معى الى غرفتى ، وجلست بجانبى على السرير ، وكانت الحجرة دافئة •• والمدفأة ساخنة •• وبدأتنى سيمون الحديث •• لماذا أنت ساهم هكذا •• ألم تسر بمقابلة رجل عظيم مثل كلوديل ؟ •• وكان لكلماتها هـذه وقع أسوأ من كل ما سبق • فبدأت أتكلم بهدوء •• مصطنع •• فقد كنت « أغلى » من الداخل • قلت لها •• هل تظنين أن مجرد مقابلتى لرجل عظيم كما تقولين فيه سرور لى • هل مجرد مصافحتى لكلوديل •• الذى لم يهتم حتى بمعرفة اسمى كما ينبغى • فيه سرور لى ؟ ان اللقاء كان معدا وكان « ممسرحا » • هـذه الكلمات القليلة التى نطقها بالانجليزية ، وهذا الكتاب الذى اعطانيه والذى لم أعرف ما هو حتى الآن ، وهذا التوقيع الذى مهر الكتاب به ••• ماذا يظن هذا الرجل فى نفسه •• انه رجل مغرور •• هذا رأيى فيه اذا أردت أن تعرفيه • وكان صوتى يرتفع شيئا فشيئا واختلطت الفرنسية بالانجليزية لتسعفنى فى التعبير • وبدأ هدوئى الذى تملكته فى البداية يتلاشى تماما •• واستمعت الى سيمون فى دهشة تزايدت عندما سمعت نعتى كلوديل بالغرور •

وفتحت الكتاب بعد أن قرأت العنوان •• وكان عبارة عن رسائل متبادلة بين بول كلوديل وجاك ريفيير Jack Revier • وضعت الكتاب جانبا وقد شعرت بأننى متوتر أكثر من اللازم • وقلت

لسيمون : انى آسف لافلات الزمام منى .. ربما أكون قد أخطأت فى التسرع بالحكم . ولكنى شعرت بأنه لم يعاملنى كما ينبغى .. وبدأت سيمون بعد هــذا الاعتذار بالتحدث الى بهدوء مشوب بالعطف بل والحنو .. قائلة : اننى أفهم شــعورك تماما ، حيث أننى أعرف اعتزازك بنفسك . ولكنك نظرت للأمر بغير ما هو واقع .. هل تعرف ما قاله لى كلوديل قبل أن تنصرف ؟ لقد قال انه آعجب بك لأول وهلة وانه يتوســم فيك خيرا كثيرا بل أعلن لى عن رغبته فى لقائك ثانية ، وقد دعانا نحن الاثنين لمشاهدة العرض الأول لمسرحيته التى كان يتابع بروفاتها عندما التقينا به ـــ وقد أعطانى فعلا دعوة موقعة منه لحضــور الحفل .. العرض الأول لمسرحيتــه « جان أوبوشير » Jeanue Au Bùchir « جان فى حلقــة اللهب » أو حرق جــان دارك .. وهل تعرف .. قالت سيمون : ان هونيجر Honiger هو الذى وضع موسيقاها .. والجميع يتوقع لها نجاحا كبيرا ، وأن الصحف تتحدث عن هــذا العرض المقبل على آنه سيكون حدثا هاما فى مجــال الأدب والموســيقى والاخراج المسرحى .. وانك لم تعرف شيئا عن بول كلوديل حتى الآن سوى حديثى أنــا عنه وأنه ينبغى لك أن تتعرف عليه من خــلال أعماله ، وقد أهداك هو هذا الكتــاب وهو عبارة عن رسائل متبادلة بين شاب مثلك يبحث عن الحقيقة .. ويرجو المعرفة الحقة .. وأن رسائل كلوديل له تعتبر ذات شأن كبير فى هــذا المجال ، ويمكنك قراءة الكتــات وسأساعدك من جانبى فى فهم ما تتعثر فى فهمه من اللغة الفرنسية .. هذه واحدة ـــ ينبغى لك أن تبدأها لتعرف شيئا مهما عن كلوديل من كتابه ، ثم أمامك الثانية ـــ ذلك العمل المسرحى الرائع الذى دعاك كلوديل نفسه لمشاهدته فى عرضــه الأول ، وهــذه الدعوة فى ذاتهــا دليل على اهتمامه بك ، وهــذا الاهتمام واضح بكل المقاييس .

كان حديث سيمون الهادىء المتزن له آثر كبير فى تهدئتى وجعلنى

انظر الى ما حدث بموضوعية أكثر .. وقد كان فيما قالته سيمون الكثير من الصحة .. وافترقنا على أن نلتقى فى الغد .. وفى اليوم التالى جاءتنى سيمون فى المساء المبكر ومعها اسطوانة لقطعة موسيقية لباخ (توكاتا) استمعنا اليها سويا عدة مرات .. وكانت جميلة رائعة فيها سعة وعظمة وبناء صرحى .. وقد قلت لسيمون ان هذه القطعة لباخ غير تلك التى سمعناها منذ مدة (انهضى يا روحى الغالية) . ان هذه القطعة ليس لها صلة بالمسيحية بالذات .. وليس بها أى نوع من الانتماء الى فرقة أو مذهب دينى معين .. انها حرة طليقة تطلب اللامحدود واللانهائى . فابتسمت سيمون وأمنت على كلامى قائلة بأنها تفهم الآن حديثى عن القطعة السابقة وتدرك الفرق بين القطعتين ـ وما قصد بوقوع باخ فى « الحزبية الدينية » أو الانتماء الى فرقة أو مذهب معين مما يصبح قيدا على الفنان فى حسه وعطائه .. عموما فان موسيقى باخ تخرج عن هذا النطاق الا فى النذر اليسير الذى قابلته أنا فى بعض أعماله . وذكرت سيمون بعض الملاحظات على كلامى وانها تستفيد منه . وعند انصرافها ذكرتنى بموعد افتتاح مسرحية كلوديل وأنها ستأتى الى مبكرة لكى تصحبنى الى المسرح .

وفى اليوم التالى ، وفى الموعد المحدد جاءت سيمون ودقت باب حجرتى ودخلت ، وظلت واقفة وهى تستحثنى على الاسراع فى ارتداء ملابسى لكى نصل الى المسرح قبل رفع الستار بفترة ، حتى يمكننى مشاهدة المسرح وبناءه من الداخل فى الضوء وقبل اطفاء الأنوار . انه مسرح حديث رائع .

وقفت سيمون فى وسط الحجرة .. ووقفت أنا أنظر اليها وأتأملها من اخمص قدميها الى أعلى رأسها . لم تكن سيمون التى أعرفها ، تبدو دائما فى حذاء (زحافى) بغير كعب ، أرب الى حذاء

الرجال .. وثوب بسيط للغاية ، ووجه بسيط بغير مساحيق أو أية محاولة للتجميل . وهى الآن ترتدى ثوبا أزرق جميلا يلف قوامها فى بساطة ورشاقة ، وقد رشقت على صدرها زهرة قرمزية ، وفى قدميها حذاء ذو كعب عال ، جعلها تظهر أطول مما اعتدته أنا منها .. ولكنه كان يزيدها رشاقة .. وعلى رأسها قبعة زينت بزهرة صغيرة على جانب منها .. أما وجهها فقد وضعت عليه « مكياجا » خفيفا جدا من المساحيق مع طلاء شفتيها بلون أحمر يميل الى القتامة .. جعلت أتأمل سيمون « الجديدة » فى صمت بينما هى تواصل كلامها تحثنى على الاسراع . لقد كنت دائما أعجب بسيمون الفتاة البسيطة المتدينة التى تحب الموسيقى وتترنم بتراتيل باخ .. الفتاة العطوفة التى دأبت على مساعدتى بمجرد أن تشعر بأننى فى حاجة الى المساعدة وبغير أن أطلبها . كانت تكبرنى ببضع سنين ، وكانت تعرف عن الحياة أكثر مما أعرف ، فهى تعيش فى خضمها ، ولكنى كنت أعيش أنا فى شبه عزلة عنها . كان الفن والفكر والقراءة المستمرة والتأمل الطويل فى المسائل الفكرية والروحية تعزلنى عن الحياة العادية .. كانت سيمون تأخذ الدين والفكر والموسيقى كجزء من الحياة اليومية تمارسها ببساطة وبغير أى تعقيد .. أما أنا فكل هذه الأمور كانت معقدة أشد التعقيد ، وجزء منها كان مازال هلاميا لم يتبلور بعد.

كنت أرى « سيمون » فتاة لها فكر وروح يتكاملان مع البيئة.. مع المجتمع .. فى انسجام تام .. بلا عقد أو معاناة .. فهى تتنقل كالعصفور الصغير فى جميع أرجاء الحياة خفيفة تسعد بكل شىء ـ تسعد بالعمل ـ تسعد بنزهة لطيفة ـ تسعد بلحن تسمعه ـ تسعد بمنظر طبيعى جميل تراه .. انها حققت نوعا من الانسجام بينها وبين البيئة والعالم ـ بيئتها وعالمها ـ وبهذا كانت تلمس أطراف السعادة بهذا التعامل .. لذا كنت أراها دائما على هذا الشكل .. لها روح عالية تملأ عليها حياتها فى كل ما تعمل .. وهذه الروح العالية

هى التى قربت بينى وبينها طوال هـذه المدة . والآن وهى تقف أمامى فى أتم زينة وقد لف ذلك الرداء الجميل جسدها فى التئام تام ؛ وأبرز مفاتنه التى لم أرها من قبل — فقد رأيت فيها جمالا لم أره من قبل . رأيت لها جسدا مكتنزا ناضجا به رغبـة ونداء أكاد اسمعه . اقتربت منها وقبلتها ، فاحمر وجهها قليلا وقالت لى : دع هـذا الآن واسرع حان موعد ذهابنا الى المسرح .. فقلت لها .. انى لم أرك جميلة الى هـذا الحد من قبل .. فضحكت وقالت .. انها غلطتك .. وجرتنى من ذراعى بعد أن ارتديت ملابسى وذهبنا الى المسرح وقد تشابكت ذراعانا وشـعرت لأول مرة أننى كنت فخورا بالسـير مع سيمون على هذا النحو .

وصلنا الى المسرح « باليه دى شايوت » قبل ميعاد رفع الستار ببضع دقائق وأخذنا أماكننا وكانت أماكن ممتازة .. فهى بدعوة من كلوديل نفسه .. وبدأت أجول بيظرى فى المسرح .. كانت الحوائط مغطاة بنوع من المطـاط الأحمر الطوبى وبنقوش مذهبة ؛ والستار أزرق ، والكراسى مكسوة بالقطيفة الحمراء .. وكان مسرحا أنيقـا متوسط الحجم يبرز فيه الذوق الفرنسى فى اختيار الألوان والتنسيق الجميل الذى كان يبدو فى كل ركن وفى كل شىء .. فى كل لمسة فى أنحاء المسرح .

كان كل شىء فى هـذا المكان جديدا على — لم أر من قبـل مسرحا بهذا الذوق الرفيع .. سـواء من الناحيـة المعمارية أو من ناحية التنسيق والانسجام فى المساحات والألوان وفى كل شىء وقالت لى سيمون ان التصميم قد صمم هندسـيا لاظهار الصـوت نقيـا وفى أحسن حالة . وكنت أجول ببصرى فى أرجاء المسرح كافة حينما نبهتنى سيمون لدخول « كلوديل » الى الشرفة المخصصة له . وما كاد كلوديل يأخذ مكانه حتى سـمعنا دقات المسرح التقليدية ايذانا ببدء العرض .

وكان موضوع المسرحية من الناحية التاريخية معروفا لدى فهو (محاكمة جان دارك) ثم الحكم عليها بايعاز سياسى من الانجليز بالموت حرقا . ولكن كان تناول كلوديل لهذا الموضوع جديدا تماما .. وقد أخذنى العرض الى آفاق وقمم من الاستمتاع الحق بكل ما فى المسرحية ــ سواء النص ــ أو التمثيل أو الاخراج .. ثم الموسيقى الرائعة التى وضعها « هونيجر » خصيصا للمسرحية .

وانتهت المسرحية وقد حل فى نفسى تقدير كبير « لكلوديل » ــ ولو اننى لم أفهم كثيرا من الكلام ــ وكانت سيمون تساعد فى همس فى التفسير وتوضيح الكلام . وانتهت المسرحية .. وقوبلت بتصفيق متصل لفترة زمنية طويلة ، ووقف كلوديل والجمهور يحييه وهو يرد التحية .. ثم خرج من الشرفة .. الى حيث لا أعلم . وبدأت استعد للخروج ولكن سيمون همست فى أذنى بأنه ينبغى لنا أن نذهب لكوديل ونشكره على دعوته لنا ولنهنئه بهذا النجاح الكبير للمسرحية ، فسألتها أين سنقابله .. فقالت انها تعرف مكانه .. فهو فى غرفة من غرف المسرح يستريح قبل أن يرحل . وفعلا ذهبنا اليه ، وكانت تعرف طريقها تماما ودقت الباب مستأذنة فى الدخول ودخلنا .

وعندما رآنا حيانا بابتسامة خفيفة .. قائلا آه .. انت المصرى .. قلت نعم وانى جئت لاشكرك على دعوتك لنا لمشاهدة المسرحية التى استمتعت بها تماما وكذا على هديتك لى ذلك الكتاب الذى لم أقرأه بعد . وانى اذ جئت للشكر وللتهنئة على ذلك النجاح الكبير للمسرحية الرائعة فانى أود أن اسأل سؤالا ظل يحيرنى طويلا ولا أجد له جوابا وظننت أنك يمكن أن تخرجنى من حيرتى هذه بالاجابة والايضاح فابتسم كلوديل وقال .. وماذا تريد أن تسأل .. ؟

فقلت ببساطة .. « لماذا أنت كاثوليكى » .. فصمت قليلا .. وقال انه سؤال ذكى .. أما الاجابة والايضاح فستقوم أنت بها بعد

أن تزداد معارفك وتنسو خبراتك مع السنين القادمة . وودعنا بابتسامة فيها شيء من الوداعة ، وتبادلت سيمون معه بضع كلمات قبل أن تخرج من عنده . وسألتني ماذا كنت أقول له بالضبط ــ كان حديثي معه بالانجليزية ــ ولم تستطع سيمون متابعة الحديث بطبيعة الحال بالرغم من فهمها لكثير من الكلمات ، فأعدت عليها ما قلته وبسؤالي له .. « لماذا هو كاثوليكي » .. واجابته لي . ونظرت الى سيمون في دهشة بالغة .. وبدأت تردد .. لماذا هو كاثوليكي .. انه شاعر الكاثوليكية في فرنسا .. بل انه شاعر الكاثوليكية في العالم كله .. وانت تسأله .. لماذا هو كاثوليكي ... ! ... فقلت في هدوء متعمد محاولا التخفيف من حماستها .. نعم سألته هذا السؤال ولم يجبني عليه .. وربما أسألك انت نفس السؤال .. لماذا أنت كاثوليكية .. ؟ .. وربما يمكنك انت الاجابة ، فأجابت .. نعم يمكنني الاجابة .. لماذا أنا كاثوليكية .. ! .. اني كاثوليكية لأني كاثوليكية .. ولا اجابة غير ذلك . فقلت نعم هي الاجابة الصحيحة وأنا أقبلها منك ولكني لا أقبلها من كلوديل . ربما الاجابة تنتهي الى مثل ما أجبت ، ولكني أعتقد أن هناك مشوارا طويلا قبل أن نصل الى اجابتك هذه وحتى يقتنع شخص مثلي يبحث ويدقق في كل شيء بالنسبة لهذه القضايا بالذات ــ فأنا في حالة شك وفي حالة بحث عن نفسي والأسئلة تملأ رأسي ولا أجد لها اجابة شافية . وربما كانت اجابة كلوديل هي أكثر صوابا عن أية اجابة أخرى، وأنني أستطيع الاجابة عليها بنفسي عندما « تزداد معارفي وتنمو خبراتي » على حد قول كلوديل . فقالت سيمون : انك تعقد الأشياء.. خذ الأمور ببساطة أكثر فقلت : ان مزاجي النفسي في هذه الفترة يميل الى المركب من القضايا وليس الى البسيط منها ، والواقع يا سيمون لست أنا الذي أعقد القضايا .. بل هي مسائل معقدة بطبيعتها يصعب حلها والاجابة عليها بمثل هذه البساطة التي تتخيلينها

لك أسعد حالا منى فان مثل هذه القضايا محلولة مقدما بالنسبة لك .. فانت تؤمنين .. وأنا أشك .. أشك فى الحلول المفروضة السهلة .. وهذه وسيلتى فى التعلم وكسب الخبرة .. الشك والمعاناة والبحث والتأمل هذه هى وسيلتى فى اكتساب الخبرة ـ الخبرة هى تأمل الحدث وليست الحدث نفسه .. شعرت بأن الحديث قد طال ونحن واقفان خارج مبنى المسرح .. فأخذت سيمون من ذراعها وسرنا . كنا معتادين ان نشى كثيرا على قدمينا قبل أن نقصد المنزل.. ولكن سيمون فضلت أن تختصر الطريق فى منتصفه وتعود فى « تاكسى » لأن « الكعب العالى » الذى كانت تضعه للمناسبة لا يناسب المشى الطويل .. ودعتها على باب مسكنها ودلفت أنا الى مسكنى وكان ميعاد العشاء قد انتهى . ولم أجرؤ ان أطلب شيئا من أصحاب المنزل وقد جاوزت الساعة التاسعة مساء .. وكنت أحتفظ ببعض الفاكهة فى حجرتى على الدوام فتناولت بعضا منها . وجلست فى مقعدى بعد أن تخففت من ملابسى .. وتزاحمت فى رأسى الأحداث ! المسرحية .. المسرح .. الاخراج .. الموسيقى .. ثم كلوديل نفسه وتعرفه على بمجرد وقوع نظره على ومناداته لى « بالمصرى » . ربما عرفنى لانى كنت بصحبة سيمون .. ! وتلك الاجابة الغامضة عن سؤالى له .. « لماذا أنت كاثوليكى » . وكيف لى بأن أعيش التجربة الدينية لكى اكتسب المعرفة والخبرة .. ان بى شوقا شديدا الى الدين .. نعم ان شوقى هذا أصبح يشدنى الى التجربة الدينية . لقد قرأت كثيرا عن تجارب الآخرين .. ولكنى لم أخض التجربة بنفسى حتى نهايتها .. كل ما مر بى فى الماضى من معاناة ومن ألم ومن ذلك الانجذاب الشديد للتجربة الدينية كان فى اعتقادى جزءا صغيرا من التجربة . كنت أشعر بهذا الشوق الشديد الى المعرفة .. معرفة الطريق الى المطلق .. الى اللامحدود .. وأين هو ذلك المطلق ؟ . أهو فى الداخل .. داخل

النفس كما قال تولستوى The Kingdom of God is within you
أم هو خـارج النفس .. فى الطبيعـة .. فى القوة الكامنـة فى الطبيعـة .. فى اخلاقيـة الطبيعة كـما يقول برجسـون .. بين المـونوتييزم Monothcism .. تولسـتوى .. والبـانثييزم Pantheism .. برجسـون .. كانت ذاكرتى تستعيد ما قرأته فى هـذا المجال فى الدين ــ فى التصـوف ــ فى الزهد . وكلها كانت تفتح الطريق الى المعرفة الجـادة ــ ولكنى لم أستطع حتى الآن أن أخوض التجربة بنفسى برغم شوقى الشديد اليها .

وعندما أوصلتنى أفكارى الى هـذه المرحلة .. خفت فعلا ... شعرت بالخوف .. انه طريق طويل صعب ومخيف .. ولم أستطع أن أخطو فيه أية خطوات جادة .. سوى المـامى بطبيعته والمخـاطر والصعوبات التى تحيط به .. وسوى ذلك الشوق الشـديد الذى ينتابنى بين الفينة والأخرى والذى كان يتسبب فى شـعورى بالضعف والوهن ، وكانت دموعى تسيل رغما عنى فى كثير من الأحيان . أسرعت الى قلب الصفحة صفحة الفكر وعدت الى « جان فى المحرقة » مسرحية كلوديل وموسيقى هونيجر والمسرح الرائع .. ثم سيمون فى ثوبهـا الأزرق .. وتلك الزهرة القرمزية التى وضعتها على صـدرها .. وذلك الحذاء العالى الكعب الذى أعطاها بعض الطول وأكسبهـا رشاقة .. لقد بدت فى نظرى فى تلك اللحظة جميلة .. بل فاتنة .. لمـاذا لم ألحظ ذلك من قبل .. هل هو ذلك الثوب وذلك « المـاكياج » قد أعطاها تلك الفتنة وذلك الجمال ؟ . أم أن نظرتى أنـا لها بدأت تتغير منذ فترة ولم أشعر أنـا بهذا التغيير الا فى تلك اللحظـة التى رأيتها فيها متجملة متأنقة . نعم انها لم تكن تعنى باظهـار نواحى الجمال التى كانت جميع النساء تعنى باظهارها ــ كانت ملابسها عادية وحذاؤها « الرجالى » لم يتغير .. تسير بسرعة دائمـا وفى جديـة دائما .. العمل .. والغناء الدينى .. والأصدقاء من رجال الدين ..

ثم أخيرا الصداقة مع الشاب الفنان المصرى راتب .. كان هــذا كل ما يعنيها .. كانت هذه الجولة من الفكر حول المسرحيــة ثم حول « سيمون » كفيلة بتهدئة أفكارى وسحبها نحو عالم أكثر ســهولة وبهجة .. وشعرت بالنعاس ونمت .. صحوت فى اليوم التالى نشطا خفيفا .. تناولت افطارى بشهية وارتديت ملابسى .. ثم نزلت الى الشـــارع أنتظر على باب البناية لأرى سيمون قبل آن تذهب الى عملها . ولكنها لم تأت .. وذهبت وحدى آسفا الى المتحف وأمضيت الصباح كله مع سيزان .. فاحصا مدققا فى كل شيء .. وخرجت بحصيلة لا بأس بها من المعرفة والمتعة الرفيعــة فى آن واحد .. وعدت الى النزل .. وبعد استراحة قصــيرة فى غرفتى ذهبت الى غرفة الطعــام حيث كان ميعاد الغذاء قد حان . وهنــاك التقيت بالزميــل المصرى محمود قاسم وتبادلنا الحديث بعض الوقت بالعربية ودفعت الغرامة كالمعتاد ودفعها هو أيضا . وتناولت غذائى الخــالى من اللحم حيث أننى كنت قد أصبحت نباتيا فى باريس بالرغم من روعــة المطبخ الفرنسى ، وكنت آكل كل شيء ما عدا اللحــم . وكانوا يســتبدلون باللحم لى « الاومليت » المزين « بعش الغراب » ـ « شامبنيون » أو بطــاطس وخضروات مسلوقة .. وكان هــذا مريحا لى فى تلك الفترة وخصوصا اننى كنت قد تخلصت من عادة التدخين .. وتغلبت ارادتى فى النهاية على تلك العادات والرغبات التى كنت أسيرا لها طوال سنوات عديدة .

فى المساء لم أر سيمون .. وحضر عندى جورج حنين وكنت لم أره منذ فترة طويلة .. وتحدثنا طويلا عن أشياء كثيرة وحدثتــه عن مسرحيــة كلوديل وعن كلوديل وعن الكتــاب الذى أهــداه الى كلوديل .. وقــال لى جورج ان كلوديل شــاعر مرموق معترف به عالميــا .. على كل حال سنتحدث عن بول كلوديل فيما بعد لاننى جئت لاصطحبك الى عرض لأفلام شارلى شابلن الصامتة وميعــاد

بدء العرض قد اقترب ولنسرع لنلحق ببداية العرض • ونزلنا سـويا الى حبث العرض •• وكانت هـذه العروض تعمل لنوعية معينة من المثقفين • ودخلنا قاعة العرض وقد بدأ فعلا فلم نجد مقعدا واحدا خاليا فجلسنا على الأرض فى الممشى مع الجالسين •

وكان العرض ممتعا فعلا وشابلن كان أكثر من ممتاز•• وضحكت كثيرا فى هـذه الأمسية •• ذلك الضحك الذى كنت أفتقر اليه •• فقد كان عزيزا فى هـذه المرحـلة من حياتى ••• ! ••• وفى طريق العودة حدثت جورج عن مسرحية كلوديل ــ فقال انه لم يرها . ولكنه قرأ تقريظا وتقديرا كبيرا للمسرحيـة نصا وآداء وموسـيقى ، وانه سيعمل على مشاهدتها • وافترقنا بعد أن شكرته على دعوته هـذه الأمسية التى استمتعت بها كثيرا ، وتواعدنا على اللقاء فى القريب •

فى اليوم التالى وفى الصباح انتظرت سيمون على باب البناية كالمعتاد ولكنها لم تأت •• فبدأ القلق يساورنى •• فترددت لحظـة فى الصعود الى مسكنها والسـؤال عنها ، ولكنى ارجأت ذلك انتظارا للمساء فقد يكون هناك عائق هين وقد تأتى الى فى المساء • ولكنهـا لم تأت •• وشعرت بأسف شديد وقلق لما يسكن ، ان يكون قد يحدث لها تسبب فى غيابها هذا • ولكنى حسمت الأمر فى صباح اليوم التالى عندما لم ألتق بها أمام مدخل العمارة ــ فصعدت ثانية الى الطابق الذى تسكن فيه وقرعت الجرس ففتحت لى والدتها وكانت تعرفنى ــ فقد زرت سيمون فى مسكنها وقابلت والديها من قبل •• سألتها عن سيمون فأخبرتنى أنها متوعكة قليلا منذ أمس • فسألتها اذا كنت أستطيع أن أراها ، فطلبت منى الانتظار فى الردهة ودخلت الى غرفة سيمون وغابت قليـلا وقالت اذهب اليها فهى فى انتظـارك • دققت الباب برفق ونظرت الى الداخل فرأيت سيمون جالسة فى الفراش وقد أسندت ظهرها الى ظهر الفراش وغطت ساقيها بالبطـانية • رأيتها

تبتسم فى بشاشة وارتياح لرؤيتى ، فذهبت اليها وسلمت عليها وقبلتها .. وسألتها عن علتها فقالت وهى تبتسم . ليس هناك علة .. ولكنى متعبة قليلا منذ تلك الليلة عندما كنا نشاهد مسرحية كلوديل سويا . وسألتها هل أتعبتك المسرحية ؟ فأجابت بابتسامة ساخرة ، بل أتعبتنى أنت بمناقشاتك التى حيرتنى وجعلتنى اشتغل بالتفكير فيها طوال الوقت . أتعبتنى أنت بعدم اهتمامك بى ، ولم تظهر أى اهتمام الا فى تلك الليلة حينما رأيتنى متجملة قليلا وقد ارتديت ثوبا أنيقا كما قلت لى أنت . وحينما قبلتنى تلك القبلة التى تختلف تماما عن هذه التى قبلتنيها الآن أتعبتنى أنت حينما اكتشفت أنك تعجب بالجمال الظاهرى أيضا وأن مفاتن الجسد تدنيك منى أكثر من مفاتن الروح . لقد مرت كل هذه الأفكار فى خاطرى طوال رقدتى هذه ولم تبرح مخيلتى . ما هى هذه العلاقة التى تربطنى تماما بهذا المصرى الذى يشبه القاهرة التى نراها فى بعض « الكارت بوستال » المصرى .. ما نوعها ؟ . هل هى مجرد علاقة فكرية ، وهل ما جذبنى اليك وربما ما جذبك الى أيضا هو ذلك التقارب الفكرى والروحى بالرغم من اختلاف الدين ... ؟ ... وما مصير تلك العلاقة ؟ . والى أين تذهب .. ؟ .. هل هى صداقة .. مجرد صداقة .. أم حب .. ؟ .. نعم يا راتب .. كل هذه الأفكار أتعبت ذهنى ولم أجد لها جوابا شافيا .. كانت تتكلم فى هدوء ووعى تام بمعنى كل كلمة تقولها .. وكنت أنا أستمع صامتا .. منصتا لكل ما تقوله .. وقد هزنى تفكيرها وكلامها الواضح المعبر عن كل خلجة من تفكيرها .

انها تفكر فى ماهية العلاقة بيننا .. هل هى صداقة .. مجرد تقارب فكرى وروحى .. أم هى حب .. وأنا بالمثل أسأل نفسى هذا السؤال : هل هى صداقة أم حب .. ؟ وما هو الفارق بين الصداقة والحب ؟ الصداقة حب لاشك فى ذلك ولكن نوع الحب هو موضع التساؤل وليس الحب نفسه . انها صداقة بين رجل

وامرأة .. هل يمكن لهذه الصداقة أن تنمو وتظل تنمو بدون أن تنتهي بالحب الشامل المتكامل ، الجامع بين الروح والجسد . وبين الفكر والجنس ، وخصوصا وأن هذه الصداقة قد تمت بين شابين حرين طليقين الا من مثاليتين تتماثلان فى جزء وتختلفان فى أجزاء . المرأة كاثوليكية مؤمنة .. والرجل مسلم يبحث عن الهدى .. وبين الايمان الصادق البسيط والشك والبحث عن الهدى .. يكمن خلاف عميق . بين الايمان الراسخ المقيم والشوق الآمل فرق شاسع ، بل ربما كان هناك تقارب يكمن فى هذا التضاد .

كانت سيمون تتحدث وأنا أصغي وتتردد كلماتها فى مخيلتي محدثة ذلك الصدى الفكرى الذى أثار هذه التساؤلات . وكانت كلمات سيمون تستدعى اجابة منى .. ولم أفكر طويلا فى الاجابة فقلت لها : انى أحب الجمال اينما وجد .. جمال الروح — جمال الفكر — جمال الطبيعة .. جمال الجسد .. ان جمال جسد المرأة يثيرنى دائما .. وان جمال المرأة عموما يأخذ منى التفاتا واعجابا على الدوام ، وليس من الضرورى أن يكون هذا الاعجاب حسيا وجنسيا .. ولكنى فنان يفتننى جمال المرأة فى كل جزء منها .. فى وجهها وفى عينيها ، فى شعرها ، فى نهديها ، فى أردافها ، فى ساقيها ، فى قدميها ، فى كل جزء منها كما ذكرت . وهذه الفتنة والاعجاب لا يخلوان من الجانب الحسى بل هو موجود دائما ومتكامل مع الاعجاب الشكلى . وانى أعتقد أن تكامل الجانب الشكلى مع الجانب الحسى هو ضرورى وأساسى للمجال الذى يستأثر باعجابى خاصة — وبالاعجاب عامة — ان نهد المرأة .. فى استدارته الممتلئة وفى التركيبة الجميلة التى وهبتها الطبيعة له وفى تلك « الحلمة » المدلاة منه فى اعتزاز .. ذلك النهد الذى أشبعنى طفلا رضيعا ويشبعنى رجلا مكتملا ، ذلك النهد لا يمكن فصل استدارته الشكلية عن حسيته التى ينجذب لها كل ما فينا من أحاسيس الطفولة والرجولة معا . ان

تجريد الشكل عن حسيته ومعنوياته هو عامل نقص وليس عامل تكامل .. وأنا اسعى دائما الى التكامل .

لم تدهش سيمون من اجابتى هذه التى كنت أستعين بالكلمات الانجليزية العديدة حيث لا تسعفنى فرنسيتى فى التعبير .. لم تدهش سيمون وقالت : انها تعلم أن هذه الاحاسيس موجودة عندى فهى ترى فى فنانا مليئا بالاحاسيس فى كل ما أراه وما أفعله وما أرسمه أيضا ، وأنها ترى أن ما قلته الآن تراه هى فى ذلك « الترسو » الذى رسمته بالقلم فى لندن . فالشكل يتكامل فعلا مع الجانب الحسى بلا أية مبالغة فى أى منهما ثم قالت انها مسرورة من حضورى وأنها سعدت بذلك الحوار المفيد ، وأنها الآن فى أحسن حال وستذهب الى عملها غدا صباحا حيث سنلتقى كالمعتاد .. فى المكان المعتاد .

تركتها مودعا الى الغد ـ وذهبت الى غرفتى وقد قرب النهار أن ينتصف .. وجلست انتظر ساعة الغداء وأنا لازلت أفكر فيما قلته أنا لسيمون .. وقد استعدت الحوار فى ذهنى فقرة فقرة فلم أجد فيه ما يعيبه فان كل ما قلته أؤمن به . وحينما حانت ساعة الطعام ذهبت الى قاعة الطعام ، حيث تناولت طعامى النباتى كالمعتاد ، وتبادلت الحديث العادى مع بعض النزلاء بالفرنسية .. ولم أدفع أية رامة هذه المرة ، حيث كان الجميع من الفرنسيين ومعظمهم من السيدات . واحدة منهن سويسرية ولا تتكلم غير الفرنسية . وكنت اقتضب الاجابة بقدر الامكان حتى لا تطول الجملة واتحاشى بدء الحديث خوفا من الوقوع فى مجال « التغريم » وقرب النهاية وقبل أن أبرح المائدة قالت « ظاظا » وهى فتاة فى سن الثلاثين شقراء وجهها مملوء بنقط حمراء .. ربما حب الشباب .. وكانت هى الموكلة بحصالة الغرامات : قالت ان الحصالة قد امتلأت تقريبا وينقصها بعض الفرنكات ، وأنت لا تخطىء كثيرا الآن حيث أن الانجليزيات قد رحلن ،

والعراقى لم يعد يحضر الا لماما ، وصـديقك المصرى الذى يدرس الفرنسية أصبح هو الآخر حذرا للغاية ، ولا أعرف متى ستمتلىء الحصالة حتى نعمل الحفلة المعتـادة ونأكل « الجـلاس » ونشرب الشمبانيا ، فقد تطول المدة والشهر فى نهايته (كانت الحفلة تقام فى نهاية كل شهر) ٠٠ وكانت الحصـالة قبل ذلك تمتلىء أكثر من مرة . فسألتها كم ينقص الحصـالة من نقود حتى تمتلىء ـ فأجابت انه مبلغ لا يزيد على خمسة فرنكات ٠ فأخرجت من جيبى خمسة فرنكات ووضعتها على المـائدة وقلت الآن قد اكتملت الحصالة ويمكننـا اقامة الحفل بشرط أن يكون لى الحق فى الخطـأ ٢٠ مرة ٠ ان الخطأ كان يحسب (بربع فرنك) ٠ فضحك الجميع وأشاروا بالموافقـة ٠ واتفق الجميع على أن يكون مساء السبت القادم أى بعد ثلاثة أيام هو اليوم المحدد للحفل ٠

ذهبت الى غرفتى واسترحت قليـلا وقد انتويت الذهاب الى الأكاديمية التى كنت أهجرها أياما كثيرة ٠ وفى الميعاد ذهبت اليها ٠٠ ووجدت صديقتى الأمريكية « جلوجو » هناك ، فقابلتنى بترحاب كبير وعلمت منها أنها سترحل الى أمريكا فى غضـون بضعة أيام ، وقد أعطتنى عنوانها وقالت أنها ستكتب الى وأنها تأمل أن أكاتبها بالمثل ٠ فقلت طبعا سأكتب اليك وانى لن أنسى وقفتك بجـانبى أبدا فى المرض وفى الصحة ٠ وأنى أتمنى لك كل التوفيق ٠

هذه الفتـاة الأمريكية اليهودية التى لم تعطها الطبيعة جمـالا أو أنوثة قد أعطتها قلبا كبيرا عطوفا ، عوضـا عن كل شىء آخر ٠٠ بالنسبة لى على الأقل ٠ وهى بجانب هـذا القلب الكبير فنانة موهوبة أعتقد انها ستنجح فى فن الاعلان على حد تصـورى ، وهـذا يفتح أمامها الباب لكسب العيش فى سهولة ويسر أكثر من أى فن آخر ٠ فانى أعتقد مما أراه حولى من الانتاج الجـاد للفنانين انه لن يسـد

حاجاتهم الضرورية من طعام ومسكن وملبس . لقد باع « أوزنفانت » لوحته (الحياة) التى ظل يعمل فيها أكثر من خمس سنوات غير التحضيرات الأولى ـ ببضع مئات من الجنيهات ، وكان كل عزائه كما قال هو بنفسه أن فرنسا الدولة قد اشترتها لتضعها فى أحد متاحفها . وكان هـذا هو التعويض المعنوى الوحيد الذى أعطى أوزنفانت نوعا من الرضا . أما الجنيهات القليلة التى دفعتها الدولة .. فلو قسمت على عدد الأيام التى قضاها أوزنفانت فى رسم هـذه اللوحة لوجدناها لا تتجاوز الخمسة والعشرين قرشا يوميا .

وهذا هو الحال مع أستاذ كبير مثل أوزنفانت ، وعلته الوحيدة اذا اعتبرناها علة أنه جاد ولا يرضى الا نفسه ولا يستجيب لرغبات السوق ولا الى « المودات » السهلة التى يتقبلها الجمهور بغير عناء منه أو مشقة . ان له نظرية : Purism وهو يسير فى طريق رسمه هو ليطبق النظرية بالعمل والتنفيذ .

اذا كان هـذا هو الحال مع فنان كبير مثل أوزنفانت فما بال الآخرين الصغار ـ هل يمكن للمجتمع السائد الآن أن يعطيهم الأمان المادى نظير عطائهم المعنوى والفنى ؟ .. ها أنذا أقرأ عن فنان بديع مثل « جليانى » الايطالى وقد مات جوعا ومرضا ولم يجد من المجتمع الا الجحود والنكران . وهناك الكثيرون من غير جليانى .. ذهبوا ضحية الجدية والاعتداد بالنفس وعدم التبذل فى فنهم لارضاء الطبقة البورجوازية غير المثقفة . ان هـذه الحقبة من الزمن هى حقبة مجدبة قاسية بالنسبة للفن والفنان التشكيلى بالذات .

ودعت « جلوجو » وهى تهم بمبارحة المكان بعد أن ودعها جميع الزملاء ، وجاءت مدام بوكييه مديرة الأكاديمية وزوجها مسيو بوكييه لتوديعها أيضا ، وتمنى لها الجميع التوفيق ، فقد كانت محبوبة من الجميع لدماثتها وطيبتها .. ثم خرجت « جلوجو » ولم أرها بعد

ذلك مطلقا .. بل لم يصلنى منها أى خطاب كما وعدتنى ـ وكنا فى النصف الأول من عام ١٩٣٩ .

خرج الجميع تقريبا من الأكاديميـة ولم يبق سـواى وزميلة انجليزية وأخرى فرنسية وهما فى مثل سنى تقريبا . ولمـا كنت فى حالة « حب » « لسيزان » فكنت أحمل معى عند ذهابى للأكاديمية بعض التفاح وأضعه أمامى وأتأمله . وكنت فى معظم الأحيان وفى نهاية الجلسة آكل التفاح بمشاركة الزمـلاء . وجاءتنى الانجليزيـة وطلبت تفاحة فأعطيتها ، وبدأنا نأكل وتتحدث بالانجليزية ونشـير الى الفرنسية وكأنها لا تفهم حديثنا . وقلت للزميلة أرجو أن تعزمى على زميلتنا الفرنسية بتفاحة ، وفوجئنا بانها جاءت من فورها باسـمة وتناولت التفاحة وبدأت تتحدث الانجليزية بطلاقة تامة . وشعرنا بشىء من الحرج لئلا نكون قد قلنا شيئا يمسها على أسـاس أنها لا تفهم الانجليزية . وقد نقلت اليها الزميلة الانجليزية شـعورنا هـذا ، فضحكت وقالت لم يحدث شىء من ذلك .

وقد عقدت الصـداقة بيننا ـ بهذه المناسبة ـ وصرنا نزور المتاحف معا فى بعض الصباحات نناقش الأعمـال معا .. كل يبدى رأيه .. وكانت الصحبة حيـة ومفيدة فى معظم الأحيـان ، وكانت الفرنسية على جانب كبير من الثقافة والذكاء رغم صغر سنها ، وكنت ألمس بعدا ثقافيا جادا وراء الآراء التى تبديها عن الأعمال الفنية .. تشكيلية وغير تشكيلية .. من موسيقى وأدب وخلافه . هـذه الفتاة جعلتنى أفكر فيما نحن عليه فى مصر .. نحن الشباب فى مثل سن تلك الفتاة التى لم تبلغ العشرين بعد ـ وهى على معرفة طيبـة بالفنانين التشكيليين العالميين وكذا الموسيقيين والارباب منهم . وهى تتكلم عنهم عن دراسـة وعلم . نحن الشباب فى مصر لم تكن ثقافتنا تتعدى قراءة بعض المقـالات لأدبائنا أو بعض القصص القصـيرة التى تنشر فى

المجلات — وكانت الرسالة والثقافة هما أهم مصـــدر لثقافتنا فى تلك الحقبة ، يضاف الى ذلك بعض الروايات المترجمـة • وكان العقـاد وطه حسين والمـازنى وتوفيق الحكيم وسلامة موسى هم أئمتنا فى مجال الثقافـة وكنا نعجب بتمثال نهضـة مصر لفنـان مصر الكبير مختار — لا للقيم الفنية التى أودعها مختار فى تمثاله — ولكن الضجة السياسية الحماسـية الوطنيـة التى صاحبت تمويـل اقامة هـذا التمثال كانت هى العنصر الرئيسى فى اعجابنا بالتمثال واهتمامنا به • أما الموسيقى الكلاسيكية الرفيعة فكانت ترفا لا نعرفه حتى الثلاثينات• وكانت البيئة والمجتمع المصرى عاملا غير مساعد تماما على استيعابنا ثقافة أكثر عمقا وأقل ضحالة • تلك الفتاة الفرنسية •• قد نشأت فى بيئة ومجتمع قد أعد لها الكثير من التسهيلات فى مناهل الثقافة : من متاحف وقاعات للموسيقى والأوبرا والمحـاضرات فى شتى العلوم والفنون ، كما أن وعى المجتمع وثقافتـه ككل جعل تنشئة مثل هـذه الفتـاة وتثقيفها أكثر يسرا من مجتمعاتنا المصرية والعربية •

وكان لابد لشاب مثلى أن يبذل مجهودا مضاعفا ، بل مضاعفا عدة مرات حتى يقف على قدميه على نفس مستوى تلك الفتاة • ان مصر التى أعطت الحضـارة والمدنية للبشرية جمعاء يجب أن تقف على قدميهـا مرة ثانيـة لتهب الكثير والكثير جـدا مما اكتنزتـه من روائع — ما زالت دفينة فى قلب كل مصرى — أودعتها الأجيال ذلك القلب ليصونها حية ، ولكن فى ثبات وجمود وتوقف ، حتى يحين الوقت ليوقظها ذلك الشباب المتعطش الواعى بتلك المدخرات الثقافية التى تجمدت على المدى الطويل •

كانت صور مصر التى أحببتها بكل قطرة من دمى تتزاحم فى مخيلتى • كنت أرى كل شىء فيها فى ضـوء جديد •• ذلك التراث الضخم من الفن التشكيلى الذى تركه لنا الأجداد والذى لم نكن

نعرفه كما ينبغي أن تكون المعرفة .. معرفة القيمة الفنيـة الكبرى لهذا الفن الرائع .. كان المتحف المصرى يعرف « بالانتيكخانة » ــ أى محل الأنتيكة ــ وكلمـة انتيكة لم يكن وقعها عندنا له أى معنى له صلة بالفن ، وبالفن الرفيع الذى أودع ذلك المخزن العتيق . ان القلة النادرة التى تعرفت على قيمـة الفن المصرى القديم فى العشرينات والثلاثينات تعرفت عليه من خـلال نظرة أجنبية غير مصرية ــ من خلال ما كتبـه « المصرولوجيون » الأجـانب عن كشـوفهم وتقـديرهم لمـا كشفوه من فنون وروائـع ، كانت مدفونـة تحت الأرض ، فكشفوها هم ولكنها ظلت مدفونة بالنسبة لنا نحن المصريين .حتى تلك الفئـة القليلة من الفنانين التشـكيليين الذين سافروا للدراسـة فى الخـارج ــ كان معظمهم يتعبدون فى محراب الفن الاغريقى بصفـة خاصة والفن الأوربى بصفة عامة .

وحتى الآن نجد أن الغالبية العظمى من فنانينا وأدبائنا يتعبدون فى ذلك المحراب الاغريقى الأوروبى ــ والأوروبى المعاصر ــ ولكنهم لا يجادلون فى عظمة ورفعة الفن المصرى القديم ، لا لفهم حقيقى منهم لذلك الفن الرائع ، ولكن لأن أوروبا قالت بذلك من خـلال كتابها ومفكريها ومتذوقى الفن فيها ، وأحسن هؤلاء فهما للفن المصرى القديم يقف عند السطح .. عند القشور وعند الغرائب والواجهـات المظهرية لفن مصر القديم ، ولكنهم لا يجرؤون على الدخول الى الأعماق .. الى القيم الأسـمى والارفع .. الى تلك السمات الحضـارية المرهفة والضاربة فى أعمق الأعمـاق من القوة والصرحية والعظمـة مع ذلك الارهاف الحضارى الشديد الشفافية : صفاء فى النفس .. ورؤيـا للامحدود .. ونظرة الى المـافوق .. تخرجنا من صغريات الحيـاة الضيقة الى الفسحة الكبيرة التى تنقلنا اليها تلك النظرة ، التى يتسم بها الفن المصرى العريق .

وفى باريس ــ وفى لندن ــ كان للفن المصرى القديم وما رأيته

منه فى المتاحف وزن كبير كمصـــدر من مصادر الثقافة ، نهلت منه الكثير لبناء النفس والشخصـــية وتعديل المسار السلوكى الى الأحسن والأرفع • وفى مصر أيضا لم يكن للتراث الأولى الرائع الذى خلفته لنا الأجيـــال المصرية والعربية ــ أثر ذو بال فى تثقيف الشـــباب ، لأن مناله بالنسبة لنا كان بعيدا ، ولم نحظ بأى توجيه أو ارشـــاد يذكر فى هـــذا الصدد • وحتى القرآن الرائع لقد حفظت الكثير من سوره وآياته عن ظهر قلب ــ ولكنى لم أفقه من معانيـــه شيئا ــ كان الحفظ لمجرد الحفظ هو المطلوب ، وكنت أردد الآيات بلا أى مجهود لفهم معانيها • كنا محرومين من التوجيه الصحيح وكان التعليم يكاد يكون آليا •• لغاية محدودة : النجاح والحصـــول على الشهادة ثم الوظيفة • وكان اذا صادفنا أســـتاذ له تطلعات ثقافية أدبيـــة فنيـــة أو علمية كنا نلتف حوله على الفور •• على الأقل فئة معينة من محبى المعرفة كانت تبادر بالالتفاف حول هذا الأستاذ • وقد صادفنى أنـــا وبعض الزملاء بعض هؤلاء الأساتذة •• وكان سفرى للدراســـة خارج مصر وشوقى الشديد للمعرفة والعلم هو من نتائج هـــذا اللقاء مع بعض من هؤلاء الأساتذة الأفاضل ، الذين أشاروا ولو من بعيد الى مجالات الثقافة الواسعة والمتعددة ، سواء فى تراثنا الاقليمى أو فى التراث الانسانى عامة •

واليوم وأنـــا استعيد هـــذه الذكريات البعيدة •• واســـتعيد ما قرأت ــ ما كتبه الأوروبيون فى تقييم الفن المصرى القديم ــ أتمنى أن يقوم البعض منا •• نحن الفنانين التشكيليين ، ومن منا له دراية فى عمليـــة التقييم والتذوق ــ فى كتابـــة تقييم جديد للفن المصرى القديم من وجهة نظر مصرية • وانى أقصـــد بالتقييم ــ التقييم الفنى التشكيلى بمعنوياته وملابساته الحضارية وذلك من وجهة نظر جديدة عما كتبـــه الأجانب من جهـــة نظرهم هم •• أن تراثنـــا التشـــكيلى

أكثر روعة من كل ما كتبه الأوربيون عنه . وكنت ألمح فى كثير مما كتبه الأوربيون بعض القصور فى فهم وادراك تلك الرسالة الحضارية الرائعة التى سطرها المصريون القدماء على الحجر وبالحجر . ومازالت مناهل الحضارة الأوربية التى نبعت من بلاد الاغريق تسيطر على فكرهم وحسهم ، والقليل منهم من استطاع التخلص من تلك السيطرة وبالتالى خفف من تعصبه لها .

ان علماء التاريخ والآثار من المصريين قد كتبوا وقيموا ، ولكن لم يستطع أحد منهم حتى الآن أن يسبر أغوار ذلك الفن العريق فى تشكيليته ومعنوياته .

ذهب فكرى بعيدا من باريس الى القاهرة .. الى مصر ومناهل الثقافة فيها ، وتلك المقارنة الصعبة بينها وبين المناهل المتاحة فى أوروبا مع ما لنا من تراث ضخم رائع خلفته لنا الأجيال السالفة ، ولم نستفد منه شيئا نحن الفنانين التشكيليين بصفة خاصة ، حيث ان مصر قد أودعت ثقافتها وحضارتها فى التشكيل : فى العمارة .. فى النحت والتصوير فلم تتح لنا الفرصة لتعلم كيف نقرأ لغة الشكل بعد ــ وهى لغة عالمية يفهمها الجميع .

جالت بخاطرى هذه الخواطر كلها وكانت تشغلنى حماسة لما يمكن عمله لمصر فى هذا المجال .

تركت الأكاديمية مودعا الزملاء وذهبت رأسا الى المنزل ، لم أر « سيمون » فى ذلك المساء ، ولكنى وجدتها فى الصباح على باب البناية فى انتظارى ، وقالت ان عندها ساعتين يمكن أن تقضيهما معى فى زيارة اللوفر اذا كنت ذاهبا الى المتحف هذا الصباح . وقلت نعم انى ذاهب الى « اللوفر » وتسعدنى صحبتك .

وفعلا ذهبنا الى المتحف وامضينا وقتا طيبا فيه ــ كانت تستمتع

سيمون الى شرحي لبعض الأعمال فى رغبة صادقة للمعرفة •• وفى هذا اليوم التقيت بعمل فنى استحوذ على مشاعرى تماما ولم أكن أعرفه من قبل ـ كانت لوحة رائعة لمريم وعيسى المسيح مسجى فى حجرها ووجهها الطاهر قد مال قليلا على كتفها اليمنى فى حزن دفين •• حزن عميق •• عميق الى الحد الذى جعلنى أرتعش لحظـــة وكأن شرارة كهربائية قد مستنى •• خصـــوصا وقد لمحت كفيهـــا وأصابعها وقد انطبقت على بعضها متصاعدة وملتصقة فى ميل خفيف معاكس لميل الوجه وكأنهما كاتدرائيـــة بأبراجها السامقـــة •• ثم جسد المسيح المسجى فى حجرها وذراعه اليمنى قد تدلى بجانبه فى استسلام تام لقدره ، وتلك اليد اليسرى بأصابعها التى التفت على بعضها فى تعبير يشتم منه رائحة الموت • كانت اللوحة بأشخاصها الأربعة بينها مريم الأم و « المجدلية » المحبة ، وجسد المسيح المسجى ، والكل يغرق فى صمت حزين •• صمت لهول الصدمة يعقبه حزن جارف لا يجد مجالا للتعبير سوى ذلك الصمت المخيف •

لقد مرت بى هـــذه المشاعر أمام تلك اللوحة « بيتا أفنيون » La Pieta D'avignon ولم أستطع التعبير عن مشاعرى بالكلمة ، ولكننى وجدت من الملامح التى ارتسمت على وجه سيمون أنها تشاركنى نفس الاحساس •

خرجنا من متحف اللوفر صامتين •• وبعد برهة سألت سيمون عن المـــكان الذى يمـــكن أن أرى فيـــه أعمـــالا أخرى من هـــذه المدرسة ـ مدرسة أفنيون ـ انى قرأت عن هذه المدرسة وأن الكثير من انتاجها بغير توقيع ولا يعرف اسم الفنان صانعها ، وأننى أحب أن أرى المزيد من مثل هذه الأعمال ولكننى لا أعرف أين توجد ـ ان بعضها فى متحف اللوفر ، ولكنى أعرف أن أعمالا كثيرة أخرى فى خارج باريس • وقالت سيمون •• نعم يا راتب سنذهب ســـويا الى

ذلك المكان الجميل انه « فونتين بلو » ــ ان هنــاك قصــورا رائعة وكنــائس ومتاحف من القرن الخامس عشر ــ سنرتب رحــلة الى فونتين بلو فى الأسبوع القادم .. انه مكان جميل وبه غابات خفيفــة جميلة .. سنأخذ غذاءنا معنا ونقضى اليوم بأكمله ونعود فى المساء .. سترى ما تريد أن تراه من الأعمال الفنية وسنستمتع بالطبيعة الخلابة هناك . وأرجو أن يكون الجو صحوا فى ذلك اليوم .

قلت لها ان هــذا سيكون تغييرا جميلا بالنسبة لأنى لم أبرح باريس طيلة الشــهور الطويلة التى أمضيتها فيها ، حتى فرساى لم أشاهدها بعد .

والواقع أن فكرة الخروج من المدينة قد بعثت فى شــوقا الى الخروج الى الطبيعة الطليقة التى لم يدخلها الترتيب والتنسيق بيد الانسان .. ذلك الشوق الذى ظل خاملا فى نفسى طوال دراساتى وتأملاتى فى عطاء الانسان المحدود ــ وقد بدأ الآن يهفو الى عطــاء الطبيعة اللامحدود ــ الذى قابلته فى « برنت ايلاند » فى اسكتلندة . وفى تلك الزيارات القليلة الى « رتشموند » ــ (ضاحية من ضواحى لندن) .. فى جذوع أشجارها الضخمة العملاقة .. ثم ذلك البحر الممتد الى ما لا تجــد له العين نهايــة .. وتلك الأمواج الهــادرة ، والصواعق برعدها وبرقها التى عايشتها فى « رامسجيت » .

كانت فــكرة طيبــة واقتراح جــاء فى وقتــه لعمــل زيــارة « لفونتينبلو » .. لقضاء يوم فى أحضان الطبيعة ثم مشاهدة الأعمال الفنية من مدرسة أفنيون وغيرها .. تكون متعة ذات شقين .

أعدت سيمون كل شىء من أكل وشرب وكل ما يلزم للرحلة .. وسافرنا فعلا الى « فونتينبلو » بعد بضعة أيام .. وكان الجو صحوا والسماء صافية .

رحلنا فى الصــباح الباكر ونحن على استعداد تــام للاستمتاع

بالرحلة بكل أهدافها سواء بما سنراه من أعمال فنية أو بالطبيعة والغابات الخفيفة التى تحيط بالمنطقة أو بالصحبة بيننا .

وكانت سيمون متوردة الوجه يرسم البشر على وجهها البسمة والتفاؤل والانشراح .. وكانت الرحلة فى القطار مريحة .. ورحنا نشاهد روعة الطبيعة وهى تبرز مفاتنها فى مشاهد متغيرة ، فتارة تتألق قرية تحت ضوء الشمس الساطعة .. وتارة تستجيب لظل تغمرها به سحابة مارة فتحنو وتترفق فى تلطف مريح .

وكانت حالات ومشاهد الطبيعة هذه تعكس علينا أحوالا مشابهة .. فكنت امتلىء فرحا ونشوة ، وتتألق نفسى مع تألق الطبيعة فى الضوء الساطع ، ثم تهفو نفسى الى ذلك الترفق والتلطف والحنو كلما دخلت مشاهد الطبيعة فى ظل السحاب .. وكنت أشعر بأن سيمون تنفعل مثلى بهذه المشاهد المتغيرة .. بل انى شعرت بأنها تلتصق بى .. بل وتزداد التصاقا ، وكنت أشعر بدفء هذا الالتصاق .

وفى لحظات كان فكرى يسرح قليلا فى تلك العلاقة التى تربطنى بسيمون : هل هى مجرد صداقة وتقارب فى الفكر .. أم أن هناك شيئا أكثر ينمو رويدا رويدا بيننا .

ان فكر سيمون نما كثيرا فى طريق يقترب من طريق فكرى بل انى شعرت أن معتقداتها الدينية الجامدة بدأت تهتز تحت ضربات فكرى المتحرر ، حتى أنها ذات يوم قرأت على خطابا أرسلته لها صديقتها « مدموازيل كوجو » صديقة القساوسة الذين تعرفت بهم جميعا عن طريق سيمون . كان الخطاب ردا على خطاب سيمون لها بعلاقتها وصداقتها التى تنمو بينها وبين « راتب » وجاء فى خطاب صديقتها أنها تحذرها منى — بل انها شبهتنى بالشيطان الذى سيخرجها من معتقداتها ودينها .. وأنها تقدرنى حقا كفنان ومفكر وانسان ،

ولكن الخط الذى أسير فيه بعيد جدا عن الخط الذى يجب على سيمون أن تسير فيه ، والطريق غير الطريق •

قفزت هذه الأفكار وما قرأته على سيمون من خطاب صديقتها الى ذهنى فى تلك اللحظات وهى ملتصقة بى والقطار يسير••ان ما قالته صديقتها عنى ربما كان صادقا لو تغيرت كلمة شيطان الى كلمة رجل لا يؤمن بالجامد من الأفكار الموروثة ، ويؤمن بالتجربة والبحث وراء المعرفة الحقة المستقاة من التجربة المباشرة وليس من الأفكار والمعتقدات الجامدة • واذا كان تأثيرى على سيمون قد يدعوها الى الخروج عن جوامد الفكر الموروث فمرحبا بذلك ـ فهو فى صالحها طالما أن لها من العزم وقوة الشخصية ما يمكنها من مجابهة آلام التحول من الأخذ بخبرة الآخرين الى الأخذ بخبرتها (هى) مباشرة بفكرها (هى) وبتأملها للموروث وكذا الحدث المباشر • اننى لست شيطانا كما ذكرت « مدموازيل كوجو » صديقة سيمون فى خطابها ، ولكنى أكسب خبرتى من تأملى للحدث والتجربة ـ وكذا من تأملى لتجارب الآخرين ـ ولكنى أبحث وأمحص كل شيء بنفسى لأجد طريقى •

كانت هذه الأفكار والخواطر تمر فى ذهنى كشريط تتتابع فيه الصور •• كيف ومتى عرفت سيمون •• وكيف نمت علاقتنا التى كانت بدايتها تعلقنا نحن الاثنان بالموسيقى عامة • رأتنى ورأيتها لأول مرة فى قاعة للموسيقى كانت تعزف فيها موسيقى باخ •• الذى أحببناه نحن الاثنـان •• سهراتنا الطويلة مع الموسـيقى فى غرفتى والكتب الفرنسية التى كانت تساعدنى فى فهم لغتها • زيارتنا الكثيرة لمتاحف الفن وتذوق الأعمال الفنية سـويا ومناقشة قيمتها • كل هـذا •• بلاشك قد قارب بيننا فكريا وروحيا •

والآن •• وسيمون بجانبى تلتصق بى •• تعترينى رغبة فى أن التصق بها أكثر وأكثر •

التفتت الى سيمون ونظرت فى وجهى طويلا مستفسرة عما يجول فى خاطرى بعد ذلك الصمت الذى طال برهة ونحن نتأمل مشاهد الطبيعة ، وسألتنى فيم كنت أفكر ؟ . فقلت لها على الفور — اننى كنت أفكر فيها . ولمحت حمرة خفيفة علت خديها — وأجابتنى بانها أيضا كانت تفكر فى .

ووصل القطار .. ونزلنا وكل منا يحمل جزءا من المتاع الخفيف الذى جلبناه معنا . وقصدنا للتو الى المتحف .. ثم الى بعض القصور القديمة حيث شاهدنا أعمالا فنية رائعة بلا توقيع فى أغلبيتها ، وهى من القرن الخامس عشر . وكانت جولتنا سريعة نسبيا حيث بدأنا نشعر بالجوع .

توجهنا الى الحدائق الطبيعية .. غابات خفيفة طبيعية .. تمتد على مساحات كبيرة .. وافترشنا الأرض ، وعلى قطعة من القماش المشمع .. أخرجت سيمون بعض السندوتشات وصبت من الترموس قهوة ساخنة . وبدأنا نلتهم السندوتشات فى استمتاع ولذة بعد ذلك المشوار الطويل .

وبعد برهة سألتنى سيمون : انك قلت ونحن فى القطار أنك كنت تفكر فى .. فهل لى أن أسألك ماذا جال بخاطرك عنى ؟ فقلت لها : « وكنت أتوقع منها هذا السؤال فى أية لحظة » .. نعم سأجيبك .. وانى اتوقع منك أن تجيبنى أنت أيضا على مثل سؤالك . انى كنت أفكر يا سيمون فى علاقتنا منذ بدأت وقد تعانقت أفكارنا بعد أن تمت تلك العلاقة فى خطوات حثيثة . نعم تعانقت أفكارنا بل انها التحمت فى أحيان ومواضيع كثيرة — وأنت كنت تتغيرين فى نمو دائم وأنا أيضا — وقد تلاقينا روحيا فى كثير من المواضيع . والآن أنت بجانبى ومنذ لحظات حيث كنا فى القطار وأنت تلتصقين بى وقد شعرت بالدفء يسرى فى جسدى من جراء هذا الالتصاق ، فقد كان جسدك يشع هذا الدفء — جال بخاطرى أن هذا التوافق

والتعانق بيننا فكريا وروحيا قد يطلب التكامل فى التعانق والالتحام الجسدى كثمرة قد نضجت فعلا وشعرت أنا بنضوجها .. أشعرنى ذلك الدفء الذى شع من جسدك حين التصق بى ... ! كان قولى هذا تصريحا أكثر منه تلميحا وكنت جادا فى طريقة التعبير ولم يكن فى ذلك التصريح أية مغامرة فقد كنت صادقا مع كل كلمة قلتها . وكنت لا أتوقع أن تجيبنى هى بنفس الأسلوب .. بنفس الصراحة ، ولكنها فاجأتنى بقولها انها تعمدت فعلا أن تلتصق بى وكانت تتمنى أن أجيبها بالمثل ، ولكن جديتى فى كل شىء كانت تخفيها قليلا . فربما لم أكن راغبا فى الاستجابة لهذا الميل الحسى — بل انها تمنت ونحن فى غمرة الانشراح فى هذه الرحلة الجميلة ، والطبيعة تتغير أمامنا فى بهجة رائعة .. فقد تمنت أن تلتصق بى أكثر بل وأن آخذها بين ذراعى وأقبلها . فاجأتنى سيمون بصراحتها التى فاقت صراحتى ، وكانت هى أيضا جادة فى تعبيراتها ولم تتدلل ولم يأخذها خجل مما تقوله على الاطلاق .. ومنذ تلك اللحظة بدأت علاقتى بسيمون تأخذ طريقا طبيعيا تماما .. فكريا وحسيا وجنسيا .. علاقة تكامل بين الفكر العلوى والجسد الأرضى .. وكأن هذا كان محتوما منذ البداية ولكن هذا الجسد الأرضى فى مثل هذه الحالة لم يعد أرضيا .. فقد ارتفع الى مستوى الفكر العلوى وأصبح الاثنان وحدة متكاملة .. متبادلة الجذور — بين اثنين على مستوى ثقافى متقارب .

الجنس كان مشكلة حقيقية بالنسبة لى . قبل سفرى الى لندن وفى السنة الأولى من اقامتى بها . ان الجنس مشكلة كل شاب فى سن المراهقة وما بعدها .. ولكنها مشكلة يسهل حلها على الكثير من الشباب بطريقة أو أخرى .. أما بالنسبة لى فقد كان حلها عسيرا .. شاقا .. على . كنت أشعر بأننى امتهن نفسى حقيقة بتلك العلاقات الجنسية العابرة سواء المأجورة منها أم غير المأجورة . وكنت

أشعر بالاستياء بعد الممارسة بأى نوع من هذين النوعين • وكنت اجتاز هـذا الشعور بالاستياء بأن هـذه رغبة غريزية وحاجة طبيعية تماما لا ينبغى كبتها • ولكن بعد فترة جاوزت العام وأكثر من دراساتى وقراءاتى وتأملاتى المتصـلة حول هـذا الموضوع ـ أدركت أن هذه العلاقة الجنسية لا ينبغى لها أن تكبت ولكن أيضا لا ينبغى لها أن تمارس على ذلك المستوى الحيوانى العابر فى ذلك الحين وأنـا فى لندن • وعندما وصلت الى هـذا القرار وكان قرارا يتناسب مع حالتى النفسية والفكريـة •• امتنعت فعلا عن السعى لاشـباع رغبـاتى الجنسية عن هـذا الطريق الحيوانى العابر • وقد ساعد على هـذا قراءاتى وتفهمى لهذه العلاقة على مستوياتها الأرفع • قرأت قصـة للكاتب والرسـام الانجليزى « د•هـ• لورنس » وكان عنوانهـا « الرجل الذى مات » ـ كان لورانس كاتبا ورساما جريئا ، وكان البوليس الانجليزى قد أغلق له معرضـا للوحاته وصوره بدعوى انها اباحية لمجرد انه يرسم العرى ممتزجا بالرغبة •• كانت القصة رمزية•• بدأت بقطيع من الدجاجات بينها ديك يمارس العمليـة الجنسية مع الدجاجات كما يشاء ولأى عدد منهن •• والمشهد الثانى كان لعبد من العبيد يغتصب جارية ويمـارس معها الجنس علنـا وفى حوش الدجاج • أما المشهد الأخير فكان عيسى المسيح وقد عـاد الى الحياة الأرضية ومارى المجدلية تطيب له جروحه بدهانها بالزيت وتعتنى به حتى تصح جروحه وتلتئم ، ويصح هو ، ثم تنتهى القصـة بأن يعيش المسيح حياة جديدة ناجحة جنسيا مع مارى المجدلية على ذلك المستوى الرفيع بين رجل ارتفع الى أن يخلق (الرائع) وبين امرأة قد كرسـت له كل الحب والرعاية • جاءتنى هـذه القصـة على « الطبطاب » كما يقولون فتبينت قرارى وتفكيرى ، وأن ممارسة الجنس ينبغى أن تكون على مثل هذا المستوى الرفيع •

وكانت مشاهد القصة الثلاثة •• علاقة الديك بدجاجاته واغتصاب

العبد للجارية فى حوش الدجاج . ثم تلك العلاقة الرفيعة بين المسيح وماري المجدلية — كانت توضح تماما الفرق بين المستويات لتلك العلاقة . وقد ساعدنى أيضا فى التسامى بتلك الرغبة انهماكى الجاد فى الدرس وفى المتحف وفى الكتاب .. كما أخذتنى قراءاتى عن التجارب الدينية والتصوف الى أمانة روحية وفكرية . أخذتنى بعيدا عن تفكيرى السابق فى الجنس والجرى وراء الاشباع على ذلك المستوى الرخيص — ولو أنه لم يكن يبدو لى رخيصا فى ذلك الوقت .

فى باريس وبعد تلك الرحلة الى « فونتين بلو » .. استقرت علاقتى مع سيمون فى تكامل تام . ولكن لم يمر على هذه العلاقة المتكاملة أسبوعان حتى فاجأتنى سيمون بشىء لم أكن قد أعرته اهتماما ، وهو وجودها — أى سيمون — شبه الدائم معى فى حجرتى فى معظم الأمسيات وبقاؤها معى الى ساعة متأخرة . فاجأتنى سيمون بهذا قائلة : انه يجدر بنا أن نجد لنا مكانا مستقلا نعيش فيه أمسياتنا معا ولتجد أنت المكان المناسب لك ولعملك ولاستقرارك بل أنها قامت بالبحث عن مرسم للايجار وقد اشترت كل معداته من فنان يابانى كان يقطنه وهو راحل الى بلده ، وبدأت تعد هذه المعدات من حوامل للرسم وفرش وألوان وكنفاش وشاسيهات « خشبية » .. وكنبه سرير كبيرة .. الخ .. الخ .

فاجأتنى سيمون بكل هذا مرة واحدة وهى تتحدث عن أمر واقع فعلا وعلى أن أنفذه بغير تردد . وكان وقع كلامها غريبا على ولم أستطع استساغته فى اللحظات الأولى .. وتولانى صمت شديد .. ولم أقل كلمة واحدة ، وكانت هى تنظر الى فى استغراب .. وهى تنتظر أن أقول شيئا .. وبعد فترة من الصمت قلت لها .. سيمون .. انه لم تدر فى خلدى اطلاقا فكرة الزواج . اذ وأنا فى هذه الآونة بعيد جدا عن امكانية تكوين أسرة أو استقرار عائلى — اننى دارس فن . ودارس الفن الجاد سيظل دارسا للفن مدى الحياة — وقد

لا تتاح له الفرصـــة ــ ماديا على الأقل ــ فى الزواج والاســتقرار العائلى بمفهومه المعتاد . وخصــوصا وآنــا لست موسرا ، وأعتقد ان الانتاج الفنى الجــاد لايمكن معطيه من أى ثراء أو رخــاء فى العيش .. قلت هــذا وصمت ناظرا الى عينيها استشف أثر كلامى هذا عليها . ابتسمت سيمون .. قبلتنى .. قائلة .. انك يا راتب قد ألمحت الى ذلك مرارا وذلك بالنسبة لفكرة الزواج وتكوين أسرة . وأنى قد وعيت هــذه التلميحات بل انك قد أبديت رأيــا صريحا فى أن حياتك ودراساتك والطريق الذى تسير فيه يدفعك الى نوع من الزهد فى الحيــاة الأسرية الرتيبة بل فى الذهد فى كل ما هو رتيب ، وان حياتك فى ســنك المبكرة قــد أملت عليــك الكثير من هــذا الشعور .. وذلك كما حكيت أنت بنفسك .. بل اننى ألمح فيك نزعة الى الزهد فى كل المتع الدنيوية المعتادة التى يحبها كل الناس . وانى أردت أن احيطك بجو مستقر نسبيا لتعمل فيه براحة أكثر .. اننى أؤمن بأنك فنان جــاد وتسعى الى عطاء جاد والى مستويات ثقافية عليا ، وانى أحببتك يا راتب لهذا كله وأردت أن أحيطك بكل ما ييسر لك حياتك فى باريس ، ولم أفكر لحظــة فى مسألة الزواج هــذه بالنسبة لك أو بالنسبة لى ــ فى هذه الآونة بالذات ــ ان كل تفكيرى كان منصبا عليك انت لتجد الجو المناسب المستقر لدراستك وعملك .

كانت كلماتها تنساب من فمها بتمهل وتركيز تؤكد اخلاصــا ووفاء وحبا نادرا بغير غاية أو هــدف شخصى . وشــعرت فى تلك اللحظة أن فى كلماتها هــذه أيضا ــ بادرة واضحة للتحرر .. التحرر من معتقداتها الدينية الكنسية الجامدة ــ اعترانى صمت بعد سماع كلماتها ، وأظن أن ملامحى قد نمت عن أسف أو حزن بدا لسيمون .. فجلست ملتصقة بى تحــاول أن تفهم « لمــاذا هــذا الحزن الذى ارتسم على وجهى وذلك الصمت .. هل اساءت هى التعبير أم أن كلماتها قد ساءتنى فى شىء ؟ » .. همست سيمون بتلك الكلمــات

متسائلة .. قلت .. كنت استرجع أحداث الشهور التى مضت منذ بدأت علاقتنا .. والآن أنت تعطين كل شيء بسماحة وصدق للمشاعر .. ولا تسألين مقابلا لعطائك . ان علاقة كل رجل وامرأة ينبغى أن تنتهى بالزواج الذى يعترف به المجتمع ، ولكنك أنت تتنازلين عن حقك وتنزلين على رأيى المتحرر . وما هو مصير علاقتك بالكنيسة ؟ .. وماذا ستقولين للقس عند « الاعتراف » ؟ .. هذا ما جال فى خاطرى يا سيمون وشغل تفكيرى . قالت سيمون بتصميم ان العطاء متبادل بيننا لقد أعطيتنى الكثير والكثير جدا .. ألم تلحظ التغير الكبير فى شخصيتى منذ أن عرفتك ... ؟ ... اننى انسانة أخرى غير تلك التى عرفنى بها أصدقائى ومعارفى من قبل . ان الكثيرين منهم وخصوصا « مدموازيل كوجو » واثنين من القسس الذين عرفتك بهم من قبل قد نبهونى أكثر من مرة اننى أنزلق الى طريق منحدر لا يستهدف الغاية المرجوة : الدين وتعاليم الكنيسة .. ولكن واحدا من القساوسة الثلاثة .. ذلك الذى كان يجب أن يناقشك دائما فى الفن والدين والحياة عموما .. هذا القس .. كان يعلم بنمو علاقتنا وكان يبارك هذه العلاقة . انه يحبك ويقدرك ويعتقد أنك ستصل يوما الى تحقيق الكثير . كان يقول لى ان الحب يطهر النفس ويرتفع بالانسان الى المستوى الذى يتفوق فيه على نفسه .

وانى أشعر الآن أننى على ذلك المستوى الروحى الذى اتفوق فيه على نفسى .. بل أننى فعلا قد تفوقت على نفسى .. وعلى تلك المعتقدات الجامدة التى كانت تسيطر على .. سأقول خبرا جديدا .. اننى لم أعد أذهب الى الكنيسة لأصلى بانتظام . ان صلاتى أصبحت بين جدران حجرتى .. فى الشارع .. فى الحديقة بين أحضان الطبيعة .. كل خطوة أخطوها كانت صلاة ..

هذا كان من عطائك .. وانى لأشعر بصفاء وفرح داخلى يتجدد

دائما .. على مر الأيام معك .. وبالمشاركة الفكرية التى نمت وتنمو وتتجدد على الدوام .. كان هـذا قدرى .. لم أكن أتوقع فى يوم من الأيام ما حدث اليوم .. التقى بشاب مصرى .. فنان .. يبحث فى كل اتجاه لكى يحقق ذاته .. هـذا اللقاء .. قد غير حياتى تماما . اننى أشعر بأن علاقتنا هذه كانت محتومة وجاءت فى انسجام تام مع نفوسنا المتفتحة للمعرفة .. أنت أيضا قد تغيرت يا راتب .

كانت سيمون والكلمات تتدفق من بين شفتيها هادئة تماما تزن كل كلمـة وتضغط عليها فى تأكيد واضح لايمانها بكل ما تقول .. كنت أستمع اليها وأنـا سعيد لمـا أسمع ـ خائفا مما أسمع ـ لقد تغيرت سيمون بالفعل وسريعا فى شـهور معدودة .. أمكنهـا أن تغير محور حياتها .. ذلك المحور الذى كان يشـدها الى نوع من الايمـان المطلق بالدين بذلك المفهوم الكنسى التقليدى المحـدد .. ذلك الايمان الذى أعطاها استقرارا روحيا بسيطا ، يكفى لممارسـة حياتها الدنيوية بغير قلق أو شك فى معتقداتها الروحية . انها تمارس الغناء الدينى والعزف على البيانو ـ تلك المقطوعات الروحية الرائعة التى نسجها « باخ » العظيم من خيوط الفكر والروح والايمان .. كانت سعيدة فى حياتها .. تمارس حياتها الدنيوية فى سهولة ويسر .. بل فى انشراح وسعادة تامة ، مستندة روحيـا الى تعاليم الكنيسـة التى بلورتها الأجيال وأصبحت ملجأ روحيا آمنا لعامة الناس .

حينما عرفت سيمون فى مبدأ الأمر .. كانت تسير دائما فى مشية جادة ولكنها فى بشر دائم .. فقد كانت فى اطمئنان تام للجانب الروحى من حياتها ، وقد أعفتها الكنيسة ومعتقداتها من أى شـك قد يدعوها للبحث والتأمـل فى مسـتويات روحيـة أعلى . كانت الكنيسـة الكاثوليكية وتعاليمها هى المحور الروحي والدعامة الثابتة التى تدور حولها حياة سيمون .

قلت انني اكنت سعيدا لأن أسمع هــذه الكلمــات التي قالتهـ سيمون ــ وكنت أيضا خائفا لنفس تلك الكلمات .. ان كلماتها هذه قد هدمت ركنا مهما في معتقداتها الروحيــة . وبدا لي ان محور حياتها قد تغير .

لم تعد الكنيسة وتعاليمها تكفى لاشــباع سيمون روحيـا . ومعنى هذا أنها انتقلت الى محور آخر .. أو أنها على وشك أن تنتقل الى محور آخر . هــذه الفترة .. فترة الشك في محور ايمانها الروحي التي تكاد تفقده .. هي فترة خطيرة ــ لقد مررت بها أنــا شخصيا .. وأنــا الآن في صدد البحث والتأمل ، لأجد طريقي الى الأمــان الروحي ، الذي لم أجده في المعتقدات التي ورثتهــا وليدا ويافعا . وأنــا الآن أمسح « السبورة » شابا ، وما كتب على هــذه السبورة بغير وعي مني أو ارادة .. انني أحــاول كل يوم أن أمحو ســطورا لكي اسطر غيرها .. بضــع سطور محــلاة .. موروثة .. أبدلها بسطور أخرى مدروســة نتيجة تأمل جديد ودراسة . انني أكتب سطورا على ســبورتي بنفسي اليوم .. أبحث ما ورثتــه من معتقدات وقيم .. وأضعهــا تحت الفحص الدقيق .. بالعقــل .. بالوجــدان .. بالتــأمل العميق ــ أقبل منهــا ما يستسيغه العقل والوجدان .. وأرفض ما غير ذلك . انني أحــاول أن ارتب البت وأضع لنفسي مقياسا للقيم .. من تجاربي الشخصية وكذا من تجارب الآخرين الذين قــدموا لي خبرتهم من خــلال أعمــالهم ســواء : بالكلمة .. بالنغم أو بالتشكيل . انها كلها مناهل للثقافة تبني دائما .. تبني ذلك المقياس للقيم الذي بدونه لا أستطيع التقدم الى الأمام في النقد الذاتي وبالتالي في تحقيق الذات . لقد خفت على سيمون .. ان الطريق الذي أتبعته أنــا شاق وطويل وخطير أيضا .. وهي تثق بي .. لقد أحبتني .. هــذا صحيح .. ولقد أحببتها .. ولكن كان هدف حبها هو (راتب) ولكن كان هدفي أنــا لم يكن (سيمون) ..

انها صديقة وعزيزة لدى جدا .. ولكن هدفى كان أعلى من ذلك ..
انني كنت أبحث عن نفسى داخل نفسى .. وانى أدرك خطورة ذلك
الطريق .. ومن هنا كنت أخاف على سيمون لأنى كنت أحبها وأنى
لم أكن هدفا ثابتا لها ، فهى تعرف ــ وقد أكدت لها ذلك ــ اننى
قد أرحل ذات يوم عنها .. وأن طريقى هــذا الذى أسير فيه الآن
قد يبعدنى عن أية امرأة .. هــذا كان تفكيرى فى ذلك الحين ..
لقد أخفيت خوفى هــذا عن سيمون وقلت فى نفسى انهــا على مر
الأيام ستعلم مشقة الطريق ، واذا ما غاب عنها « راتب » فى يوم من
الأيام فهى تعرف طريق العودة تماما .. العودة الى أحضــان الكنيسة
الكاثوليكية .. ولأدعها تسير التجربة الجديدة فهى تجربة ــ كما أن
لها مخــاطرها ــ فبالتأكيد لها فوائــد .. فهى تفتح الأبواب لقيم
جديــدة .

جاءت الأجازة الدراسية .. وجاءتنى سيمون تقترح أن نذهب
سويا الى « بريتانى » ... مقاطعة من مقاطعات فرنسا ، وذلك خلال
أجازتها فى شهر أغسطس « سنة ١٩٣٩ » ، حيث لها أقارب هنــاك
ويمكننا الاقامة معهم اذا شئنا .. فقلت لها اننى أفــكر فى الرحيل
منذ الآن الى « شارتر » لدراســة الكتدرائية الرائعة التى قرأت
كنها الكثير ، ولم أشاهــدها بعد ، ويمكنهــا هى أن تلحق بى اذا
شاءت عندما تحل اجازتهــا فى أغسطس وعندما تأتى الى شــارتر
فيمكننا التفكير فى مسألة « برتانى » هــذه ولم ترض سيمون عن
هذا الترتيب قائلة انني سأبعد عنها مدة طويلة ، وانها تفضل أن أظل
فى باريس حتى أغسطس ونرحل معا .. ولكنى كنت قد عزمت فعلا
على الرحيل وحدى لكى أعيش مع نفسى بعيدا عن سيمون وعن أى
مؤثرات أخرى حتى أجد العزلة التى أنشدها للتأمل والدرس .

أعددت كل ما احتاج اليه من ملابس وغيرها تكفى لمدة الاجازة

الصيفية فى حقيبة ، ومعها كتاب واحد عن تاريخ الفن « لالى فور » الجزء الثانى عن فن القرون الوسطى .

كما أخذت صندوق ألوانى وحاملا خفيفا وبعض اللوحات الخشبية (ابلكاش) وفى عزمى أن أخرج الى الطبيعة أجرب حظى فى رسم (المناظر الخارجية) Landscape متمثلا « بسيزان » الذى كان يملأ على تفكيرى تماما فى هذه الحقبة من الزمان .

وفعلا رحلت بعد أن ودعت سيمون ووعدتها بأن أكتب اليها بمجرد أن استقر فى عنوان ثابت لاقامتى .. سافرت الى شارتر .. لم أجد سكنا فى شارتر نفسها .. بحثت فى قرية مجاورة لا تبعد عنها كثيرا .. لم أجد الا حجرة صغيرة مظلمة ملحقة « بقهوة » يؤمها العمال لشرب القهوة والنبيذ وتناول طعامهم البسيط .

فراش حديدى قديم . دولاب لا يمكن فتح ضلفته بدون أن تسقط .. ثم أجد عناء فى اعادتها الى حالها فى كل مرة .. فقررت أن أترك الدولاب مفتوحا والضلفة بجواره ليس الا .

كرسى أعرج بثلاثة أرجل لا بد وضعته مستندا الى الحائط حتى يمكننى الجلوس عليه اذا كان لابد من الجلوس .. وفى المساء وعلى ذلك السرير الخشن يبدأ البعوض الفرنسى الذى فقد كل صفات فرنسيته فى الأناقة واللطف .

يبدأ فى اللدغ بغير استئذان وكأنه يدافع عن وطنه .. تلك الغرفة المظلمة التى لا أظن أن هناك انسانا غيرى قد اقتحمها على ساكنيها من « الناموس » من قبل .

قبلت السكنى فى هذه الغرفة على مضض لانى لم أجد غيرها أولا ولأن صاحبتها ــ وهى صاحبة القهوة أيضا ــ وعدتنى بتقديم بعض الوجبات الساخنة من وقت لآخر ، وذلك بجانب رخص الأسعار سواء للغرفة أو للوجبات .

كان غرضى الأول هو العيش بجانب تلك العمـارة الدينيـة الرائعة ــ « كتدرائية شارتر » التى بنتها أجيال وأجيال على مدى مما يقرب من القرنين من الزمان •

كنت مشوقا الى هذه التجربة •• معايشة أعظم أثر معمـارى فى أوروبا من العصر القوطى • كنت أبدأ يومى فى شـارتر عند أول ضوء ــ كما يقول العسكريون • أولا لأهرب من لدغات البعوض ، ثم حقارة الغرفة والرائحة التى كانت تنبعث من جدرانها الرطبة • لم أر فى حياتى أحقر من هــذه الغرفة ولم أعرف السبب الحقيقى فى قبولى الاقامة فيها بالرغم من المبررات التى ذكرتها من قبل •• هل هى المرأة الطيبة صاحبة القهوة والمكان التى عاملنى برقـة وطيبة قل أن أجدها فى غير أهل الريف الطيبين ؟ أم هى تلك القهوة التى كنت آخذ مكانى فى أحد أركانها حيث كنت أتناول طعـامى من بيض وخبز وجبن وبعض الخضروات والفاكهة ، وذلك الثمن الزهيد جدا الذى كانت تتقاضاه صاحبة المنزل ، أم جلستى التى قد تطول لشرب كوب من القهوة بعد الغذاء ــ لا حبا فى القهوة ــ ولكن لأشاهـد هؤلاء النفر القليـل من العمال الذين يأتون لتناول غـذاءهم فى القهوة •

زجاجة من النبيذ ــ رغيف كبير من الخبز الأسمر ــ قطعة من الجبن •• ومطواه كبيرة فى يد كل منهم ليقطع بها شرائح الخبز والجبن يلتهمها ولكن فى بطىء وتأن •

أذرعــه مفتولة قوية وأصابع اليد فى خشـونتها تفيض على السكين لتقطع شرائح الخبز •• كل اصبع له دور معين فى القبض على السكين •• وتلك الوجوه التى لفحها الهواء والشمس •• كل هذا كان يشد انتباهى تماما ــ متأملا ايـاه فى كل حركة وفى كل ايماءة من أحدهم •

كانوا يتحدثون فى أمور تهمهم وهم فى شبه سـعادة موقوتة بانتهائهم من تناول ذلك الطعام والشراب البسيط .. كان فكرى ينتقل الى قريتنا « المنيب » بالجيزة .. والفلاح المصرى البسيط وقد انتهى من عمله فى الحقل عند الظهر وجلس يستريح فى انتظار طعام الغداء .. حين تحضر زوجتـه أو ابنته « المشنة » وقد امتـلأت « بالبتاو » ، الخبز الفلاحى الأسمر المصنوع من الذرة ثم صحن « المش » وفحل أو فحلين من البصـل .. وقلة المـاء التى يجرع منها ما يشاء حتى يرتوى بعد أكلة سعد بها عن قناعة لاشك فيها .

ملامح الانشراح والسعادة « العابرة » التى تبدو على وجوه هؤلاء العمـال فى فرنسا .. فى شارتر .. وهؤلاء الفلاحين فى قرية من قرى مصر .. بعد الانتهاء من عمل وتناول وجبة بسيطة .. أثارت فى .. فى نفسى .. فى فكرى بل فى وجدانى كله الذى كنت أعيش به فى تلك الحقبـة الزمنية .. كانت تثـير الكثـير من التساؤلات .

هذه الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين .. تجد متعة كبيرة فى هذا الطعام البسيط بل ان علامات الاستمتاع قد تجد سـبيلا الى ملامح وجوههم بين الفينة والفينة ولكنى كنت أشـعر وأنـا أراقبهم أنه استمتاع « مكتوم » .

أنـا شخصيا أتناول طعامى عدة مرات فى اليوم ولا أشـعر بأية متعة ، سوى أن أسـد جوعى فى أسرع وقت ممكن لأفرغ لشىء أكثر أهمية وأكثر متعة .. ربما لقما . ان تنـاول الطعام فيه متعـة حسية لاشك فيها ان مضغ وابتلاع « لقمة » سائغة يقبلها الذوق .. هو استمتاع حسى .

ولكن هؤلاء العمال والفلاحون .. ان انشراحهم وسـعادتهم

المكتومة أثناء تناول الطعام تأخذ شـكلا آخر غير الشكل الحسى ..
انها أكثر من ذلك بغير شك .

ان هنـاك سرورا وفرحا ما يسرى فى نفوسـهم مما جعـل الاستمتاع بالطعام أكثر من متعة حسية . نعم .. انه العمل .. ان كلا من هؤلاء الرجـال قد أنجز عمـلا ما يشعر فى قرارة نفسـه وربما بغير وعى كامل منه ــ بأنه أدى شيئا مهما لنفسه ومجتمعه .. انه ليس سلبيا مثلى وأنـا فى تلك الحقبة ــ انه ايجـابى منتج ، ولذلك فهو سعيد بقناعة .

وفى تلك اللحظـة التى نعت نفسى بالسلبية بغير وعى كامـل بدأت أفكر حول هذه السلبية ، ولمـاذا هى سلبية هل أنـا الآن أعمل ؟ هل أنـا الآن منتج ؟ ماذا أعمل وماذا أنتج ؟ ..

لقد جئت لهذه القرية « شارتر » لكى أعيش فى كنف كاتدرائيتها الرائعة استمتع بمشاهدة كل ما فيها من روائع العمـارة والنحت التى أنتجهـا عقـل ووجـدان شـعب بأسره .. شـعب فرنسا الذى أودعتها تلك الصفوة الممتازة من الفنانين والعمال الذين قاموا بهذا العمل الجبار .

الاستمتاع بالمشاهدة .. عملية سلبية ؟ فى فترات الراحـة من المشاهدة كنت أذهب الى حديقة صغيرة وراء الكتدرائية ملحقة بهـا وهى تطل على منظر جميل والجـأ الى كتـاب رائع لكاتب فنـان رائع هو « الى فور » والكتاب كان عن تاريخ الفن : الجزء الخاص بالعصـور الوسطى وكنت أعيش مع الكتاب والكاتب فترات طويلة ، ثم أجد نفسى محتاجا الى الراحة .. فيذهب بصرى بعد أن أضـع الكتاب جانبا الى المنظر الجميل الذى أطل عليه من حديقة الكتدرائية وقد ينسحب بصرى من الطبيعة الى عمـارة الكتدرائية مرة أخرى .. المشاهدة والقراءة « عملية سلبية » ولكننى ذكرت أننى أخلد الى

الراحة من المشاهدة الى الكتاب ، وأخلد الى الراحة من الكتاب الى الطبيعة ثم العودة ثانية الى المشاهدة للعمل الفنى .. اذن فالعملية ليست كلها سلبية بل أن مجهودا ذهنيا ووجدانيا يبذل بالرغم من كل شيء وهذا ايجابى بغير شك .

صحيح أن المشاهدة والدراسة للعمل الفنى والقراءة الجادة هى عملية استقبال وليست عملية عطاء وخلق فى حد ذاتها ، ولكنها ايجابية ومجهدة اذا أردناها كذلك ، وسلبية ومريحة اذا أردناها كذلك أيضا .

ان بين العطاء والخلق وبين الاستقبال والأخذ فارقا لاشك فيه ولكن الاثنين فى جديتهما محتاجان لمجهود ايجابى .

عشت شهرين كاملين فى شارتر . مع الكتدرائية ـ مع الكتاب مع محاولات خفيفة لرسم المناظر الريفية فى فترات متقطعة باللون ، وسيزان العظيم لا يبرح مخيلتى بفكره ، واستعماله لعنصر اللون لتحقيق أروع ما حققه اللون فى فهم الطبيعة .. بشفافية تظهر الجوهر الكامن فى كل ما يعالجه من تفاحة من شجرة من جبل ... الخ .

كان استعمال سيزان للون حافزا قويا لى لأبدأ من جديد فى محاولة لفهم عنصر اللون عنده ومحاولة تطبيق هذا الفهم ! .. لقد فشلت فى استعمال اللون فى بداية دراستى عند « أوزنفانت » فى لندن .. ولكن فى باريس وعند « فرناند ليجيه » شعرت ببعض النجاح فى محاولتى الأولى ، وقد شجعنى زملائى على المضى فى التجربة على كل حال .

أعتقد أننى بدأت التجربة جادا فى محاولاتى مصمما على المضى حتى أحقق بعض ما فهمته من سيزان وغيره من المصورين الكبار : أمثال فيلاسكويز الأسبانى ومانيه الفرنسى وغيرهم .

كانت الحصيلة بضع لوحات صغيرة بالألوان الزيتية على خشب الأبلاكاش لحقول القمح المجـاورة لشارتر ٠ وكان انهماكى الشديد فى رسم هذه اللوحات من الطبيعة مباشرة مدعـاة لنوع من السرور والانشراح الداخلى الصامت ٠

انها كانت بداية واعدة ٠

كانت مشاهداتى الدارسة لكتدرائية شارتر تتركز على خاصتين اثنتين فى معظمها : النحت والعمارة ٠٠ ولكن تلك التجربة الصغيرة التى خضتها مع اللون أمام حقول القمح ٠٠ جذبت انتبـاهى أكثر وأكثر لتلك النوافذ الزجاجية المرسـومة فى الكتدرائية ٠٠ كنت قد شاهدتها مرات ومرات ، ولكن بعد أن مستنى جاذبية اللون أثنـاء ممارسـتى له فبدأت نظرتى لهذه النوافـذ تأخذ منى اهتماما أكثر وأكثر ٠٠ كنت أعيش داخـل الكتدرائيـة وقتـا أطول مع هـذه الرسوم الملونة ، وذلك الضوء الخافت الذى ينبعث منها فى جـلال ورهبة منصبا على تمثال للمسيح ــ مصلوبا ٠٠ ثم ذلك الانسـان الذى انطرح على وجهـه تحت أقدام المسيح فى شبه غيبوبـة ٠٠ يصـلى ٠٠ ربما ٠٠ أو يستمع الى حـديث متبـادل بين نفسـه وضميره ٠ ربما ٠

انه يؤمن ٠٠ وهذا يكفى ! لاحظت أثناء تجوالى داخل الكنيسة أن بعض النوافذ غير موجودة ٠٠ وهـذا ما لم ألحظـه من قبل ٠٠ ولكنى رأيت بعد ذلك عمالا ينزعون النوافذ واحدة تلو الأخرى بعناية فائقة ٠٠ انها كنوز لاشـك فى ذلك ٠٠ وقلت فى نفسى انهم ينزعونها لينظفوها أو ليرمموها ! ولكن ألم يكن يجدر بهم أن يقوموا بهذه المهمـة وهى ثابتة فى أماكنها تجنبا لأية مخـاطرة للكسر أثناء نزعها ثم اعادة تركيبها ٠ وقف تفكيرى عند هذا الحد ٠٠ لم أحاول أن أفهم أكثر من أنهم ينزعونها فى عناية تامة وهذا يرضينى ٠

وفى خــلال عــودتى من الكتدرائيــة الى حجرتى فى القريــة المجاورة ــ كنت ألمح يافطات خطت عليها بضــع كلمات كانت تشغل تفكيرى برهة ثم أنساها ، لانشــغال فكرى فيما شــاهدته اليوم ، أو قل ما وعيته مما شاهــدته ولكن كانت تعترضنى يافطــة أخرى بنفس الكلمات مع اختــلاف بسيط فى الأرقــام وكان ما كتب على اليافطة لا يزيدعلى ثلاث كلمات « مخبأ لأجل أربعين » ثم يتغير الرقم فى اليافطة التالية الى « ستين » .

لم أستطع فهم ما تعنيه هــذه اليافطــات .. مخبأ . ؟ ... لــماذا هذه المخابىء ؟ ولمن هى ؟ ..

طوال مدة اقامتى فى « شارتر » التى جاوزت الشــهرين لم يخرج تفكيرى عن تأمل تلك التحفة المعمارية والمتكاملة من العمارة والنحت والتصــوير .. والتى لا تبزها تحفــة أخرى فى أوروبــا بأسرها .. ان أجيالا عديدة متلاحقة من الفرنسيين أودعت أحاسيسها وقيمهــا وجســدتها فى عمل جمــاعى رائع بز كل عمل آخر غيره . لم أكن أقرأ الصحف ولم أكن اهتم بالأخبــار السياســية أو غــير السياســية .. كل اهتمامى كان ينصب على « شــارتر » وكتــاب « الى فور » حتى جاءتنى صاحبة الحجرة التى أسكنها فى اليوم التالى بخطــاب ، لم يكن أحد يعرف عنوانى ســوى « سيمون » ففتحت الخطــاب ، قرأته وعلمت ببساطة تامة لــماذا تنزع نوافــذ « شارتر » ولــماذا هذه اليافطات تعلن عن « مخــابىء » .. انها الحرب ! ..

طلبت منى سيمون العودة فورا الى باريس .. لــماذا .. انها الحرب ، وربمــا سأضطر الى العودة الى مصر .. ! نعم ربمــا لن يستطيع أبى وأخى ارسال أية نقود لى فان الطريــق سيغلق بحرا وجوا .. هذا لاشك فيه .

اذن فمن الصواب أن أعود فورا الى باريس لتدبير الأمر .. سواء بالرحيل الى مصر أم بغيره .. ان الحرب لن تطول فى هـذه المرة .. هـكذا كنت أظن ، فقد ارتفعت أدوات الدمار بارتقاء التكنولوجيا فى العالم الغربى .. وأن هـذه الأدوات المتطورة لكفيلة بالقضاء على الملايين من البشر فى طرفة عين .. ولن تمر شهور قليلة حتى ينتهى كل شىء .. الى الخراب .

ولكن اذا انتهى كل شىء .. الى الخراب . فما لوجودى فى باريس « عاصمة النور » كما يسمونها — أى معنى .. وهل يمكن لتلك الشعلة المتوهجة فى ضمير ذلك الشعب الرائع الذى ابدع « شارتر » وغيرها من الأعمال ذات القيم الرفيعة — هل يمكن لهذه الشعلة أن تنطفىء ؟

اننى أشعر بضيق شديد كلما اقترب تفكيرى من ذلك المصير الذى يتهدد تلك الشعوب العظيمة التى فكرت وأبدعت تلك القيم الرفيعة التى تعيش عليها وفيها الانسانية جمعاء .

الحرب معناها القتل مع سبق الاصرار .. القتل للملايين .. الحرب يخطط لها على المدى الطويل طبقة من التجار ... تجار السلاح وآلات الدمار .

يصدر قرارها طقم من السياسيين ذوى الأطماع فى التوسع .. والمجد .. والجميع يجدون من الحجج ما يبرر الجريمة .

اننى أشعر بثقل فظيع يجثم فوق صدرى حتى يكاد أن يكتم أنفاسى كلما جنح بى الفكر والخيال الى ما سيصير اليه العالم من خراب ، ليس فقط خراب مادى ولكنه خراب نفسى وخلقى يستمر أثره أزمنة طويلة ، حتى تتمكن الشعوب والأفراد من رأب ذلك الصدع الذى أصابها جسديا ومعنويا .

وكنت أسير فى شوارع شارتر أراقب سلوك الناس وانفعالاتهم تجاه ذلك الدمار القادم .. ولكنى كنت أفاجأ دائما باللامبالاة تسود ملامح الأفراد .. لا انفعال و لاخوف ولا حتى علامات تشير الى شىء من هذا .

فقط كنت ألاحظ أن الكل يسعى لشراء ما يمكن تخزينه مما يحتاجون اليه من مواد غذائية أو غيرها ، وخصوصا « القهوة » « البن » . وهذه كانت ظاهرة لفتت انتباهى فالكل تقريبا يشترى البن وبأية كمية .. لم أعرف السبب ، فقد كان السبب بعيدا عن تفكيرى فى ذلك الحين .

حزمت أمرى وحزمت حوائجى القليلة ورحلت من شارتر التى شدتنى طوال شهرين كاملين .. متعبدا فى ذلك المحراب الرائع .. محراب الفن والعمارة .. محراب الفكر والتأمل . بين عمارة شارتر وفكر « الى فور » ثم ذلك الوارد الجديد .. الحرب .

رحلت الى باريس ومازال فكرى وحسى كله فى شارتر .. عدت الى حجرتى ولم أكن قد أخبرت « سيمون » بتاريخ عودتى ولكنى علمت من أهل المنزل أنها كانت تسأل عنى يوميا فى الآونة الأخيرة .. وفعلا لم ينته اليوم حتى دق جرس التليفون ونادونى لأسمع كلمتين اثنتين من سيمون .. انها حاضرة الى .

حضرت سيمون .. وكان عناق طويل .. صاحبه شعور خفيف من الخوف من ناحية سيمون ، ولكنى لم أفهم له سببا فى تلك اللحظة .

تحدثنا طويلا عن رحلتى الى شارتر ، وقد تجنبت سيمون الحديث عن الحرب حتى اقتربت لحظة انصرافها وقالت لى أنها ستلقانى فى صباح اليوم التالى ، وسنتكلم عن الخطوات المقبلة التى

يتعين علينــا أن نخطوها فى الظروف الراهنــة ، والحرب مازالت فى بدايتها .

ذهبت الى فراشى مبكرا بعد تناول عشاء خفيف جدا .. ولكنى لم أستطع النوم .. كنت أتقلب يمينا ويسارا ثم ما ألبث أن أترك الفراش لأتمشى فى الحجرة جيئة وذهابا حتى أتعب ! ثم ألقى بنفسى فى الفراش لعل النعاس يأتينى فيريحنى من ذلك الفكر المتشــائم الذى ما يزال فى مطــاردة أى نعاس قد يأتى ... !

ان الحرب بدأت وأين بــدأت ــ فى أوروبــا ــ فى العــالم « المتحضر » .. وهل هو عالم متحضر حقا ؟ انه عالم « متقدم » فعــلا .. متقدم صناعيــا وتقنيا .. عــالم غنى بثرواته الذاتيــة وبما يمتصه من دماء مستعمراته فى افريقيا وآسيا وغيرها .. انه عالم لا يشبع .. يرغب فى المزيد دائما .

لقد حوصرت ألمــانيا فى عقر دارها بعد الحرب العالمية الأولى .. وتقاســم المنتصرون مستعمراتها ، وهى الآن تطلب نصيبها المسروق وتطمع فى أن تستولى على نصيب أوفر مما فقدته فى الحرب الأولى .. انها دولة قوية أعدت نفسها عسكريا واقتصــاديا للحرب المقبلة .. لابد أن تنتصر .. لكى تحقق آمالا رسمتها لنفســها طوال ســنين مضت . لقد وضعت نفسها اقتصاديا وصناعيا وعسكريا .. ونفسيا فى « ريجيم » .. نظام قاس تحت زعامة رجل قوى : هتلر الذى أعدها لتلك اللحظــة التى اطمئن فيها الى تمام استعداده ومؤازرة زميله « موسولينى » .

اجتاح بولندا .. ولم تجد أوروبا مناصا من أن تعلن الحرب .. واندلع اللهب .. واندفع فى رأسى ــ ذلك الفكر المخيف لتوقعــات مخيفة حتما ، ستأتى مع ذاك اللهب .

كنت أرقد فى فراشى أتقلب يمينا وشمالا ، التمس النعــاس

لأهرب ولو للحظات من تلك الصــور التى تتلاحق فى مخيلتى ..
صــور تضيق بها أنفاسى حتى تجعلنى أترك الفراش مرات ومرات
وألجــأ الى المشى فى الحجرة جيئة وذهابا . ولكن هيهات أن تتركنى
هذه الصور المهدرة لكل ما هو انسانى داخل الانسان .

انسان فى زى .. ذو شكل ولون معين .. استظل تحت عــلم
ذى ألوان معينــة .. يصــوب رصاصاته نحو أخ فى الانســانيــة
لا يعرف عنه شيئا ســوى أنه يرتدى زيــا مخالفالزيه ويستظل بعلم
اختلفت ألوانه عن علمه . انه يطلق الرصاص ليقتل ... يقتل عن عمد
وما درى أنه بقتله أخــا فى الانسانية انما قتل الانسان داخل نفسه
هو أيضا .

لقد طاردتنى هذه الأفكار وظلت تطاردنى طوال حياتى . فبينما
كان الحب الكبير .. الحب الطاغى .. لكل ما هو انسان .. لكل
ما هو كائن ، لكل ما هو حى أو جامد .. كان هــذا الحب الطاغى
الذى أحاطنى من كل جانب ــ فى تلك الحقبــة من حياتى .. كان
هذا الحب يسحب من أعماق نفسى كل غلظة أو عنف .. حتى رقت
الرقة فى جنباتى ، وأصبحت يكاد دمعى ينهمر عند أية ومضــة من
رقة فى النفس البشرية ــ عند أية لمحة من عمل خير شجاع .. عند
أية همسة من شهامة فى الحق .

لقــد مرت على فترات .. قبــل أن يشــملنى هــذا الحس
الرهيف .. كنت أنظر الى العنف على أنه طريق .. بل انه الطريق
الوحيد لمقاومة أى خطــأ أو ظلم يقع على أو على أى شخص ينتمى
الى .. لقد مارست العنف والقوة فى حل كثير من القضايا .

والآن وفى هــذه الحقبة من حياتى وأنــا فى باريس وقد قامت
الحرب فعلا .. لقد شعرت وأنــا فى ذلك الفيض من الرقة والحس

المرهف .. بالسلام .. سلام يجعل كل جسدى فى استرخاء كامل ممتع وكل أحاسيسى فى يقظة تامة واستمتاع بهذا الشعور الغامر .

ومضات سريعة تمر .. وسرعان ما تنتهى .. ولكن هل هى قد انتهت فعلا .. ؟ لا أظن .

لقد كانت تعاودنى فى فترات متباعدة . كان لها أثر واضح فى تكوين خلفيـــة جديدة تماما لتفكيرى ومحـــاولة بناء شخصيتى .. فكل قراءاتى سارت على هـــذا النحو من الفكر تغذيه وتصقله .

تناقض عجيب هذا .. يبين ما هو حادث فعلا من دمار وهدم فى هذه الحرب ، وبين ما يحدث فى داخل نفسى وفكرى من احســـاس بالسلام البناء .

ان عملية البناء الداخلى قد بدأت حقا فى فكرى عندما دقت طبول الحرب .

عزمت على الرحيل من عاصمة النور الأوروبية الى عاصمة النور للعالم القديم التى سادها السلام مئات السنين وسادتها القيم آلافـــا أخرى .. الى مصر .

جاءتنى سيمون ودعتنى للخروج وتناول وجبة خفيفة فى حديقة « التويليرى » حيث كانت هناك « كافيتريا » صغيرة تفى بالغرض .

ذهبنا سويا وتناولنا بعضا من قطع « الساندوتش » وعصـــير البرتقال ، وبدأت سيمون الحديث ، وكان فكرى مشغولا بالعودة الى مصر . بدأت سيمون تسألنى عما عزمت عليه ؟ وقبل أن أجيب .. بدأت هى تتحدث عن فكرها ، وانها تكره عودتى الى مصر .. لقد كنا قد استأجرنا مرســـما لطيفا فى حى مجـــاور ، وبدأت هى فى تنسيقه واعداده ببعض مستلزمات المعيشة من فراش ومقاعد .. الخ على أن نقيم فيه ســـويا . كما أنها لم تنس البيانو الذى يخصهـــا

فقد نقلته بالفعل الى المرسم الذى استأجرناه واشترينا كل معداته من حامل للرسم وألوان وفرش « وكنفاس وشاسيهات » ــ من فنان يابانى قد انتوى الرحيل الى بلده •• وكان كل ما دفعته فى هــذه المعدات لا يتجاوز المــائتى فرنك (بسعر ذلك الوقت = ١٤٠ قرشا • مائة وأربعون قرشا • الفرنك سبعة مليمات) أما ايجــار المرســم فكان ١٥٠ مائة وخمسين فرنكا فرنسيا للشهر الواحد • كان حلمــا جميلا كاد أن يتحقق تماما لولا هــذه الحرب اللعينة : مرسم جميل فى قلب باريس ورفيقة محبــة تشاطرنى طموحى وأفــكارى بغير التزام منى •

كانت علاقة ممتازة أعطتنى الكثير مما كنت فى حاجة اليه •• حب ورعاية وفهم •• هذا كل ما كنت أحتاجه •

ان النقود التى كانت تأتينى من مصر كانت قليلة ولكنهــا كانت تكفينى مع القناعة والاحتشام •

ولقد أفهمتنى سيمون أن المعيشة فى « المرسم » ستكلفنا أقل كثيرا من المعيشة فى « البنسيون » وذلك بالنسبة لى على الأقــل ، وانها ستشاطرنى بطبيعة الحــال فى النفقات •• واننى سأفرغ تماما للرسم والقراءة فى ذلك المكان الفسيح نسبيا والمريح تماما لى كدارس فى هذه المرحلة بالذات •

كاد كل شىء أن يتحقق ، وقد بدأت أفكر جديا فى تحقيق هذا الحلم وأن أبقى فى باريس ولكن •• ماذا ســيكون مصــيرى اذا ما انقطعت عنى تلك الجنيهــات القليلة التى يرســلها لى أبى كل شهر • هنالك احتمال كبير فى أن ينقطع الاتصال طوال مدة الحرب •• وربما تطول هذه الحرب كأختها الأولى ، ولو أنى لا أتوقع هــذا بعد أن تقدمت آلات الحرب ، والتى يمكنها افنــاء البشر فى يسر أكثر ووقت أقصر عن مثيلتها السابقة •

هل فى مقدورى أن أجد عملا أتعيش منه خلال هـذه المدة اذا ما انقطع عنى المدد من مصر ؟ أجبت نفسى بالنفى •• اننى لا أعرف عملا يناسبنى يمكن أن أكسب عيشى منه ، أما الفن فهو آخر شىء ممكن أن يتعيش منه فنان ناشىء أو قل دارس للفن فى بداية الطريق •

فوجئت باجابة أخرى جاءت فى نفس اللحظـة ـ فقد تحـدثت سيمون بعد صمت •• وكأنها تقرأ ما يمر فى خاطرى من فكر وتساؤل، فقالت •• راتب •• لا تفكر طويلا فى تدبير معيشتك اذا ما انقطع الاتصال بينك وبين أهلك فى مصر •• سأتكفل أنـا بكل ما تريد •• لا تعترض •• فأنا أفهم خلقك وتفكيرك تماما •• ان هـذا سيكون قرضا تدفعه لى عندما تعود الأمور الى طبيعتها ، ولن تحتاج لأن تعمل شيئا آخر يعطلك عن دراسـتك لتكسب عيشك •• وأقول لك شـيئا آخـر •• اذا ما تأزم الموقف فى باريس سـترحل الى الريف ـ الى برتانى حيث لى أقارب هناك • وسيكون هـذا جميلا ومناسبا لك فيمكنك أن تكمل تجربتك التى بدأتها فى شارتر فى رسم الطبيعة Land Skape كان كلام سيمون هذا يقع فى نفسى موقعا غريبا •• يبدو أنه منطقى ، ويمكن أن يكون واقعيـا •• فقد كنت أعرف سيمون وأعرف حبهـا لى وحرصـها على استبقائى فى فرنسا ، بل هى تأمل أن أتزوجها فى يوم ما بالرغم من أنها قد عرفت عزوفى التام عن فكرة الزواج فى هذه الحقبة • ولكن ستسير الأمور الى هـذا المصير اذا أنـا قبلت عرض سيمون • من أين لى أن أسدد هـذا القرض اذا طـال أمـد الحرب سـنين طويلة ؟ تجيب سيمون •• « ستكون قد وصلت الى درجة ممتازة كفنان ويمكنك أن تكسـب الكثير » • كنت أهز رأسى مبتسما •• لم أفكر اننى سأكسب ماديا من ممارستى للفن التشكيلى ! ان الفن لم يكن لى سوى طريق ولم يكن غاية فى ذاته •• ان ممارستى للفن التشكيلى

كانت عملية أخلاقية وخلفيــة فى نفس الوقت تعمــل على فهم الذات والقيم التى حققتها خبرات السابقين تضىء لنا الطريق لتحقيق الذات .

أقمت فى باريس ما يزيد قليلا على العشرة شهور .. لم تكن كلها فترة عطـاء متصــل بمعنى التحقيق .. ولكنهــا كانت فترة استقبال وتأمل .. اتحسس طريقى فى تؤدة وتريث . لقد اختزنت الكثير من المشاهدة والقراءة ، وحان الوقت لأن أتجول فى منحنيات النفس لأفهم ... !

كانت قراءاتى وممارساتى ســواء فى العطـاء والتحقيق أو فى دراساتى فى المتاحف .. تصب.. فى تلك الأونة .. فيضا .. لطيفا من النور على تلك المنحنيات .. أحــاول أن أفهم .. هناك أحاسيس لطيفة تسرى فى عقلى ووجدانى .. قبس من السلام الروحى يكاد يلم بى بعد غياب طويل .. منذ أن بدأت المعاناة .. وقد توالت الأزمات الروحية والتساؤلات .. بغير اجابة على الاطلاق .

منذ الرحلة الى رامسجيت فى هذه الآونة بالذات .. تغير الوضع قليلا .. النفس تهدأ .. وترق تحت هفات رقيقة تأتى فى هجس من الداخل بين الفينة والفينة . هل كان بداية للتصالح مع النفس .. هل كان هذا نوعا من السلام الداخلى جاء بعد لأى .. بالرغم من طبول الحرب التى تدق فى الخارج .. ؟ ربما كان كذلك .

كانت هذه هى الخلفية النفسية التى كنت أعيشها عندما كان على أن أحسم الأمر .

هل أبقى فى فرنسا .. أم أعود الى مصر ؟ ولكن لقد حسم الأمر عنــدما تلقيت خطابا من والدى يعلمنى بمرضــه ويرجــو أن يرانى فى مصر .

سألتنى سيمون عن محتوى الخطاب فقلت لها أن أبى مريض • وهذا كل ما فى الأمر •

أحست سيمون بأن قرارى بالعودة الى مصر سيكون داميا فى هذه الحالة ولكنها لم تقل لى شيئا • ولكنى شاهدت تغيرا طفيفا طرأ على ملامح وجهها •

ان علاقتنا قد تقدمت كثيرا ، وكنا قد رتبنا الكثير حتى يمكننا أن نقيم سويا ونعمل سويا فى تفاهم وتجانس الى حد بعيد ، فى الفكر والهدف ، وقد بذلت سيمون مجهودا كبيرا لنصل الى ذلك ، وقد غيرت كثيرا من فكرها وعاداتها لتلتقى بفكرى وعاداتى •• والآن وقد وقع ما لم يكن فى الحسبان ـ بالنسبة لنا على الأقل •• فهل نفترق بهذه البساطة •• واذا عدت أنا الى مصر فهل هناك سبيل الى العودة الى باريس •• ومتى •• وقد تطول الحرب سنوات عدة كل هذا كان يجول فى خاطرى •• عندما جذبت سيمون ذراعى قائلة لننزل بسرعة •• انها ـ الغارة ـ وقد سمعت صفير الانذار ، ولكنى أمهلتها قليلا حتى أنبه جيرانى فى الشقة المقابلة لأنهما كانا زوجين طاعنين فى السن وقد ضعف سمعهما فرجتنى المرأة أن أنبههما على الباب بشدة ، اذا لم ينفع الجرس •

وبعد أن قرعت الجرس والباب عدة مرات فتحت المرأة الباب ، ولما رأتنى فهمت أنها الغارة ، فأسرعت بالنزول بعد أن أيقظت زوجها ، وقد ساعدناهما أنا وسيمون فى ذلك •

ونزلنا جميعا الى المخبأ فى الميدان أسفل المنزل •• وكان باب المخبأ مغطى ببطانية مبللة بالماء فلم أعرف لذلك سببا الا عندما شرحت لى سيمون أن ذلك يقى الى حد ما من الغازات السامة المتوقعة فى هذه الحرب •

وقلت لسيمون انني لا أملك قناعا ضد الغازات السامة وقد كانوا قد وزعوا علينـا فى لندن فى آزمة ١٩٣٨ الأقنعة لكل المواطنين بدون أى مقابل .. فقالت ستحضر الأقنعة غدا ولكن سندفع ثمنها مقدما وقد يعيدوا لنا الثمن بعد اعادتهـا عند انتهـاء الحرب .. فضحكت معتقدا أنها تسخر ولكنها لم تكن كذلك .

توالت الانذارات بالغارات الجوية .. وقد نزح معظم سكان البناية التى كنت أسكنها الى أماكن فى الريف أكثر أمنا من باريس كما كانوا يعتقدون ، ولكن سيمون لم ترحل وتركت آبويها يرحلان وحدهما الى « برتانى » وظلت هى بجـانبى .. ملتصقة بى تماما .. لا تريد أن تفارقنى لحظة .. انها كانت أكثر من ممتازة بل رائعـة فى كل تصرفاتها الشجاعة .

كنا نمضى لحظات ليست بالقصـيرة فى المخبـأ .. ملتصقين تماما .. تتحدث فى همس وأنـا أسمع .. انها كانت تحدثنى عن « برتانى » وعن أهلها هنـاك ، وعن المكان الهادىء الذى يمكن أن نعيش فيه سويا حتى تنتهى الحرب .. كان حديثها يقع فى نفسى موقعا طيبـا وكان يمكن أن يحقق لى رغبـة أكيده فى العيش مع سيمون فى فرنسا ، وأن استمر فى عملى كدارس للفن .. ولكن هل يمكن أن أكون سـلبيا بالنسبة لمـا يجرى الآن ، وما سيجرى فى الغد عندما يدخل الألمـان فرنسا ؟ ..

كان هذا متوقعا .. وكيف ستكون باريس الجميلة وقد تحطمت معالمها الرائعة تحت قنابل هتلر ؟ .

أفقت من أحلامى ورغباتى عند هـذا الخاطر المخيف .. باريس تحت قنابل هتلر .. قوافل المدنيين التى كانت ترحـل من باريس وطائرات هتلر تطـاردهم بمدافعها ورشاشاتها .. رجـال فى سن

الشيخوخة ونســاء يحملن أطفالهن يتدفقن فى غــير طريق هربا من رصاصات هوجاء أو رصاصات موجهة عمدا •

كنت اتخيل هــذه المسيرات الطويلة من البشر تفر هربا من العنف والحرب والقتل •• هذه الصور التى كنت أتأملها فى الخيال حدثت فعلا •• هذه الصــور الرهيبة لم تبرح مخيلتى حتى الآن •• لقد حدثت فى الأربعينات فى حرب هتلر ، ولكنهــا ظلت تحدث •• هذه الصور لازمتنى طوال حياتى فهى حقيقة لا ينقطع وجودها مادام الانسان موجودا •

ظلت الأيام تمر وأنــا فى حيرة من أمرى •• كنت أسمع آراء كثيرة من حوالى •• ان هــذه الحرب ستكون قصيرة جدا بالمقارنة بالحرب العالمية الأولى • ان آلات الدمار أقوى عشرات المرات عاملا فى المدة السابقة ، ومن المحتمل أن هذه الآلات بقوتها تكون عاملا على ايقاف الحرب فى وقت قريب • كنت أسمع هــذه الآراء من حولى وخصوصا وأنــا فى المخبأ •• كانت هــذه الآراء تصدر عن اناس مرهقين يخففون الوطأة عن أنفسهم بهذه الآمــال المتفائلة •• وكنت أتمنى فى نفسى أن يكون هذا الاحتمال موجودا •• وأن تنتهى الحرب كما كانوا يقدرون فى بضعة شــهور •• كان هذا الاحتمال قائما عند هؤلاء وربما عندى أنــا أيضــا وكان هــذا يريحنى من حيرتى •• ولكن هل أرحل أم أبقى بالرغم من هذا الاحتمال •

ولكن حسم الأمر •• فقد اتصلت بى السفارة المصرية وأخبرتنى أن الطريق الى مصر قد يقطع بحرا وجوا فى أية لحظــة واذا أردت الرحيل الى مصر فينبغى أن تسرع ، وأنهم مستعدون أن يمدونى بالمــال وتــذاكر الســفر اذا رغبت على أن أســدد كل هــذا عند عودتى • فكان هذا حاسما بالنسبة لترددى •• وأخبرت ســيمون

بعزمى هـذا بل أننى استلمت كل ما يلزمنى من مال وتذاكر للسفر وتحدد يوم الرحيل .

كانت سيمون تجاهد لتخفى حزنها ، ولكننى كنت اطمئنها بأنى سأعود حتما الى باريس عندما تنتهى هذه الحرب . وعندئذ رتبت حاجياتى فى حقيبتين وحزمت دراساتى فى لندن وفى باريس وغلفتها جيدا بمساعدة سيمون ، ولكننى لم أستطع أن أحمل كل كتبى فاخترت منها ما أريد وتركت الباقى عند سيمون وكان كثيرا .

وعندما حلت سـاعة الرحيل ذهبت معى سيمون الى محطـة القطار الذاهب الى مارسيليا . وركبت القطـار .. ولكن لم أجد مكانا سوى موضع لقدمى ، واطللت من النافذة لأودع سيمون .. تعلقت فى رقبتى ـ بدأ القطار يتحرك وهى لا تريد تركى .. فرفعت يديها برفق وقبلتها وأنـا أقول لها الى اللقـاء .. سأعود ثانيـة وقريبـا .

ولم أعد الى باريس الا بعد نيف وأربعين سنة .

وصلت الى مارسيليا بعد عناء أكثر من عشرين ساعة فى هـذا القطار اللعين .. واقفا على قدمى .. الكل يرحل عن باريس بعد تلك الانذارات بالغـارات المتواليـة .. الكل يريد أن يلجـأ الى الريف بعيدا عن العاصمة .. التى ستكون هـدفا أكيدا للغارات والدمار . الطرق تزدحم بالسيارات الخاصـة بالفارين من الخطر المتوقع ، بل كان هناك صفوف من الراجلين يحملون القليل من المتاع اللازم لهجرتهم الى الريف القريب .

كانت هذه المسيرات الراجلة والراكبة تمر أمام عينى وأنـا لا أكاد أجد موضعا مريحا لقدمى فى هـذا القطار المشحون تماما بالآدميين .. كانت هذه الصور المرئية تمر سراعا أمام نظرى ولكن

يصاحبها صور أخرى غير مرئية تمر عبر الفكر والخاطر . هل هـذا الدمار وهلاك الملايين من البشر .. وذلك التقدم الرائع فى العلوم والفنون الذى حققته أوروبا .. هل لهذا الفكر الحضارى المتقدم أن يندثر أو أن يتراجع .. هل هو قدر الهى أم هو عبث الانسان أم هو الاثنان معا ؟

ان فكر الانسان لن يندثر .. لن يقف أو يتراجع . انه سيمضى قدما ولكن فى طريق آخر .. طريق غير خير ولا بناء للتقدم وسعادة الانسان .. انه سيمضى بسرعة وجدية ليكشف عن آلات للدمار أشد فتكا من سابقتها ـ ليقتل أكثر ويخرب أكثر .. لكى ينتصر .. ولكن هل سينتصر .. انه ينتحر .

ركبت الباخرة .. وكان فكرى لايزال مشغولا بسيمون والحرب .. كنت أتمشى على ظهر المركب وأنا أسمع من حولى يروون قصصا عن الغواصات الألمانية التى « يزدحم » بها البحر الأبيض ، وعن البواخر التى أغرقتها هذه الغواصات .. وأنهم يتوقعون شيئا من هذا يحدث لباخرتنا . كنت لا أعير أية أهمية لمثل هذه الروايات والتوقعات لم أكن أخاف من المصير مهما كان .. لقد رغبت فى الموت فى لحظات مرت بى منذ وقت كبير .. مرت لحظات نسيت أو تناسيت تلك الأحاديث العابرة التى كان يتناولها الكثير من الركاب . شدت تفكيرى : مصر . لقد غبت عنها ما يقرب من الأربع سنوات .. رحلت عنها وأنا لم اتجاوز التاسعة عشرة .. شاب رياضى فيه من الجدية بقدر ما فيه من مرح وحب للحياة ، وها هو يعود الى الوطن ولم يتجاوز الثالثة والعشرين ، وقد ذهب عنه الشطر الثانى ولم يبق سوى الشطر الأول .. ذهب عنه المرح تماما ولم يبق سوى الجد .. لقد نحل الجسد تماما .. نقص وزنى ما يربو على العشرين كيلو جراما منذ أن رحلت عن مصر حتى عدت

اليها..لم يفارقنى العزوف عن الكلام منذ أن رحلت الى « شارتو » .
فلم يكن يفارقنى الكتاب أو المشاهدة والدراسة داخل وخارج الكتدرائية الرائعة ثم بعض المحاولات فى دراسة الطبيعة بالألوان فى الحقول المجاورة .. لم يكن لى أصدقاء أو معارف أتحدث معهم . والواقع أنى لم يكن عندى أى دافع للحديث مع الغير .. لقد كنت مستقبلا طوال الوقت تقريبا . وكنت أتبادل الحديث مع نفسى .. مع الكتاب .. مع العمارة الرائعة .. والطبيعة الغنية المغنية .

منذ ذلك الحين ولسنوات تلت كان الصمت حديقة رائعة تضفى على النفس الحائرة سكونا ينتشر فيه الفكر بسهولة ويسر أكثر .

جلست على مقعد أرنو الى البحر .. واسترسل بصرى الى سطحه الممتد .. وحركة الموج وهديره يغنيه شكلا ونغما ، وكلما انفرجت زاوية الرؤية بين البصر وسطح البحر زاد امتداده .. الى أين ؟ الى ما لانهاية ؟ لا ! ان الاسكندرية تنتظرنا على بعد بضعة مئات من الأميال .. هذا اذا لم يصدق حدس البعض من الركاب عن الغواصات الألمانية المنتشرة فى البحر الأبيض .

كنت قابعا فى ركن بعيد ما عن باقى المسافرين .. ومر بى أحدهم وكنت سابحا مع الأفق الممتد على سطح البحر ولم أشعر الا وقد توقفت قدماه فجأة ، وعاد الى مرددا اسمى فى دهشة فرفعت عينى لأجد « جورج حنين » أمامى .. وهو يقول انها صدفة سعيدة أن أجدك معى على ظهر الباخرة فى الطريق الى مصر .. لقد بحثت عنك فى باريس فى البنسيون وفى الأكاديمية ولكن لم يدلنى أحد على مكان وجودك ، فالكل كانوا قد رحلوا عن باريس تقريبا .. وهأنذا أجدك اليوم وكنت أظن أنك قد رحلت الى مصر منذ أمد بعيد.

حييته مسرورا بلقياه ، فقد كان انسانا ممتازا ، ولم أنس بعد الحوار الذى استمر بيننا فى جلسات طويلة حول الفن التشكيلى والمدارس المعاصرة وسيزان بالذات •

كان جورج حنين بطبيعته قليل الكلام ، الا اذا أثير موضـوع فى الأدب •• فى الشعر •• فى الفن التشكيلى وعلى الأخص موضوع اهتمامه الكبير بالحركة التشكيلية فى مصر •• فهو يقبل على الحديث عنها فى حماس بالغ ، وهو على صلة وثيقة بالفنانين الشبان سـواء من المصريين أو الأجانب •

جلس جورج بجانبى يحـدثنى عن اهتمامه الكبير بالحـركة التشكيلية المتحررة تماما من الأكاديميـة والتى ينحو معظمهـا نحو السيريالية التى كان هو نفسه ينحو نحوها فى كتاباته وأشعاره ، وأخذ يذكر اسماء لفنانين شبان كان معظمهم من زمـلائى وأصـدقائى •• وعلى رأسهم كامل التلمسانى الذى حظى بحمـاس كبير من جورج ، وكان زميلا فى دراستى بالمدرسـة الثانوية « السعيدية » ، بل كان معظمهم زملاء بالمدرسة السعيدية •• لم يكن هـذا مصادفة •• فقد كان بالمدرسة السعيدية الثانوية فى ذاك الوقت أستاذ لفن الرسـم عاد لتوه من دراسته فى انجلترا •• متفتح الذهن يهوى الاطلاع على كل ما هو جديد ومعاصر فى الحركة الفنية الأوروبية ، ساخط بالتالى على دراسته الأكاديمية فى انجلترا والتى برز فيها الى حد ما بقدرته وموهبته • ولكن سخطه على الأكاديمية الراكدة التى درس على أساتذتها الانجليز وتعطشه لكل ما هو جميل وجديد جعله ينكب على دراسـة المدارس المعاصرة : التشكيلية •• التكعيبية والتجريدية والسيريالية وغـيرها •• وقد انعكس حماسـه للمدارس الفنيـة المعاصرة على تلاميذه •• فى المدرسـة السعيدية • آخاهم وصادقهم وعاملهم بحب فأحبوه •• لم يكن فـارق السـن كبيرا فلم يتعـد

العشر سنوات ، يعيش فى القسم الداخلى من المدرسة ، يشرف على الطلبة ، فقد كان أعزب .

تجمع حوله نخبة من هواة الفن الموهوبين من طلبة المدرسة .. أذكر منهم : التلمسانى ، فتحى البكرى ، فؤاد كامل ، سعد الخادم ، كمال الملاخ ، وغيرهم .. أراد يوسف العفيفى أن يحقق تلاميذه ما لم يحققه هو كفنان .. نجح العفيفى فى ذلك بلا أى ضغط منه للوصول بهذه الغاية .. يساعد كلا منهم فى اتجاهه بفهم كبير منه لشخصية الطالب ، كان مربيا رائعا ممتازا لا أعتقد أنه كان هناك من يوازيه فى هذا المضمار التربوى الموهوب .

كان جورج حنين يحدثنى عن هؤلاء وغيرهم ممن عرفت ولم أعرف ، وهو يلمح من وقت لآخر باننى سأكون عنصرا مضيفا الى الجماعة الكثير مما درست وما حصلت من أستاذين كبيرين مثل Fernand Léger ozenfant .. وما شاهدت من عروض سواء فى لندن أو باريس لأساطير ورواد المدارس والحركات الفنية المعاصرة .

كنت انصت دائما وكانت كلماتى قليلة نادرة .. ثم طلب منى عنوانى فى مصر قائلا أنه سيتصل بى لتقديمى للجماعة ، وخصوصا الذين لم أعرفهم من أعضائها .

ظلت السفينة تسير تارة فى بحر هائج الى حد أن يلزمنى الفراش لأهرب من دوار محقق يلم بى ، وتارة يعتدل الجو فأصعد الى السطح محترسا من برودة الجو بارتداء المعطف .. ومعى كتاب . كان الكتاب هو كل شيء لدى فى هذه الفترة من حياتى .

كنت أسعد تماما بذلك الحوار الصامت الذى كنت أجريه مع فكر المؤلف الذى سطره ببراعة ممتازة على صفحات الكتاب .

كان كتاب تاريخ الفن « لالى فور » Eli Foure الذى بدأت أحد أجزائه فى شارتر .. وظل معى .. حتى الآن .

مر يومان على رحيل الباخرة من مارسيليا ولم نفاجأ بأى من غواصات ألمانيا ! كنا فى الشهور الأولى من بداية الحرب وكانت التوقعات كثيرة .. وكانت أميل الى المبالغة ولكن ما حدث فعلا بعد ذلك كان أكثر كثيرا من أية مبالغات سمعتها فى ذلك الحين .

كان ركاب الباخرة خليطا من المصريين والأجانب ولكنى لاحظت أن هناك عددا كبيرا من اليهود .. كانت لغتهم التى يتحدثون بها غير مألوفة لدى فى بادىء الأمر ، وكانت فى بعض الأحيان تتغير الى الفرنسية أو العربية ففهمت فى آخر الأمر أنهم يهود نعم انهم يهود .. هل هم يهود أوروبيون ؟ لا ! أظن انهم يهود من فلسطين . من مصر . من العراق من لبنان .. ربما لأنهم يتكلمون العربية . كانوا جميعا ذاهبون الى فلسطين .. انهم يتركون أوروبا .. فرنسا بالذات لانهم يتوقعون أن يغزوها هتلر بجيوشه فى وقت قريب .. وهم يعلمون أن صديقهم اللدود هتلر سينكل بهم حتما كما نكل باخوانهم فى ألمانيا ! هكذا فهمت أو قدرت .. هذه الأعداد الكبيرة من اليهود يهرعون الى الاسكندرية ومنها طبعا الى فلسطين.. كان هذا أول عام ١٩٤٠ .

ولم تمض سوى بضع سنوات حتى قامت الحرب بين اليهود والعرب وقامت دولة اسرائيل .

لم يبق سوى يوم واحد للوصول الى الاسكندرية هكذا علمنا من القبطان .

تقابلت مع جورج حنين .. وفى أثناء الحديث علمت منه أن « فرويد » قد مات منذ وقت قريب .. وقال جورج ان موت فرويد

خسارة كبيرة للعلم .. فأومأت مصدقا ولكنى . قلت أن فرويد أعطى كل ما فى جعبته على ما أعتقد .

لقـد كنت مفتونا بفرويـد فترة طويلة . وكنت أقرأ له بفهم شديد ، حتى اننى فكرت فى بداية دراستى للفن أن أتفرغ تماما لدراسة علم النفس ، وأن أترك دراسة الفن الى حين .

وأردفت قائلا .. لقد جذبتنى نظريات فرويد وفروضـه فى التحليل النفسى الى حد كبير ولكن .. عندما قرأت له ما قاله فى تفسير لوحة ليوناردو دافنشى وهى للمسيح فى حجر أمه مريم وهى جالسة على ركبتى آن ، وطبقا لفروضـه ونظرياته فقد سحب منهـا قيمها الرائعة وأرجعها الى تعقيدات الجنس عند ليوناردو .. لذلك زهدت فى هذه التفسيرات التى كانت تتناقض تماما مع ما أحسسته من نبض هذا العمل الرائع المترع بالقيمة والجمال .. لقد فتر حماسى فعلا لهذه التحليلات النفسية الى حد بعيد .. ان النفس الخلاقـة أكبر من كل هـذه التحليـلات .. انها فى تكاملها ترتفع فوق كل التناقضات .

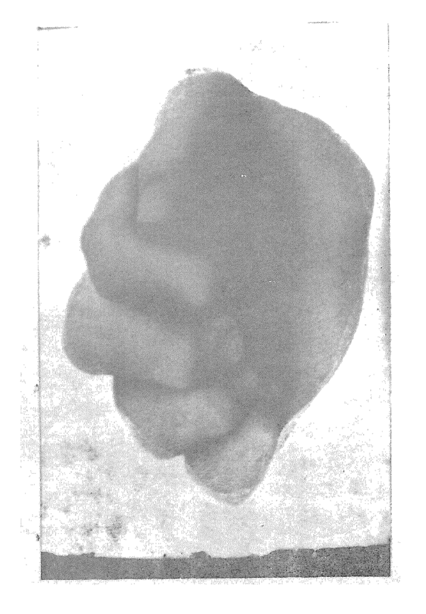
لقد قرأت كمـا لا بأس به من الأدب الروسى وانى لأجد أن عملاقا كبيرا مثل « دوستويفسكى » قد فهم النفس البشرية كما لم يفهمها علماء النفس . لقد غاص فى عمق داخلها وفهم دقائق دقائقها وعرضها على صفحات كتبه عارية تماما بلا أية اضافة أو زخرف .. ان دوستويفسكى فهم النفس البشرية بالبصيرة .. بصيرة الفنـان الخلاق .. وبذا أضاف لتراث الانسانية الأدبى ما لم يضفه غيره فى هذا المضمار .

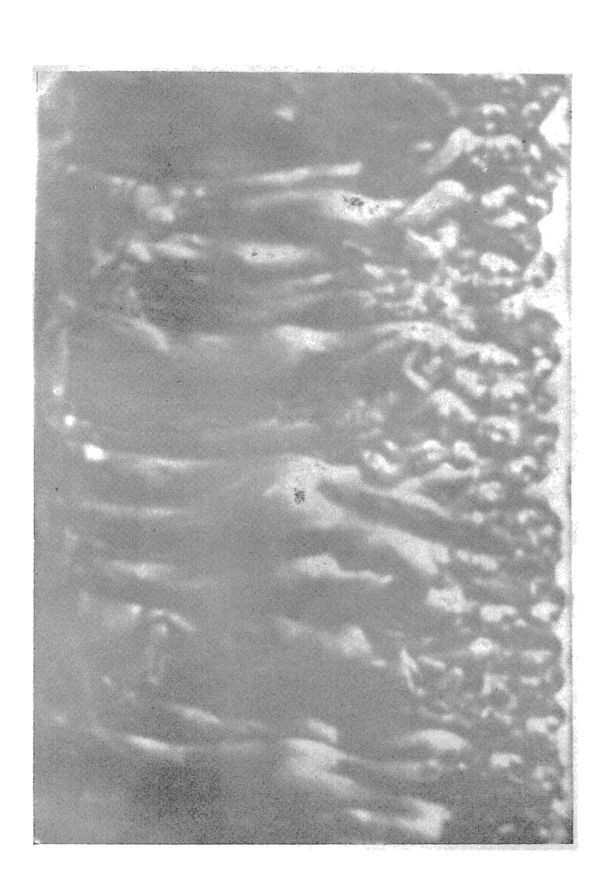
أبلغنـا « القبطان » آننا فى صبيحة الغد نصـل الى مشارف الاسكندرية .. كان الجميع مغتبطين .. لم نلق حتى الآن آية غواصة أو ما يماثلهـا من أدوات الحرب البحريـة من جـانب الألمـان

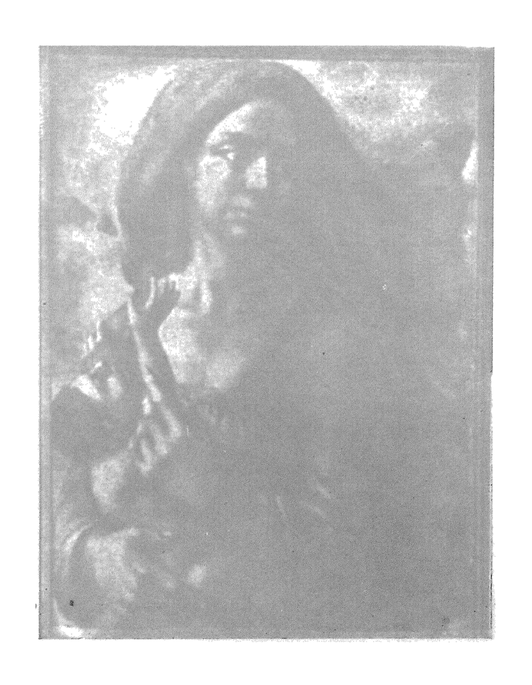
أو الايطاليين . ونحن الآن على مقربة من الاسكندرية .. من مصر .

دخلت قمرتي وأنا منشغل التفكير .. في مصر .. الى أين أنا ذاهب ؟ .. ليس معي سوى بعض من كتبي ورسومي وخبرة لم تكتمل .. هل يمكن للحرب أن تنتهي في بضعة شهور وأتمكن من العودة الى باريس ؟ .. لا أظن . انى ما رأيت الا البداية ، وقد مرت على الحرب بضعة شهور ماذا سأعمل في مصر .. هل سأضطر للعمل في وظيفة ما لكسب العيش ؟ أم سأستمر في دراستي للفن مستفيدا من تلك الخبرة التي اكتسبتها من أساتذتي .. أوزنفانت أولا ثم فرناند ليجيه الذي لم أحظ بأشرافه سوى شهور قليلة . ولكن كانت خبرتي على ما أعتقد أكبر من اشراف الاثنين : المتاحف والمعارض والسهر المضني في القراءة والدرس والتعرف على القسم سواء في المتحف أو في الكتاب .. ان هذه الخبرة التي لم تكتمل بعد قد تكون حافزا للقفز في خضم أغنى وأعقد وأصعب .. عملية الخلق .. التي مارستها تحت قيود اشراف الأساتذة الاجلاء ، والآن يمكنني ممارستها حرة تحت اشراف الوجدان والشوق الى الأرفع .

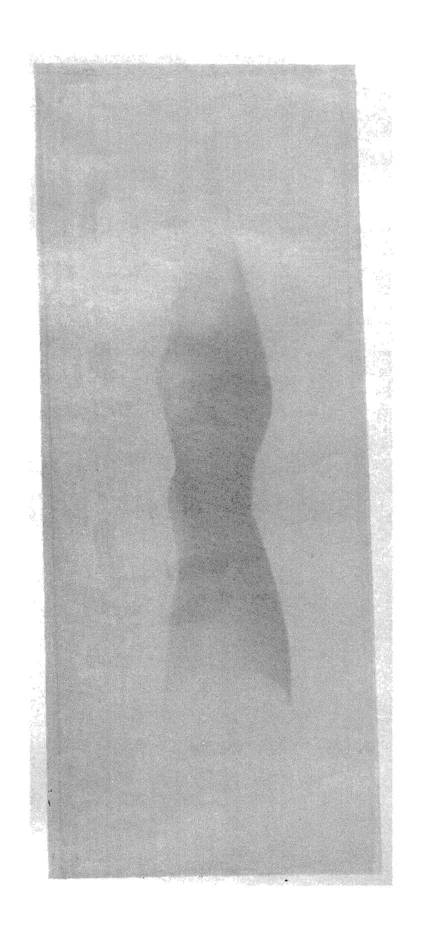
في صبيحة اليوم التالي وصلت السفينة الى الاسكندرية ... الى مصر .



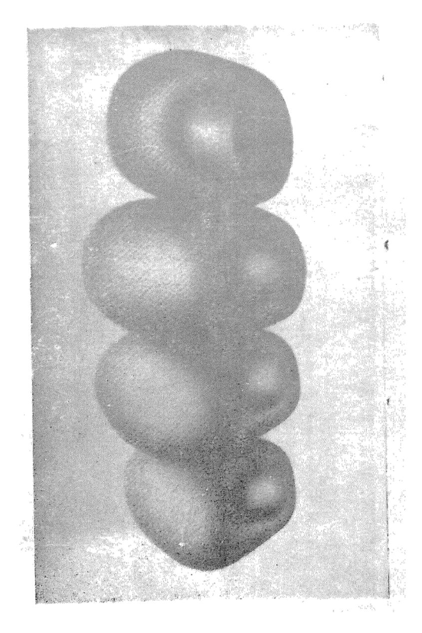


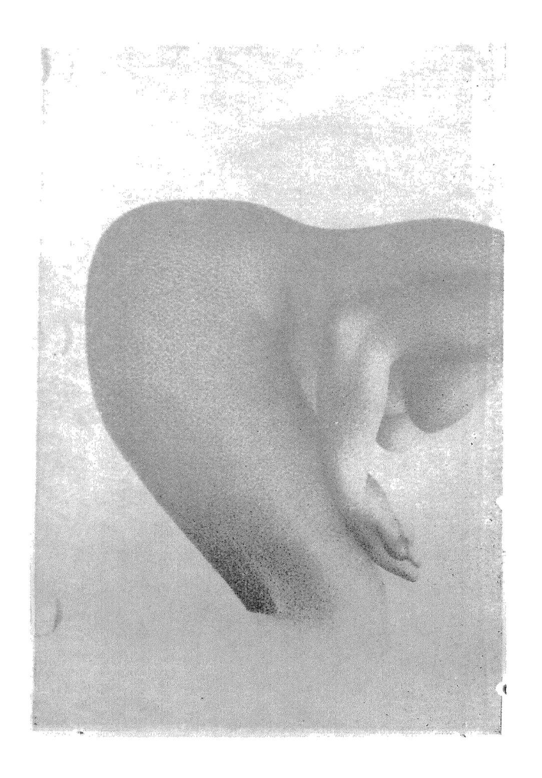


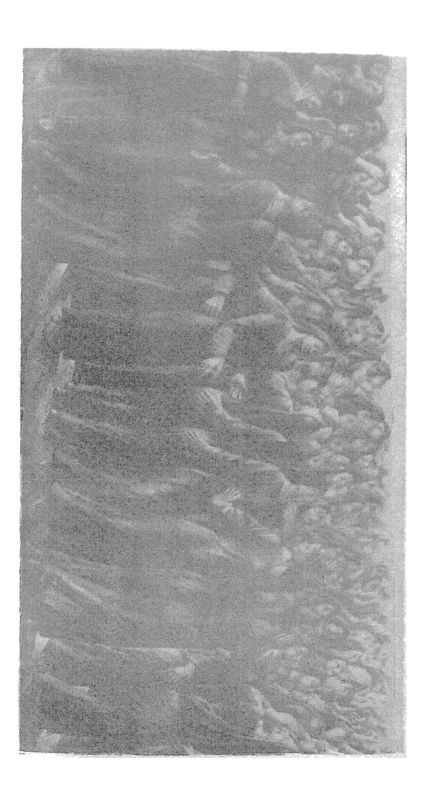
تجربتي في الفن ؟













رقم الايداع ١٥٦٣/٨٩

الترقيم الدولى ٣ ـ ٢٠٣٨ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الفنان راتب صديق يصور لنا فى كتابه « تجربتى مع الفن والحياة » مراحل دراسته للرسم والتصوير منذ كان طالبا بالمدرسة الثانوية ، حتى دراساته على أيدى فنانين كبار فى لندن وباريس ، ومحاولاته الدائبة للاستيعاب والإتقان وما صادفه من صعوبات وإحباطات يحاول التغلب عليها كما يصور لنا دراسته وتذوقه لفنون التصوير والنحت والعمارة بمعايشة روائع هذه الفنون معايشة حميمة مباشرة فى المتاحف والكنائس وغيرها . كما يعبر عن تذوقه للفنون الأخرى كروائع الموسيقى الكلاسيكية وعيون الأدب العالمى إلى غيرها من فنون المعرفة كعلم النفس وغيره . كما يعبر عن تأمله الفكرى ومعاناته النفسية للوصول إلى يقين فى مسائل التدين والتصوف والحب والعمل والحرب والسلام . . . كل ذلك فى نسيج واحد مع علاقاته الإنسانية ، بأساتذته وأصدقائه وصديقاته فى أسلوب حى شيق ممتع .



٢٩٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب